

أبناء غورباتشوف

أبناء غورباتشوف (رواية) أندريوشكين Александр Павлович

ألكسندر أندروشكين (كاتب روسي)

ترجمة: د. باسم الزعبي (مترجم أردني)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط 1. هاتف: 797162720-65620722(+962)

alaan.publish@gmail.com

alaanpublishers.com

المراجعة اللغوية: هبه شريقي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-422-1

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2020 / 6 / 1921)

813.03

أندروكشين، ألكسندر

أبناء غورباتشوف / ألكسندر أندروكشين، ترجمة باسم إبراهيم الزعبي. - عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2020

ص (320)

ر.إ: 2020 / 6 / 1921

الوصفات: القصص الروسية // الأدب القصصي // الأدب المترجم // الأدب الروسي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى



الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

مطبوع بدعم من وزارة الثقافة
2 0 2 1

ألكسندر أندروشكين

أبناء غورباتشوف

Андрюшкин Александр Павлович

Дети Горбачёва

Роман

Москва

2016

ترجمة: د. باسم الزعبي

رواية

-1-

هبطت الطائرة القادمة من طشقند في يوم غائم من أيام شهر آب، وعلى طول الطريق من مطار دوموديدوفو، وتحت أشجار الحور والبتولا، كان العشب الطويل يستمتع بحياته بأمان، قصار القول، كما لو كانت الجنة. لاحظ موراتالي وجود الرطوبة في ذلك المكان فور هبوط الطائرة في موسكو. الأشياء جميعها هنا متطاولة ومتسلقة من تلقاء نفسها، ليس كما هو الحال في الجنوب الجاف، بالرغم من أنها مزعجة في بعض الأحيان.

من المؤكّد أنّ موسكو تبدو أغنى -بشكل لا يصدّق- ممّا كانت عليه في آخر مرّة كانت فيها سوفيتيّة، وأعلى، إذا ما حكمنا من خلال الأجرة التي تقاضاها منه ذلك السائق الرّبعة ذو الشعر الأسود والسترة البنيّة. لكن في اليوم الأول، قرر موراتالي أن ينفق المال، كما لو كان يشير إلى أهميّة المهمة التي جاء من أجلها إلى هنا: افتتاح مركز إسلاميّ روحيّ في موسكو لاستقطاب غير المؤمنين لما يهربون منه.

العمل الدعويّ -في بعض الأحيان- يشبه الانتحار تقريباً. لكنّ التضحية في سبيل الله تكافأً عالياً لديه. ولم يكن مفاجئاً بالنسبة إلى موراتالي أنّ بعض الناس كانوا ينظرون إليه اليوم في المطار بفضول لم يفهموه أنفسهم. كان ذلك هو الإيمان والمعيار الذي يعبر عن جهد الإنسان الحقيقيّ.

وها هو سائق سيارة الـ«جيجولي» البيضاء الصغيرة يسأل بعدم اكتراث

بعد صمت طويل:

- أأنت في مهمّة في موسكو؟
التفت إليه موراتالي:
- أنا المؤلّ موراتالي حاجي رحيموف، أتيت لافتتاح المركز الإسلاميّ الروحيّ هنا.
- قال السائق بعد فترة من الصمت متذمّرًا.
- لدينا ما يكفي من التتار.
- قال موراتالي متأمّلًا:
- أألسّت واحدًا منهم؟
- قال السائق، مع بعض السخرية.
- كلاً. لسوء الحظ.
- لم يكن السائق يعرف شيئاً عن أسعار السلع في موسكو، قال إنّ زوجته من يتسوّق، بالأحرى ليست زوجته، بل محظيّته. حدّث موراتالي حول العديد من المواضيع المثيرة للاهتمام، حتّى إنّ الأخير تناول دفتر الملاحظات وراح يدوّن عليه ملاحظاته.
- لقد عثر عمّ موراتالي عليم جان جورابايف، الذي يعمل الآن ممثلاً تجاريّاً لجمهورية أوزبكستان في روسيا، على شقة له. ولكن هذا سيكون غداً، أمّا الآن فقد ذهباً إلى شقة العمّ نفسه في شارع بيجوفايا. لم يكن الطريق قصيراً، انفتح موراتالي قليلاً أيضاً، فقد سبق له أن عمل صحفياً في موسكو من قبل، وأمضى شهرين كاملين هنا سنة 1987 في معسكر تدريب

ضباط الاحتياط - السياسيين. في الحقيقة، هم لم يسكنوا في موسكو نفسها،
إنّما في ضواحي موسكو.

تجوّلا طويلاً في أرجاء المدينة، وفجأةً وجدا نفسيهما فوق جسر، رأى
موراتالي خلفه مكاناً، بدا مألوفاً حتّى أدقّ تفاصيله، كان ذلك هو الكرملين!
حتى بين المسنّات، أعلى الجدران الحمراء القاتمة، وخاصة أعلى
الأبراج، كان هناك شيء احتفاليّ، مثل التحيّة العسكريّة؛ لمعت خضرة قبة
قصر معروف بلونه الأبيض المائل إلى الصّفرة.

سرت الحرارة في الجسد لحظةً جرّاء الشعور بالانتماء الوطنيّ السابق،
على الرغم من أنّ العقل يذكرك على الفور أنّ موسكو لم تعد مركز العالم
الآن، بل مكّة. بالطبع، لم يكن هذا يعني أنّه ينبغي على المرء أن يحلم برفع
الأهلة على أبراج موسكو.

التفت موراتالي إلى السائق مشيراً إلى الكرملين، الذي بدا منتصباً بلا
حراك، ناظراً إليهما، بينما كانت السيارة تسير على طول الجسر في موازاة
الدرازين الحديديّ المدمج.

- يا لتأثير هذا المنظر فينا، نحن السوفييتيين السابقين!
سأل السائق:

- وهل ما زلت تتذكّر؟ هل أنت حزين لأنّنا افترقنا؟
- لا، بالطبع، أنت تعلم أنّ لنا الآن دولة. وفي النهاية فالربّ هو ذاته -
على أيّ حال - لدى الجميع.
- كيف هو ذاته؟

قال السائق مندهشاً، وأردف بحركة قلقة. وراح مورتلالي يعظه.
في فناء منزل العمّ انحنّت فروع الأشجار التي نمت بشكل كبير
وعشوائي، لدرجة أنّ التشجير فقد كل انتظام منذ فترة طويلة. وفي الوقت
نفسه امتلأت المساحات بين المنازل، ليس فقط بأوراق الشجر، بل
بالتنسيق الموسكوبيّ* غير الدقيق.

كان المصعد نظيفاً بشكل مدهش، تماماً مثل الردهة الصغيرة أمامه.
كانت ابنة العمّ ميهري، الفتاة الموسكوبيّة بالفعل والخريجة الجامعيّة، قد
دعت موراتالي إلى الدخول. كان جورابايف نفسه، وهو مناضل قديم في
العلاقات الروسية-الأوزبكيّة، قد استقرّ في موسكو في حقبة حكم
رشيديوف*.

ظهرت زوجة جورابايف، العمّة إيناكيز، التي كانت تتناول العشاء مع
ابنتها، وسرعان ما ظهر جورابايف الرّبعة نفسه، الذي كان أقصر من
موراتالي، بوجهه العريض والكشرة الواضحة، المندفع إلى الأمام لدرجة
تشعر أنّه يضغطك فتراجع دون أن تشعر.

قال العمّ مقيماً حال ابن أخيه مقدراً الرزانة التي اكتسبها وقد بلغ الرابعة
والثلاثين حديثاً، وانحسر الشعر عن رأسه بشكل ملحوظ:

- لقد تغيّرت، انظر، لقد أصبحت رجلاً!

* نسبة إلى موسكو عاصمة روسيا.

* آخر رؤساء أوزبكستان في العهد السوفييتي.

- نعم، وأنت، عليم جان أماكا.. بطل حقيقي!

كان موراتالي يعني بالضبط إرضاء غرور العمّ، وقد فهم العمّ ذلك ولمعت عيناه فرحًا.

مرّ معظم وقت العشاء ممتعًا أيضًا، رغم أنّهما سرعان ما انتقلا للحديث عن العمل.

كانت خطط موراتالي هائلة، لكنّ الإدارة الكنسيّة لم تقدّم المال إلّا لتغطية نفقاته الخاصة، من أجل استئجار شقة في موسكو. كانت الشُّقة مؤلّفة من غرفتين، وحتى الآن كان من الممكن جعل المركز هناك، لكن إذا ما انتقلت زوجته مع طفليها من طشقند، فستكون الشُّقة ضيّقة عليهم. على أيّ حال يجب أن يكون المركز منفصلاً عن المنزل. وعد العمّ بالمساعدة في هذا الأمر، وقد عقد موراتالي الأمل على هذا.

وفي الحال قدّم له عمّه عنوان الدائرة الحكومية التي يمكن أن تمنحه مكانًا: شارع أوستوجينكو 41. تقع هناك الشركات التجاريّة الأوزبكيّة، حيث يمكن له افتتاح مركزه دون أن يدفع إيجارًا في البداية.

وكان هذا كل المطلوب! شكره موراتالي، وطمأنه أنّه سيحصل على المال قريبًا؛ لقد كان في مكّة، ثمّ حضر دورة تدريبيّة في جامعة الأزهر في القاهرة، ولديه صلات مُعتبرة. سيتوقّف المركز قريبًا عن أن يكون طفيليًا، ولكنه سيساعد أولئك الذين ساعدوه، مشيرًا بأصبعه إلى عمّه. وأضاف مستذكرًا:

- أمّا المساجد في القاهرة فغنيّة وفاخرة، وفي مكّة، فلا يمكنك حتّى تخيّل كم تبدو غنيّة وفاخرة!
وبعد ذلك، أدرك موراتالي من خلال الشرّ الذي لمع في عيني جورابايف أنّه ارتكب خطأ: يمكنك أن تستعرض ثروات داعميك أمام شخص أكثر بساطة، لا أمام عمّك ذي الخبرة الكبيرة.
قال جورابايف بغرور مفترس:

- ما هي الصلات؟ أنا لديّ بعض الصلات، لكن عليك أن تدفع لقاء بناء العلاقات. السنوات التي قادنا فيها شرف رشيدوفيتش أصبحت بعيدة بالفعل، إنهم يتحدّثون عن تلك المرحلة بشكل مكشوف تقريباً، ويتحدّثون بشكل أقلّ عمّا حدث بعد ذلك. ولكن يمكنني أن أقول شيئاً، حتّى بحضور زوجتي وابنتي.

قالت إيناكيز مستاءةً:

- يمكننا الخروج إذا أردت.

لوح العمّ بيده:

- اجلسي، اجلسي.

ثمّ أضاف:

- كان الموظّف في موسكو «يقبض» من أجل تقديم المساعدة، وهو يفعل الشيء نفسه الآن. كان في الماضي يأخذ القليل نسبياً، لكن اليوم يقترب من المعايير الدوليّة. وماذا بشأن أصدقائك المصريين والسعوديين؟ إنهم يعرفون هذا المعيار منذ فترة طويلة. هل أنت

متأكد من أنك ستكون قادرًا على تقديم كشف حساب عن مساعدتهم لك؟ تفوح من الموضوع رائحة السياسة هنا! قال موراتالي مقطّبًا:

- لا تنظر إلى الأمر على هذا النحو، نحن في زمن آخر...

قاطع العم حديثه:

- الزمن هو الزمن، يا عزيزي. لقد كنت أفعل ما بدأت أنت للتوّ في

فعله منذ عدّة سنين. لذلك سأسألك على وجه التحديد: مع من

التقيت في القاهرة، وفي مكّة، بم وعدوك، وبأيّ شروط؟

فتح موراتالي ذراعيه ونظر إلى العمّة إناكيز وميهرى:

- حسنًا، أيّها العمّ، ستكون قائمة الأسماء طويلة جدًا لعرضها، ولا

أعتقد أنّها ستفيدك بأيّ شيء.

حدّق جورابايف فيه بغضب متزايد.

- وما يدريك؟ ربما تُفصح الأسماء بشيء.

وبدأ العمّ في خلع ثقلته في موراتالي، طبقة تلو الأخرى، وتحويله من

رجل دين، يتحدّث معه على قدم المساواة، بل كان يستمع له كأنّه معلّم،

إلى شابّ عصبيّ مستفزّ. كان يسأل موراتالي عن كثير من التفاصيل التي لا

يريد الأخير الخوض فيها.

كان من الضروري وضع حدّ لهذا! إذ كان لا بدّ من إعطاء درس في

الإيمان لرجل الأعمال غير المؤمن بشيء، على ما يبدو، أمام زوجته وابنته.

وراح موراتالي يتحدث عن العمل الدعويّ، الذي سيحرّك التاريخ، والذي كان مقتنِعًا به.

كان الناس يعيشون حياة طيّبة ومُرضية، ويمكن القول إنّها كانت سعيدة، وفجأة حلّ بهم ما حلّ، فراحوا يعبدون آلهة غريبة، ويحفظون الصلوات ويؤدّونها بلغة غير مفهومة، ويتقبّلون المواقف المهينة والمؤلمة في بعض الأحيان خلال طقوس العبادة. ويا ليت حياتهم كانت تتحسّن في هذه الحال! لقد كانت تسوء غالبًا، وتصبح حياةً ميؤوسًا منها. يبدو أنّ ذلك لا ينبغي أن يحدث، ولا ينبغي أن يكون، ومع ذلك، يحدث في التاريخ فقط، مع عشرات البلدان والقارّات بأكملها!

ونفحة الله الرهيبة هذه يحملها الدعاة، أولئك الذين كنت تعتبرهم حتّى الأمس غرباء حقراء، لكنّك اليوم تفهم أنّه قد فات الأوان لتغيير أيّ شيء، لقد حدث التحوّل.

قال موراتالي، وهو يحرق باهتمام شديد في جورابايف الذي لمعت عيناه بالغضب نفسه، وكان في حيرة:

- ولكن هذا ما يفعله المبشّرون من كلّ الديانات، والطريقة التي يتصرّفون بها، ولكن إلى أيّ مدى يمكنني أن أشعر بنفسية بثقة أكبر، وأنا أعلم أنّني أعظ بالإيمان الحقيقي!

ودون أن يتعجّل، راح ينظر إلى زوجة العمّ الصامته وابنته، ويتوقّف عند العمّ جورابايف:

- الله أكبر! ويعود إليه كل شيء، حتّى كل ما في هذا المنزل -وأشار بيده إلى كل شيء في الغرفة، وقد لاحظ عدم الرضى على وجوه الجميع، الذين حاولوا على الفور إخفاء عدم رضاهم، وأضاف - وكل شيء في منزلي، وفي أيّ منزل في الأرض.
- ثمّ صمت. قام عمّه بدفع كرسيه قليلاً إلى الخلف، وألقى ساقاً على ساق بإهمال، بينما سألت العمّة إناكيز باحترام:
- يبدو أنّهم الآن يُنفقون جيّداً على المساجد في طشقند؟
- أجاب موراتالي:
- يقدّمون قدر الحاجة، وسوف يقدّمون. وحسناً فعل عليم جان أماكا -وأشار إلى العمّ - أن وعد الله بكل شيء يملكه.
- قال العمّ بابتسامة ساخرة:
- حسناً أيّها المّلا جان، ومع ذلك أنا لم أعد بذلك بعد.
- حتى لو وعدت، يا عليم جان أماكا، فإنّ مثل هذه الهدية لن يقبل بها أحد، فنحن واقعّيون.
- لا يزال موراتالي يسأل نفسه بحيرة كيف دارت الأمور، كيف بدأ الناس فجأةً يبدوّ شعوراً بالخزي أمامك، ويعتذرون بالكلمة والفعل لأنّهم تصرّفوا معك في البداية بشكل غير لائق. حتى إنّهم عاملوك، في كثير من الأحيان، بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تستحقّها، كما لو كان الاختلاف معك، للأسف، خطيراً جدّاً.

لكن لا يمكنك الضغط عليهم من أجل فرض الاحترام، فإذا لم يظهر الاحترام مباشرة، يمكن أن يختفي تدريجيًا.
وسأل عمّه:

- بشكل عام، فقد فهمت، يا عليم جان أماكا، هل تعد بتقديم الدعم كله لقضية الله؟
أكد العم بقوة:

- نعم، سنقدم الدعم.
- حسنًا، دعنا ننهي الحديث هنا.
ثم التفت إلى ابنة عمّه، وقال:

- حدّثينا، يا ميھري، ماذا يشغل الشباب في موسكو؟
وراح موراتالي يمزح بعد ذلك، وكان مبتهجًا فقط في الظاهر، لكنّه في حقيقة الأمر كان يتذكّر طول الوقت الشيء الرهيب والجبار الذي حرّكه، وشعر بذلك أفراد عائلة جورابايف، وقد أحسّوا ببعض الخطر، بل إنهم أحسّوا بالخوف من الله. هكذا يجب أن يكون الأمر. الشيء الرئيس هو أنّ هناك شيئًا ما يهتزّ في عيني العمّ في كلّ مرة كانت عيناه تلتقيان مع عيني موراتالي.

في الغرفة التي خُصّصَتْ له، صلّى موراتالي، ولم يستطع النوم من فرط الحماس، صلّى مرّة أخرى. لقد تمكّن، في حقيقة الأمر، من تحويل هؤلاء الناس إلى الإسلام اليوم.

-2-

في اليوم التالي أخذته ميهري إلى الشُّقَّة التي وجدوها له. كانت الشُّقَّة بعيدة جدًّا، في شارع الأكاديمي أوستروفيتيانوف، بالقرب من محطة الميترو كونكوفو. لكنَّ الشُّقَّة كانت ممتازة، واسعة، تقع في الطابق الحادي عشر في بناية تتكوَّن من تسعة عشر طبقًا. استلم صاحب الشُّقَّة الإيجار مقدَّمًا حتَّى شهر تشرين الثاني، وغادر.

وقفت ميهري أمام موراتالي في المطبخ إلى جانب الموقد، وعيناها تشرقان بمرح، وقد اختفى الخجل الذي اكتسبها في الأمس. إمَّا أنَّها أرادت أن تتبادل النكات مع قريبها الذي لم يكن يعرف شيئًا عن موسكو اليوم على الإطلاق، أو أنَّها أرادت أن تقول شيئًا آخر مسليًّا، ولا ثقلًا بفتاة شابة في سنِّها، لكنَّ موراتالي قطع محاولتها. أشار إلى كرسيِّ حول مائدة المطبخ:

- اجلسي يا ميهري. أريد أن أحدثك عن الإسلام.

أذعنت الفتاة لطلبه وجلست بعد تردُّد، وجلس قبالتها. نظر إليها، رفع ذقنه دون أن يعيق صوت نفسه. وفكَّر: لا يميِّز الله الأقارب، وإذا ما كانت هذه الفتاة، ميهري، مذنبة أمام الله، فإنَّ كلَّ ما تستحقُّه هو الاحتقار والاشمئزاز.

فجأة راودها الخوف، يبدو أنَّها تذكَّرت الخطايا التي ارتكبتها.

ترك موراتالي الخوف يتصاعد لديها قليلًا، ثمَّ راح يزيله. بدأ الحديث بلطف عن القرآن، ثمَّ كيف يمكن أن نعيش بالتناغم مع إرادة الله. وراح يفكِّر في ما إذا كانت ميهري تعرف الكثير حول الإيمان.

لم تكن تعرف شيئاً! صار لزاماً عليه أن يشرح لها، ويوضح كيف ومتى عليها أن تصلي. وأخبرها أن عليه أن يجهّز مكاناً لأداء الصلوات في هذا السكن الجديد بالنسبة إليه. وباستخدام بوصلة، حدّد اتجاه الكعبة المشرفة في مكّة المكرمة: من موسكو تقريباً إلى الجنوب، مع خمس درجات إلى الشرق. الصلاة في هذا الاتجاه. يمكن ترتيب القبلة، وهو ما فعله. علّق على حائط إحدى الغرف لوحاً أسود صغيراً عليه آية قرآنية مذهّبة ذات حوافّ حادة.

وعند النظر إلى خريطة موسكو، رأى أنّ الخطّ المؤدّي إلى مكّة من هذه الشّقة يمرّ مباشرة من خلال ياسينوفو، مركز الاستخبارات الروسيّة الخارجيّة. وقف عند النافذة، ونظر إلى الأفق الأخضر. يقولون إنّ المبنى مرئيّ حتّى من الطريق الدائريّ، وربّما من الطابق الحادي عشر هذا. ومع ذلك، كان كلّ هذا منذ زمن طويل، وقال إنّّه لا يزال يعيش في العصر السوفييتيّ. وماذا تمثّل اليوم الاستخبارات الخارجيّة لروسيا؟ لا بدّ من توضيح ذلك.

أخرج موراتالي علبة الدهون، وسجادة الصلاة، صلّى وميهرى. ثمّ جلسا إلى الطاولة في الغرفة نفسها، وطلب منها أن تذكر له كلّ الأوزبك الذين تعرفهم في موسكو، وغيرهم من المسلمين، وعموماً، كلّ من يمكنه مساعدته. كان دفتر الهاتف معها، وراح يسأل ويكتب بالتفصيل. لقد بدأ عمله متعدّد الوجوه في موسكو.

كان يوجد في الشُّقّة أدوات مطبخ، وأثاث وغير ذلك من الأشياء، الضرورية منها وغير الضرورية. حشر موراتالي كلّ الأشياء التي لم تكن ضرورية في الخزائن ومخزن المؤن: «أصبح الوضع أفضل من دون الأشياء الفائضة عن الحاجة».

قرّر الاتصال بدور النشر في موسكو لنشر الكتب الإسلامية فيها. بادئ ذي بدء، بالطبع، القرآن، سيطلع منه نسخاً كثيرة، وربما كثيرة جداً.

ولكنّ ذلك سيكون لاحقاً، أمّا في البداية كان من الضروريّ فقط الاستقرار في موسكو، لكسب موطنٍ قدم في مكتب العمّ في أوستيجينكو.

في اليوم والوقت اللذين عيّنهما جورابايف، غادر موراتالي المترو في محطة حديقة الثقافة (بارك كولتوري)، عبر شارع زوبوفسكي الصاخب عبر ممرّ أرضيّ، وتمشّى مدّة خمس دقائق على طول شارع أوستوجينكو بأشجاره الخضراء وهدوئه، وقد غطّته أوراق الشجر الذهبية المتساقطة تحت الأقدام هنا وهناك.

يقف المنزل رقم (41)، متراجعا قليلاً مختبئاً خلف أرض عارية من الأشجار. دخل موراتالي من الباب الأماميّ، ودار حول المنزل، رنّ الجرس بجانب الباب المعدنيّ الحديديّ. فتح الباب شابّ أوزبكّي، لم يكن لدى موراتالي الوقت الكافي للالتقاء به لأنّه سمع صوت عمّه الذي استقرّ في الشُّقّة، فسارع إلى هناك. لم يجد جورابايف ضرورة لتخفيف التعبير السلطويّ.

- آها! ها هو! تعرّف من فضلك إلى أوستا خالبوتايف!

كان هذا مدير إحدى الشركتين التجاريّتين المتواجدتين في موسكو، رجل قصير ممتلئ، صافح موراتالي، ولسبب ما رفع حاجبيه بتساؤل. طرح موراتالي أيضًا تساؤلًا: «هل يعتبرون اقتحامه المكان تدخلاً؟»، لكنّ العمّ لم يتح المجال لتوضيح ذلك، فقد جذب ابن أخيه إلى الخلف على طول الممرّ، في اتجاه المدخل.

- - هيّا معي، لأريك مكتبك. ها هو مكان عملك أيّها المُلاّ.

كان المكتب صغيرًا، لكنّه يحتوي على كلّ ما هو مطلوب: طاولة مع هاتف، وخزانة جانبية صفراء، وخمسة كراسٍ أمام الطاولة على طول الجدار المُغطّى بالخشب، ونافذة مغلقة على نمط «الشمس التي تشرق من الزاوية» تطلّ على روضة الأطفال بين شارع أوستوجينكو والمنزل. دعاه العمّ:

- اجلس، يا عزيزي، هذا هو كرسيّ القائد، أمّا نحن هنا مجرد أشخاص جاؤوا يلتصقون منك الفضل. نعم، يا أوستا- جان؟

جلس العمّ وخالبوتايف أمام الطاولة، لا تكاد ركبهما تجد حيّزًا، وجلس موراتالي مكان صاحب المنزل.

تحدّث العمّ عن الجميع وبدا لابن أخيه أكثر غرابة.

كان يمزح، لكن بطريقة غير طبيعيّة، بدا الوضع مرّحًا كثيرًا، لكنّه بدا عليه الانزعاج، والأهمّ من ذلك: التوتّر.

تحدّث عمّا تقوم به كلتا الشركتين، كما لو كان يعتذر من موراتالي. ثمّ تكلم فجأة بسخرية:

- نأمل، أيّها المُلّا، ألا تحظر سلطتك الروحيّة عملنا؟
من الواضح أنّ دخول مالك جديد يسبّب التوتر والإزعاج، لكن لماذا هذا؟

- إنّني أرى يا عمّاه، أنّ شيئاً ما يقلقك.

- أنا؟ كيف استتجت ذلك؟

قال موراتالي:

- إنّ الله - سبحانه وتعالى - يقودنا للخير خلافاً لجهلنا، وحتى خلافاً لإرادتنا. أنا متأكّد أنّ المركز الإسلاميّ سيتعايش بشكل جيد مع الشركات. فالله أحلّ التجارة وحرّم الربا. التجارة لا ترضي الربّ فحسب، بل أقول أكثر: في الخارج، التاجر الذي ينشئ شبكة تجاريّة، والمُلّا الداعية يفعلان الشيء نفسه بالضبط!

استدار العمّ إلى خالوتاييف، وقال:

- أترى؟ وقد كنّا خائفين منك، أوستا جان. حسناً، دعنا نرى بقيّة الغرف.

لم يكن هناك الكثير من الغرف، فقط سبع غرف، بما في ذلك مكتب وقاعة كبيرة غير مفصولة عن البهو الذي التقاهم فيه موراتالي في البداية. أصبح توتر

العمّ وخالبوتايف واضحًا: «لن تستطيع أن تدور في مثل هذا المكان الضيق».

قال عمّه إنَّ إحدى الشركتين، في الحقيقة، ستغادر من هنا قريبًا.

- لكن هذه القاعة، آمل أن تُمنَح لمركزنا؟

طلب موراتالي ذلك، فاستدار جورابايف إليه وقال:

- رتّب أمورك في المكتب أوّلاً.

- لكن المركز، يا عليم جان ماكا لا يحتاج إلى مكتب، بل إلى مكان

للصلاة. وهذا المكان مناسب للغاية لأداء الصلاة.

وفتح موراتالي ذراعيه مشيرًا إلى مساحة القاعة.

- لكن ليس لديك مصلّين حتّى الآن!

ثمّ نظر العمّ إلى ساعته، وقال:

- أنا بحاجة إلى إجراء اتصال تلفوني. انتظروني!

ثمّ ترك موراتالي وحيدًا مع خالبوتايف. حاول موراتالي الضغط عليه:

- حسنًا، هل سيكون من المناسب أن نصليّ هنا؟

ضمّ الآخر كتفيه غير موافق على السؤال:

- لمّ لا؟

-3-

أصبح موراتالي يحضر يوميًا إلى المكتب في أوستوجينكو، يستقبل الزوّار، يجري الاتصالات ويكتب الرسائل. وكان يصلّي نهارًا في مكتبه الصغير ويتناول غداءه في أحد المطاعم في الهواء الطلق في واحدة من الساحات الموجودة في مكان قريب.

عند عودته إلى مكتبه، شعر بالحيرة مرّة أخرى وهو يفكر في كَيْفِيّة الحصول على المال. راح ينظر إلى الجدار أمام الطاولة، وفجأة رأى مكانها دائرة من أشعة الشمس متلاؤة، وسمع دويّ حشد قادم من مكّة.

لم يرَ موراتالي في حياته شيئًا سوى جزء من العالم الإسلاميّ، لكنّه -من خلال عظمة ما رآه- يمكنه الحكم على عدم تصوّر العالم كاملاً.

العالم الإسلاميّ مجموعة متنوّعة بشكل كبير. تختلف الدول الإسلامية كثيرًا عن الدول المسيحيّة. هنا يوجد عشرات التيّارات والمدارس والمذاهب والطوائف والاتجاهات الكبيرة والصغيرة. هذا تاريخ غنيّ، وبالطبع، فإنّ هذا المستقبل لا يمكن أن يثق به معظمنا فيما لو تعرّفنا عليه فجأة.

العالم الإسلاميّ يعني أكثر من مليار مؤمن، وعددهم ينمو بسرعة. لنفترض أنّ الكاثوليك يُعدّون مليارًا ونيّف، بفضل تنصير المستعمرات الأوروبيّة السابقة. وسبعمئة مليون بروتستنتيّ، وهذا الكمّ جُنْد هناك أيضًا.

وما بين كتلتي الإسلام والمسيحية الغربية أين تقع الأرثوذكسية، وماذا تشكل؟

وفقاً للتقديرات الأكثر سخاءً، لا يوجد سوى مئة وخمسين مليون أرثوذكسي في العالم، أقل من نصفهم في روسيا، لأن عدد المؤمنين الحقيقيين هنا قليل. حقيقة العالم اليوم أن الكثير من الناس يُسقطون - ببساطة - الأرثوذكسية من حساباتهم.

بالطبع، كان موراتالي يعي أن مثل هذا المنطق خطيئة وهرطقة، لكن إذا ما كنّا نعيش على هذه الأرض، وليس في السماء، فكيف يمكن أن نعيش دونهما؟

بالإضافة إلى ذلك، كان يعلم أن المرأ عندما يعيش في بلد ما فترة طويلة، يتشرب تدريجياً نظرتة للعالم، ويبدأ في النظر إلى العالم من خلال أعين سُكَّانه. لذلك ستبدأ موسكو حتماً تؤثر فيه، وقد شعر الآن أن غطرسة موسكو كانت تسحقه. توجه - من أجل تسجيل المركز رسمياً في الدولة - إلى لجنة الشؤون الدينية التابعة لحكومة بلدية موسكو. هناك استقبلته امرأة تدعى ناديجدا فلاديميروفنا إزفوتشيكوفا، امرأة شقراء، وضعت أحمر شفاه جعلها تبدو شريرة، تحدثت مدة عشرين دقيقة وتاهت في الكلام، لدرجة أنه لم يعد يفهم أي شيء.

قالت إنه سيواجه مشاكل، لأنه يبدو كما لو كان يغزو أراضي المسلمين الروس، وخاصة مسلمي موسكو. حسناً، لكن لماذا لم يخبروه عن ذلك؟

فقد زار المديرية المركزية، ومديرية موسكو للشؤون الروحية لمسلمي روسيا، حتى إنهم عرضوا عليه أداء خطبة الجمعة في مسجد موسكو الكبير. إضافة إلى أنه سيكون من الصعب جدًا عليه تسجيل المركز والعمل بشكل عام، وفقًا لـ «إزفوتشيكوفا»، نظرًا لأن أوزبكستان أصبحت الآن دولة أجنبية. يقولون: نحن في حاجة إلى مثل هذه الأوراق من حكومة أوزبكستان ومن السفارة. كل هذا هراء! لم يصدقها. ومع ذلك، هذه هي وظيفتها، فماذا يُتوقع منها؟

نعم، المشكلة الرئيسية لم تكن فيها، ولا في حكومة موسكو، المشكلة الرئيسية الآن هي توفير المال للمركز. وقد ضغط عليها مجددًا، من خلال استخدام علاقاته الكبيرة حقيقة في العالم الإسلامي.

* * *

شيء ما أصاب الحائط، وخرج موراتالي ليرى ماذا حدث. هذا اليوم ومنذ الصباح، في هذه القاعة الكبيرة، كان الجميع مضطربين. وفي عتمة المساء، رأى خمس طاولات هنا، صناديق، وجهاز حاسوب أُخرج من صندوقه بالفعل. وكان أوستا خالبوتايف يمر عبر الممر.

- ما هذا، يا أوستا جان؟ ماذا يحدث هنا؟

كان يتصرف مثل رجل يعمل بشكل جيد ويستحق الثناء.

- نفتح فرعًا للبنك.

- بنك؟ أي بنك؟

قال الشاب ذو الأسنان البيضاء علي كول مازحًا، وهو مدير الشركة الثانية، الذي كان يساعد في إخراج الحواسيب من الصناديق:

- سوف نستقبل الودائع من السكّان!

لم يفهم موراتالي شيئًا:

- كيف الودائع؟ إنّ ذلك خطيئة. ثمّ.. لقد كان هناك شركتان، والآن ثلاث؟

- الشركة لدينا واحدة، جورابايف.

كان خالبتايف سعيدًا، أمّا موراتالي فقد هُرع للاتصال بعمّه الذي أكّد له الخبر، وقال إنّهم يفتتحون فرعًا للبنك، فلا يوجد مكان آخر له.

- لكن، كيف يحدث هذا؟ كنا ننوي الصلاة هناك.

- صلّوا. هل ستعيقكم خمس طاولات؟

لقد فهم موراتالي كلّ شيء. لقد فهم معنى توتر العمّ عندما جاء هو إلى هنا. يعرف جورابايف بالفعل كيف كان يستخدم القاعة. لماذا لم يخبره؟ هل لأنّه أراد أن يضرب بقوة لمواجهة الحقيقة؟ ولكن، ذلك يعني، أنّه توقع هذا الجرس وانتظره! وربّما كان ينتظر شيئًا أكثر خطورة من الحيرة المشوّشة التي كان موراتالي قادرًا على مواجهتها وحيدًا.

«خمس طاولات!» تتمم موراتالي وقال في نفسه: لكنّ الله نهي عن الربا.

وتوقع ردّ عمّه: لكن، يا عمّ، البنك ليس خمسة طاولات، إنّهُ ثروة ومال!

فهل سيأتي عابرو الطريق للصلاة هنا؟

وكما لو أنّ جورابايف فهم للتوّ:

- نعم، هذه مشكلة. لكننا سنتوصل إلى حل.
- أعلن موراتالي:
- عمّي، من الضروري أن نتحدّث معًا.
- تعال عندنا!
- غدًا صباحًا.
- في الصباح أنا مشغول، دعنا نلتقي بعد الغداء.
- اتفقا على ذلك. علّق موراتالي السماعة، وفجأة شعر بالرغبة في الضحك. لكم كان جورابايف خائفًا، إذ لجأ إلى كلّ هذه الحيل! لم يخبره عن دخول البنك، لقد انتظر حتّى أصبح الأمر حقيقة واقعة. نعم، كان في إمكانه أن يعلن بصراحة: «لن يكون هناك شيء لك سوى المكتب»، ولكن موراتالي وافق على الأمر. ماذا يمكن أن يفعل الآن؟ حتّى إنّ المركز غير مسجّل.
- ومع ذلك، وبما أنّ جورابايف يستدعي الحذر منه، فلا بدّ أن نحاول التمسك بهذه القاعة. فقد صلّوا فيها الجمعة الماضية، حضر ستّة أشخاص، جميعهم من الأوزبك، وهم من موظّفي هاتين الشركتين. وقرّر أنّه غدًا سوف يضغط على جورابايف.
- انتهى يوم العمل، وأغلق موراتالي مكتبه. عند مدخل الشقّة، نهض عن الأريكة الحارس العجوز فتّاح. لا يمكن للملّا في أيّ حال من الأحوال أن يتخطّى هذا الإنسان. من هذه الطوبقات الصغيرة تُشاد المآذن العالية!

جلس مع الرجل العجوز على الأريكة، وراح يسأله، وقد اهتم الآخر بشؤون المُلّا. قال موراتالي:

- أنا حزين، يا فتّاح آغا، ربّما عرفت أنّهم سيقيمون مكتبًا للبنك في تلك القاعة. أمّا نحن، فقد أردناها مُصلّى، والآن ليس لدينا مكان نذهب إليه. ناهيك عن أن الله نهى عن الرّبا.

قال الحارس مستاءً:

- أوي-أوي-أوي، كنت أفكّر في الأمر نفسه.

أضاف موراتالي:

- جورابايف يقول: ليس لديكم مصلّون...

قال الرجل العجوز غاضبًا:

- كيف لا يوجد؟ في المرة الأولى كان لدينا ستة أشخاص، وفي المرة الثانية سيكون العدد أكبر. أستطيع أن أقول له ذلك.

وتطوع للتوجّه غدًا إلى جورابايف مع موراتالي، والتحدّث معه نيابة عن المصلّين.

وانغلق الباب الحديديّ خلف موراتالي محدّثًا صوتًا، يمكن القول إنّه صوت مفعم بالحويّة. أصبح المزاج جيّدًا جدًّا وسهلاً. بإذن الله، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

كان ذلك المساء وديًّا في يوم من أيام شهر أيلول الحارّة. لم تفكّر الساحات الواقعة على طول شارع أوستوجينكا في الهدوء؛ فقد تحرّكت وسائل النقل بلا توقّف على طول شارع زوبوفسكي.

على الجانب الآخر، تحت أعمدة المترو التي تعود إلى العهد الستاليني، كانت السوق الشرقيّة (البازار) صاخبة، وكانت ألواح الأرضيّة الجرانيتيّة عند مدخل الردهة قد تآكلت عميقًا من كثرة الأقدام التي وطأتها.

في الطريق، استعدّ موراتالي للصلاة، وقد أذاها فور وصوله. كانت تلك صلاة عصر ذلك اليوم، صلاة المساء. ستكون صلاته الرابعة بعد مغيب الشمس، والخامسة مساءً.

بعد أن تناول العشاء، وأصبح أكثر هدوءًا، قرّر الاتصال بزوجته في طشقند، لكن تبين أنّ الخطّ مشغول، فجلس بجانب الهاتف في الرواق، حيث كانت أبواب الغرفتين والمطبخ مفتوحة.

من خلال نافذة الغرفة التي كان يصليّ فيها، رأى السماء خالية من الغيوم. كانت الشمس قد مالت بالفعل إلى الجانب الآخر وأصبحت تتلألًا في زجاج البنايات المقابلة، وكان الضباب يتجمّع في الأراضي المنخفضة الخضراء.

اتصل بالرقم مرّة أخرى، كان مشغولًا أيضًا: نوريّة تحب الثرثرة. الآن، يبدو أنّ كلّ شيء قد سار بسلاسة، لكنّ المشاحنات بينهما - في هذا الربيع - كانت كبيرة. إنّهُ أمر غريب، إذ إنّ صغيرهم لم يبلغ عامًا من عمره، وكان على نوريّة أن تُصبح أمًّا، وعليه أن يصبح أبًا.

حينها، في الربيع، أصبح موراتالي - فجأةً - محاطًا بصعوبات واجهته في دار الإفتاء، وربّما كان هذا بيت القصيد. فجأةً قرّروا إرساله من طشقند إلى بلدة أكتاش الموجودة - بالفعل - في محافظة سمرقند. عندما علم بهذا في

مكتب المفتي، أدرك على الفور أنّ الشخص الذي يكرهه كثيرًا يشير الفضول. فهو، أي موراتالي، في وضع جيد وتلقّى مرارًا وتكرارًا تشجيعًا من الإدارة الدينيّة.

لقد بدأ كلّ هذا على النحو التالي، سرعان ما اكتشف موراتالي أنّ المُلّا قاسيموف، شابّ، ولكنّه وصل إلى منصبه بسرعة، وفي هذه الحالة، يمكن القول ببساطة إنّهُ يكرهه ويعتبره منافسًا. ولم يتمكّن موراتالي من تحمّل وجوده، لكنّ نورية أصبحت صديقة لـزوجة قاسيموف، ولم يتمكّن موراتالي من فعل أيّ شيء حيال ذلك، على الرغم من أنّه كان يفهم بوضوح أنّ هذه ليست الصداقة المطلوبة.

ربّما كان قد بدأ يغضب على زوجته، وقد تسبّب ذلك في فضائح. فنوريّة لم تكن قريبة من زوجة قاسيموف بالقدر الذي يمكنها التأثير في أيّ شيء في هذا الاتجاه أو ذاك.

حينها لمعت لدى موراتالي فكرة السفر إلى موسكو أول مرة. في البداية، بدأت الفكرة نفسها نصف هذيان، ونصف ستارة دخانيّة ضروريّة كي يبقى تحت غطاءها في طشقند، لا أن يذهب إلى أكتاش. لكنّ الفكرة أعجبت الإدارة الدينيّة، وأخذت تكتمل متّخذةً جسدًا تدريجيًّا: لقد أدرك أنّ لديه أقارب ومعارف في موسكو.

لكنّ الخلافات مع نوريّة التي حصلت في الربيع كانت صعبة، لقد حاول ترويضها. لكن بماذا كانت تفكر؟ هل تشكوه إلى دار الإفتاء! هذا ما يتمناه أعداؤه.

كان موراتالي مقتنعاً بأن كل المشكلات مع زوجته كانت بسبب أنه منحها الكثير من الحرية. وكان يعزّي نفسه بأنهما تزوّجا حديثاً، فالقرآن الكريم يقول بوضوح: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ * صدق الله العظيم. [النساء 34 - 35].

ولكن إذا ما فشلت مهمته في موسكو، فلا شيء يمكن أن ينقذ سمعته في الإدارة الدينية وإدارة أسرته!

لم يكن لدى موراتالي ببساطة الحق حتى في الاعتراف بفشل هذه المهمة، لم يكن لديه مجال حتى للتفكير في الفشل، كان النجاح ضرورة! وتوقف عن الاتصال بزوجته، وبدلاً من ذلك، عاد للانشغال مجدداً في شؤون المركز بمرارة.

في سنة 1989، في معسكر تدريب ضباط الاحتياط السياسيين، وكان عددهم هناك نحو مئتي شخص، من جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي، من الشرق الأقصى حتى روسيا البيضاء، ومن آسيا الوسطى حتى سنت بطرسبورغ. ولكن نحو ربع عددهم كان من سكان موسكو، التقى موراتالي ببعضهم خلال هذه الفترة، واتصل بآخرين، واكتشف انشغالات كل واحد منهم.

أحد هؤلاء الذين تربطه بهم علاقة جيدة كان حينئذ صحفياً من موسكو اسمه سريوجا نيكولايف. اتصل به موراتالي بالفعل، لكنّه لم يرفع سماعة الهاتف. عاود الاتصال مرّة أخرى، وجاءه جوابٌ فجأةً: «إنّه لم يعد يسكن هنا. لديه الآن رقم جديد». اتصل بالرقم الجديد، وسمع صوت نيكولايف نفسه.

- سيرغي؟ أنا موراتالي رحيموف. هل تذكر شخصاً بالاسم هذا؟
 - نعم، موراتالي جان! من أين تتصل؟
 بدا صوت نيكولايف مبتهجاً. أخبره موراتالي ماذا أصبح الآن، وماذا يعمل، هنا استولت الدهشة على نيكولايف:
 - يا لها من صدفة! وأنا أعمل في مجلس الشؤون الدينيّة في حكومة موسكو.

قال موراتالي غير مصدّق:

- غير معقول! لقد كنت هناك قبل أيام، عند المدعوة إزفوتشيكوفا ناديجدا فلاديميروفنا.
 - ناديا إزفوتشيكوفا؟ نعم صحيح، إنّها مختصة في شؤون المسلمين.
 - وأنت، ما هو اختصاصك؟
 - أنا مختصٌّ بدرجة أساسيّة في الشؤون المسيحيّة الأوروبيّة والأميريكيّة. وأعمل الآن مع المدعو السيّد بونديس، ربّما سمعت به؟
 - للأسف لم أسمع.

- إنَّه سيّد معروف، رئيس منظمة «السفراء المسيحيّون». يقومون بعمل كبير هنا، ولكن هناك العديد من المشكلات، مثل التلفزيون، على سبيل المثال، هذا ما سأشتغل عليه في الأيام المقبلة. أقترح أن نلتقي.

قال موراتالي مؤيِّدًا الفكرة: «موافق».

- يمكنني أو أوصي إزفيتشيكوفا كي تكون متعاونة معك، هل لديك مشاكل معها؟

شرح له موراتالي. قال نيكولايف دون اكتراث:

- اعتبر نفسك مسجلاً بالفعل، لا يمكن أن يكون التسجيل في حدّ ذاته مشكلة، ولن يكون، أوّد سؤالك عن شيء آخر: كيف ستعمل لاحقاً؟ ما هي خططك بشكل عام؟

أوضح موراتالي قدر استطاعته بشكل موسّع، وتعمّد أن يكون ضبابياً، غير واضح. استحسن سيرغي كلامه:

- حسناً، أنا سعيد بأنك اتصلت بي. فكما ترى، أعتقد أنّنا في روسيا نحتاج إلى دعم من الشرق.

كيف يكون ذلك؟ شخصان لم يتساعدا حتّى الآن، لكن الشعور بالحيويّة والنشوة كان حقيقياً. ربّما يكمن في هذا الفرح الرئيسيّ للأشياء، التي تفهمها في لحظة ما.

- ستُنقذُ خطّتك حتماً.

لقد تذكّرنا أيضاً الجدالات، وأضاف موراتالي مندهشاً:

- ولكن ما هذه الصدفة؟ كيف أتيت إلى هذه الوظيفة، فقد كنت صحفيًا؟
- وكيف أتيت أنت إلى الإسلام؟
- أنت تذكر أنني في أثناء الجدالات التي كنا نخوضها كنت مهتمًا بالدين. حتى أنت، أتذكر، كنت تقول إنك تفكر في منصب ديني.
- أجاب نيكولايف:
- عملي أيضًا، قريب من هذا المعنى. كل شيء حتمي، يا موراتالي جان. فنحن مفوضون سياسيون سابقون، مدربون سياسيون.
- لكن موراتالي ردّ على الملاحظة بذكاء:
- لقد كان ذلك في الماضي.
- طبعًا في الماضي. مع ذلك...
- قال موراتالي متذكّرًا ومسورًا:
- يوجد لدينا مثل: إذا كنت تصعد الجبل، فأنت تحتاج إلى دليل!
- علّق نيكولايف على الفور:
- هذا هو إذن! أنا الدليل نفسه. وأعتقد حقًا أننا في حاجة إلى نفوذ الشرق. لذلك سأنتهي من بونديس، وانتظر مكالمتك!

-4-

عندما قال مارتن بونديس إن حياته مُلك المسيح، لم يكن في قوله ذلك صدقٌ أكثر ممّا يرد دائماً في عبارات مثل: «أنا المثل في الأخلاق». يمكنك أن تكون مثلاً في بعض المهارات أو الأعمال، أو في السلوك الأخلاقي أو في حياتك كلّها، لكن دع الآخرين يقولون هذا عنك. وبالمثل كذلك، لست من يقرّر إن كانت حياتك مُلك المسيح حقاً أم لا. ومع ذلك، لم يكن كذباً أن يسعى مارتن من أجل ذلك.

وُلد مارتن في لاتفيا، وبعد أن أنهى دراسته في الجامعة عاش بشكل أساسي في موسكو، ومن هناك هاجر إلى الولايات المتحدة سنة 1977. كان حينها في الثانية والثلاثين، وكانت زوجته أصغر منه بسنة، وكانت الهجرة، بالطبع، أكثر ما أجهده في حياته، وحدّد شخصيته وجعله على ما هو عليه.

وبطبيعة الحال، فإنّ العديد من المهاجرين من المواطنين السوفييت تحوّلوا ببساطة إلى مواطنين أميركيين، لكنّ أولئك الذين بقوا في ذروة هذا التحول أصبحوا تجسيدا للحريّة ولوحدة البشريّة بالفعل.

في الولايات المتحدة، كان مارتن يتردّد في البداية مع آخرين على شاكلته إلى إذاعة «صوت أميركا» وإلى بعض المنظمات ذات الطابع السياسي البحت، وبعد ذلك انخرط في العمل في إذاعة دينيّة مسيحيّة وفي نقل الأدبيّات الدينيّة إلى بلدان المعسكر الاشتراكيّ. اعتادوا حتّى أن يسخروا

من الواعظ البروتستنتي المهم، الذي بدأ نشاطه فجأة ولم يكن مؤمناً من قبل. لكن لم يعلم الساخرون أنه حتى في الاتحاد السوفيتي كان مارتن قد عاهد الله أن يكرّس له حياته، لو ساعده في الوصول بأمان إلى الولايات المتحدة.

لكن فور أن تحقّق الهدف نسي مارتن هذه الوعود، فكان لا بدّ من التذكير هنا، فدخل المستشفى. بعد ذلك دخلتها زوجته. كان في إمكانه أن يدّعي أنه لم يفهم معنى هذه الأحداث، أو يُلقي اللوم في كلّ شيء على جُبنه، جُبن الرسّام المبدع، الذي يرسم الخطر الذي لا وجود له بما يكفي من أصالة الفنّ. لكن بحلول ذلك الوقت، كان مارتن قد عرف بالفعل نفسه وحياته، وأدرك أنه لا جدوى من محاربة هذا الجُبن المفترض، الذي هو في الحقيقة تغلغل في جوهر الشرّ أفضل ممّا هو عند الآخرين. فالشرّ لا يحذر، إنّه مثل الله يضرب على الفور. يبدو أنّ الناس من حولنا في كثير من الأحيان مجرد أنانيّين لا حول لهم ولا قوّة، يحقّقون لأنفسهم مكاسب، لكنهم يفكّرون فيها، وكلّ واحد منهم يعرف كيف يتحكّم في نفسه ويضحّي بها، وإلّا لما استطاع الثبات على موقفه، ولأنهار حتماً. لذلك قد ترى أنّ كلّ من حولك وقحون، وبلا ضمير حقاً، حينئذٍ على من يمكنك أن تعتب؟

هذا الخطّ من التفكير -بالتحديد- قاد مارتن إلى الدخول في الكهنوت، لكنّه -في الحقيقة- كان يفكر بطريقة مختلفة، في بعض الأحيان، كان يفكّر بشكل أكثر بساطة: مع كلّ ما نقوم به، فنحن جميعاً في كلّ الأحوال، وفي النهاية، نخدم الربّ، فلماذا لا نخدمه مباشرة؟

لكنه خدم الرب، ولم يحصل على الثروة، رغم أنه كان مكتفياً، إذ إن وضعه المادّي كان جيداً.

يبدو أنّ العمل نفسه الذي كان يقوم به بدا ميؤوساً منه تماماً حتى سنة 1985.

وفجأةً تغيّر كلّ شيء. لدرجة أنّه في كلّ مرة كان يزور فيها الاتحاد السوفييتي، كان كما لو أنّه يزور بلداً جديداً. يبدو أنّ الحرّيّة قد وصلت بالفعل إلى الحدّ الأقصى، ومع ذلك، فإنّك عندما تزورها في المرة التالية تجد أنّ الحرّيّة فيها قد ازدادت. سُمح بالدعوة الدينيّة أولاً مع تحفظات، ثم أصبحت الدعوة بلا قيود. تبعاً لذلك، تصرّف المبشرون في البداية بحذر شديد، ثم أصبحوا يتجرّؤون أكثر فأكثر، وكأنّهم في عجلة من أمرهم حتّى لا يتخلّفون عن الآخرين الذين سبقوهم إلى الأمام. لقد بدأت مرحلة أن يكون الوعظ مصدراً لثروات هائلة.

كانت الذروة هنا بالنسبة إلى مارتن ربيع سنة 1991، عندما قام بتنظيم اجتماع للزعماء الدينيّين في أميركا بالفعل مع غورباتشوف نفسه، في الكرملين نفسه، وليس في أيّ مكان في الكرملين، بل، كما قيل، إنّهُ عُقد في المكتب الذي كان يعمل فيه ستالين بالتحديد.

كان ذلك في المبنى الذي يقع بالقرب من الساحة الحمراء، بجوار جدار الكرملين تقريباً. مقارنة بالانبياء السوفييتيّ العام، كان كلّ شيء هنا مذهلاً بدقّته، بدءاً من ستائر النوافذ البيضاء الجاهزة، التي بدت بنقائنها ونضارتها كأنّها ليست أرضيّة.

لقد تلقوا تنبيهاً أنّ الاجتماع سوف يستمرّ مدّة نصف ساعة. في البداية، سيتحدّث الأمين العام، وسيكون له نصف الوقت المتاح، ثمّ يتاح المجال للأسئلة والمداخلات. كانوا عشرة، ولم يؤدّ الجميع التحدّث، تحدّث فقط من تمكّن من ذلك، وكان أولهم مارتن، طويل القامة، قويّ البنية، تصرّف كما لو كان رئيس الوفد، وكان في مقام الرئيس. إن أياً من رؤساء الكنائس الجبّارة هذه مثل الكنيسة الأسقفية والمعمدانية وغيرهما، كان وفقاً للمعايير الأميركية، يعادل بابا روما، فماذا يمثل مارتن إلى جانبهم؟ ذلك المهاجر حديثاً، الذي حصل على الجنسية الأميركية مع شيء من التأخير! لكنّ هذا اللقاء بشكل خاص استطاع أن يقدّم له مساعدة جمّة وقويّة.

لقد رافقوهم إلى المكتب، وأجلسوهم إلى جانبي طاولة مستطيلة، بعد ذلك فقط ظهر غورباتشوف ومساعدته من باب جانبيّ.

بدا غورباتشوف تعباً، وعلى وشك الانهيار تقريباً، لكنّ هذا الأمر عزّز التعاطف معه. لم يكن أحد يصدّق أنّ مثل هذا السياسيّ الكبير يمكن أن يواجه انهياراً كاملاً.

بدأ الحديث، فتحول كلّ شيء. يبدو أنّ نبرة صوته المنخفضة، أعطت انطباعاً بانعدام الثقة، حتّى بالنسبة إلى غورباتشوف نفسه، وأعطت الضيوف ذلك الانطباع الذي توقّعوه.

دعا الجميع إلى الجلوس، لا الوقوف، وجلس خلف طاولة الرئاسة. لم يصافح أحداً. طلب من الضيوف تقديم أنفسهم، ودعا الجميع باسم واحد: مارتن.

كان غورباتشوف يدوّن في بعض الأحيان الملاحظات لنفسه، حانئاً رأسه بطريقة ما بعصبية إلى جانب واحد. ثمّ راح يتكلّم، وقد كان صوته الواثق يميزه. تحدّث عن النجاحات الكبيرة لإصلاحاته، وكذلك عن الصعوبات الكبيرة، وأنّه قد استقبلهم من أجل ذلك، حتّى ينقل الزعماء الدينيّون الأميركيّون هذه الرسالة المختلطة إلى طوائفهم، وحتّى ينتج عن ذلك دعم أميركيّ.

ثمّ دعا غورباتشوف الضيوف الأميركيّين إلى التحدّث، وأدرك مارتن أنّه في إمكانه الآن أن يفعل ما كان يأمل أن يفعله منذ فترة طويلة، لكنّه لم يكن متأكّداً من نجاحه.

لقد كان يأمل أن يؤدّي الصلاة في هذا المكتب. والآن، بعد أن نبّه الحضور إلى أنّه سيتلو الصلاة، وضع يديه المتشابكتين على حافة الطاولة، كما هو معتاد لدى البروتستنت، بدأ الحديث بصوت عالٍ مع الرب من دون تسرّع.

وقد شبك الجميع أيديهم، أيضاً، كما هي العادة، أو ضمّوها وأحنوا رؤوسهم، بما في ذلك، غورباتشوف، على الرغم من أنّ مارتن لم ينظر إليه على وجه التحديد.

تكلم مارتن بالروسية، تاركاً فواصل زمنيّة للمترجم، قال: «نشكرك، يا رب، على إتاحة الفرصة لنا للاجتماع هنا...»، وقد خاف فجأة أن تبدو العبارات التي أعدها فارغة، فراح يتحدّث ببطء أكثر، في محاولة للتفكير لضغط أفكاره أكثر، «نشكرك لأنك سمحت لنا بالتجمّع في هذا المبنى

الجميل لمناقشة الوضع الصعب الذي واجهته هذه الدولة. ليس بين الحاضرين من هو بلا خطيئة، ولا يملك أحد هنا الحق في أن يكون معلماً لأي شخص آخر، ولكننا نعلم من التجربة، يا رب، أننا حالما نبتعد عنك، نقع في براثن الفقر أو الاقتتال بين الأخوة، وهذا يعني أنه يجب علينا أن نبدأ ولادة جديدة لكي نعود إليك مرة أخرى، ونعرف شيئاً آخر يا رب، لا الدعم الاقتصادي يمكن أن يساعد في هذا الإحياء، ولا أذكى البرامج، ومن غير المجدي أن نأمل في أي كنائس أو منظمات دينية. شيء واحد فقط يمكنه المساعدة: إنه الإيمان بك يا ربنا، يا يسوع المسيح! آمين!.

تململ الجميع، وأعلن رئيس الكنيسة الأسقفية أنه يريد أيضاً تلاوة صلاة قصيرة. وقد راود الشك غورباتشوف، فقال:

- ربما يكفي صلوات؟ على أي حال، نحن نستمع لك.

تلا الرجل العجوز المهم فقط بضع عبارات، لم يتمكن مارتن من الاستماع بانتباه إلى ما تضمنته العبارات. كان متأثراً بالصلاة الخاصة به، وبدا له أن الآخرين كانوا يعيشونها. ففي الواقع، كان اسم الحَكَم الأعلى يُذكر أول مرة في هذا المكتب علناً بصوت عالٍ!

راح مارتن يحلم، حلم خطيئة، راح يحلم بلوحة تذكارية، تذكر في كتب التاريخ: «أول داعية أميركي، جعل صاحب الكرملين يحني رأسه».

الشيء المهم، بالطبع، لم يكن أمنيته الخاصة، بل حقيقة أن الشأن الرباني بدأ يتقدم على هذه الأرض.

بعد الأسقف العجوز، توقّفوا عن الصلوات، مدرّكين أنّ الكثير تحقّق من خلال التمنّيات المباشرة لرئيس الاتحاد السوفييتي، الذي كان وقته ثميناً جداً. وهكذا انتهى هذا الاجتماع، وكان مارتن يعيش حالة نشوة شديدة، مستلهمًا من مبادرته الخاصّة، إذ أشرك المسؤولين السوفييت في الصلاة، وقد كان يكرّرها كلّما أتيح له ذلك.

قدّم صلاة في لوبيانكا*، ممّا أجبر ضباط الكي جي بي على حني رؤوسهم، كما فعل ذلك غورباتشوف. وصلى كذلك في مكتب رئيس التلفزيون الروسي آنذاك، الذي أتاح تقديم موعظة مارتن على الهواء أسبوعيًا في كلّ سبت مقابل المساعدة الماليّة. وأين لم يصلّ؟

وماذا في ذلك؟ هل يفعل شيئًا ضارًّا؟ لا. لذا لا يوجد شيء مخجل! وقف في شارع أربات حاملًا الإنجيل، سائلًا المارّة: من المسيح؟ مرّ بعض الناس مزعوجين وتوقّف بعضهم دون أن يجيبوا -لسبب ما- عن السؤال. صوّر هذا بواسطة كاميرا الفيديو. ربّما كان الناس ينتظرون أن يضيف شيئًا آخر، لكنّ الأمر بدا كما لو كانوا لا يعرفون شيئًا. وهكذا فُهِم الأمر في الولايات المتّحدة: من الواضح أنّ الناس حُرّموا طويلاً من المسيح! وضحووا كثيرًا.

* هو مبنى مقر جهاز الأمن الفيدرالي الروسي، ويقع في ساحة لوبيانكا في العاصمة الروسية موسكو.

بعد ذلك، بعد أن عاد من الاتحاد السوفيتي، أنشأ مارتن منظّمته التبشيرية الخاصة، «السفراء المسيحيون»، التي اكتسبت بسرعة قوّة ماليّة وشهرة. بالطبع، ساعده في ذلك القادة الدينيون الذين كانوا معه عند غوريبي*. من المفترض أن مارتن قد زكّي في المراتب العليا من الكنيسة الأميركية، وسرعان ما أصبح من المسلّم به بالفعل أن يحصل «السفراء المسيحيون» على قطعة من كيكة الميزانيات التبشيرية العديدة في الولايات المتحدة.

وقد كان لدى مارتن أشياء لينفق عليها. تقديم المساعدة للتلفزيون الروسي، على سبيل المثال، لإنتاج البرامج التلفزيونية. وهكذا استمرّ الوضع بضع سنوات. والآن، وصل مارتن إلى موسكو، وعلم أنّه قد أوقف بثّ برنامجه عبر الأثير.

في موسكو، ذهب على الفور إلى أوستانكينو* - ولكن، هناك لم يتّضح له شيء. كرّروا على مسمعه فقط ما سبق أن كتبوه له في الرسائل: إنهم لا يستطيعون الآن بثّ برنامجه لهذا السبب وذاك. بعد ذلك، أعلن مارتن، بقسوة شديدة، أنّه يرغب في عودة البثّ إلى القناة، وإن لم يحدث ذلك، فإنّه لن يقدّم المزيد من الأموال لشركة التلفزيون على أيّ حال، حتّى لو أعيد بثّ البرنامج. وقد بدا أنّه، بتصرّفه ذلك، كان يقطع كلّ الطرق على نفسه، لكنّه شعر أنّه كان ينبغي عليه فعل ذلك. لا بدّ من وقف التزلّف! ثمّ راح بعد ذلك يستنشق

• اسم تصغير لغورباتشوف، وهذا تعبير عن تصغيرهم لشأن آخر رئيس للاتحاد السوفيتي.

• مركز إدارة التلفزيون الروسي.

بمتعة عقب النهار الغائم في ذلك اليوم من شهر أيلول، ورائحة العشب الطازج وأشجار الحدائق.

رفع رأسه إلى الأعلى، وراح ينظر إلى برج التلفزيون في أوستانكينو، يرتفع عاليًا في السماء البيضاء. لسنوات عديدة، وحتى عندما غادر الاتحاد السوفيتي، كان البرج أطول مبنى في العالم، استُخدمت في بنائه الخرسانة المسلّحة مع بعض التقنيّات السوفييتيّة السريّة الموثوق بها للغاية، بطبيعة الحال. والآن، على الرغم من أنّ هذا البرج كان يشير الإعجاب، إلّا أنّ مارتن شعر فجأة أنّه أطول وأكبر منه.

في اليوم التالي، غادر فندق إنتوريست، حيث استقرّ هذه المرة، في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحًا، وتوجّه إلى اجتماع مجلس أمناء منظمة «المسيحيّة المفتوحة».

بدأت جدران الكرملين، المبلّلة بالمطر، سوداء تقريبًا. في موسكو، لم يمه الخريف بعد الحرب مع تيجان الأشجار الخضراء الداكنة لصالحه.

كانوا يبيعون أزهار السوسن، وكان الأطفال يذهبون إلى المدرسة، في وجوههم الهيئة التي تظهر عليها عندما تكون الدراسة قد بدأت للتوّ، والأيام لم تمض بعد.

رأى مارتن أعمدة مبنى منظّمة «المسيحيّة المفتوحة» البيضاء من بعيد. ربّما كان هذا المبنى، الذي له جناح واحد يطلّ على الساحة حيث يوجد مسرح البولشوي، وهو مكسب «السفراء المسيحيّون» الرئيسيّ في موسكو. الآن خاصّةً، عندما خذلهم التلفزيون، كان عليهم التمسك به، لكنّ المشكلة كانت

في أن هذا المنزل لم يكن ملكاً لهم، لقد استأجروه من البلدية فترة طويلة. بين الحين والآخر كانت تتكرر التهديدات بإخلائه، ولهذا السبب حاول قادة المنظمة شحن المزيد من الهياكل التنظيمية المتنوعة في المنطقة، والأهم من ذلك، غرس المدرسة والجامعة المسيحيين فيها.

كان مارتن سعيداً بمدى ذكاء أمّهات موسكو في إحضار الأولاد والبنات إلى المبنى، بحقائب يدوية، حقائب الظهر، يعتقد المرء وهو يراهم أنهم في الصفوف الابتدائية في المدرسة. أخرج كاميرا وبدأ يلتقط الصور.

تأسست منظّمة «المسيحية المفتوحة» دون مساعدة من مارتن، ولم يعرف بها إلا حينما بدأت تعمل بالفعل، وحصلت على هذا المبنى. لكن، بالتدريج، أصبحت منظّمة «السفراء المسيحيون» تدفع النفقات الرئيسية للمنظّمة، وبالتالي فإن مارتن، في الواقع، كان يدير كل شيء هنا الآن.

أسس المنظّمة طبيان من أساتذة الطب في موسكو هما: كولوسوف وإيفانيخين. فاجأ كولوسوف، في لقائه الأول، مارتن بحقيقة أنه خرج من المبنى ليستقبله حافي القدمين، غير حليق الوجه، مشتتاً. لقد كان رجلاً جهوريّ الصوت، ضخّم الجثة، فوضوياً. ويعزو إهماله جزئياً إلى أن المبنى كان يخضع لإصلاحات (لم تكن قد انتهت بالكامل حتى الآن)، ويعزو ذلك جزئياً إلى أسلوب بيوتر إيفانوفيتش، العالم الكبير، الغارق في التفكير والمهمل كثيراً كما يبدو عليه.

لو كان كولوسوف عالماً كبيراً حقاً، لكان مارتن في حيرة من أمره، لكن بيوتر إيفانوفيتش كان يحظى بشعبية بين المثقفين في موسكو، والأهم من

ذلك، في بطريكيّة موسكو، التي لم تقطع العلاقات مع منظّمة «المسيحيّة المفتوحة».

كان نائب كولوسوف، إيفانيخين، أطول، وأكثر صمّتًا وربّما حتّى أكثر تجهمًا من رئيسه. ولم يبحث مارتن عن أسباب حبّ كلّ من الباحثين للمسيحيّة الغربيّة، ولكنّ هذه أيضًا خطيئة، أن ننظر هنا إلى بعض الأسباب الأخرى غير تأثير الروح القدس.

وفور أن أنهى مارتن التقاط الصور في الخارج دخل المبنى. بمجرد أن سيجّ البهو الواسع، على الأغلب في الزمن السوفيتيّ، بمقصورات على شكل خلايا ضيّقة، في أحد هذه الفروع، بجانب الدرج، كان هناك جدول معلّق على الحائط، ازدحم الناس أمامه. وقف مارتن جانبًا، مستمعًا إلى دويّ طلبة المدرسة، مستنشّقًا الروائح القادمة من المطعم الشعبيّ الذي يعود إلى العهد السوفيتيّ، الموجود هنا في الطابق الأول، رائحة الملفوف الفاسد ربّما، أو الحساء المصنوع منه. خرج إلى فناء المبنى الداخليّ الذي كان على شكل حذوة الفرس مارًّا عبر الممرّ إلى جانب الدرج.

كانت هناك أشجار حور سامقة إلى جوار الجدار البعيد الأصمّ، أمّا الفناء فكان مُعبّدًا حديثًا بالأسفلت الأسود، تشكّلت عليه مسارات مُترّبة جاءت من الجزء غير المعبّد. وسط الفناء في الحديقة المليئة بالأزهار، كان ينمو عشب طويل وأعشاب ضارّة، وزهور النجمة الأرجوانيّة. وكان لجناح المبنى الأيسر، غير المُصان، نوافذ مفتوحة لا زجاج لها، كأنّها أفواه فاعرة،

وكانت النوافذ في الطابق العلويّ بلا إطارات. بشكل عام، كان القصر واسعاً، وعندما سينتهون من كلّ شيء، ستكون المدرسة قادرة على قبول ثلاثمئة طالب، أمّا حالياً فيدرس فيها خمسين طالباً لا أكثر.

التفت مارتن إلى الجناح الأيمن وكان كاملاً، رغم أنّه رثّ. في استقباله كان هناك شابّتان أميركيّتان مقيمتان، على ما يبدو، في شقة هنا. كان هذا الجناح مثل فندق، يقيم فيه القساوسة وغيرهم من المتديّنين الذين أتوا إلى موسكو بأجور رمزيّة. بالمناسبة، كان من الممكن من خلاله دراسة الجغرافيا الكاثوليكيّة والبروتستنتيّة بأكملها.

لحقت بمارتن أنجيلا، مديرة منظّمة «سفراء المسيحيّة» في موسكو، أو ببساطة، مساعدته في موسكو، وهي فتاة رقيقة لها غمّازة في ذقنها، وعينان رماديتان بلون الدخان.

Marty!، Hi -

كانت أنجيلا موسكوفيّة، لكنّها تتكلّم الإنجليزيّة في كثير من الأحيان، كما هو الحال الآن.

Angela!، Hi - من فضلك، ثبّتي لي في جدول الأعمال بروتوكول منفصل اليوم. سوف تُناقش قضايا مهمة.

O.K.، Oh -

صعدا الدرج الخشبيّ إلى الطابق الثاني، وتجمّع جميع أعضاء المجلس والضيوف المدعوّون تقريباً في قاعة المؤتمرات. قال إيفانخين مصافحاً مارتن:

- مساء الخير! كيف كانت الرحلة إلى هناك؟ كيف وجدت موسكو؟
- شكرًا لك، كانت الرحلة جيدة. موسكو تتغير في كل مرة للأفضل بشكل لا يصدق، وبسرعة لا تصدّق!

نظر مارتن حوله. لم يكن كولوسوف موجودًا هناك حتّى الآن، وكان يعرف كلّ شخص موجود تقريبًا، باستثناء ذلك الشخص ذي اللحية السوداء المشعثة، الذي راح ينظر إليه بغطرسة شديدة. ربّما كان الأب فاسيلي، الذي كان اليوم المشكلة الرئيسيّة تقريبًا.

كانت القضية التي لم تُحلّ بعد: تعاونهم مع الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة. اقترح بعضهم إدخال كهنة أرثوذكس في المجلس، وعلى وجه التحديد، الأب فاسيلي هذا، الذي يُدرّس في جامعة «المسيحيّة المفتوحة». لم يكن مارتن ضدّ فكرة أن يستقطب إلى جانبه أحد المراتب التسلسليّة الهرميّة الأرثوذكسيّة، لكنّه كان يريد شخصيّة لها مكانة، على سبيل المثال، رئيس قسم التعليم والتدريب في بطريركيّة موسكو، الذي سبق له أن تعاون معه، أو مع شخص آخر يشغل منصبًا مشابهًا.

وكان معارضًا بشدّة ضمّ شخص بلا وظيفة أو طموحات، وقد عبّر عن ذلك بوضوح لـ «كولوسوف» عبر الهاتف. ومع ذلك، فإنّ مسألة الأب فاسيلي هذا كانت مطروحة للنقاش في ذلك اليوم. وإذا لم يخب ظنّ مارتن، بالطبع، فإنّ هذا الرجل الملتحي هو الشخص الذي يفكر فيه. نعم، اتضح أنّه هو، وقد قاده إيفانيخين لمقابلة مارتن.

مدّ مارتن يده مصافحًا، وشعر أنّه كان يتسم بطريقة لطيفة وغير طبيعيّة، قال: «سعيد بالتعرّف إليك!»، ثمّ أضاف سائلًا: «رئيس أيّ دير؟»، على الرغم من أنّه كان يعرف الجواب. أرخى الآخر أسنانه:

- لست رئيسًا الآن.

قال إيفانخين موضّحًا:

- الأب فاسيلي يعمل لدينا في منظمة «المسيحيّة المفتوحة».

سأل مارتن مندهشًا، رغم أنّه يعرف الجواب أيضًا:

- بأيّ صفة؟

قال إيفانخين غاضبًا بشدّة:

- يدرّس الأديان المقارنة، لكن توجد فكرة حول استقطابه أكثر، وهذا ما ستتمّ مناقشته اليوم.

- نعم. قال الأب فاسيلي مبتسمًا، كاشفًا أسنانه وناظرًا إلى مارتن، الذي شعر مجددًا بعاصفة روحية كتلك التي اندلعت في داخله عندما أجرى كولوسوف محادثة هاتفيّة معه حول توسيع المجلس.

ذهب مارتن إلى طاولة الاجتماع دون أن ينبس بأيّ كلمة. جلس، وفتح الحقيبة الدبلوماسيّة.

كان لديهم مجلس جيد الأداء ومنظّمًا بشكل جيد. قسيسان مواطنان روسيّان: اللوثريّ سبيرلنج، والمعمدانيّ بيفوفاروف، وقسيسان آخران أيضًا، أحدهم لوثرريّ والآخر معمدانيّ، لكنّهما مواطنان أميركيّان، بالإضافة إلى كولوسوف، إيفانيخين وبونديس. فقط سبعة أشخاص. كلا القسيسين

الأميركيين كان رئيسًا لـ «مارتن»، وكان مارتن يرفع لهما التقارير. لكنهما نادرًا ما كانا يأتیان إلى موسكو، وكانا يثقان به تمامًا. بدا أن كل شيء في الاجتماع على ما يرام، ولم ير مارتن أي حاجة إلى تغييره.

أخيرًا، حضر كولوسوف وأندريه أندريتش شيرلينغ ذو اللحية الرمادية، وبدأ الاجتماع بصلاة تلاها شيرلينغ. في بداية الصلاة، اقتبس من كلام يسوع أنه لا معنى من مراجعة الكنيسة الكبيرة المتحجرة، ولكن قلة من المخلصين البررة يمكنها ذلك، من خلال تقويض أسس هذه الكنيسة، معلنين حقيقتهم الخاصة.

قدّمت هذه الصلاة على الفور إيقاع الاجتماع الضروري، وكان السؤال الأول في الاجتماع: كيف علينا أن لا نتنازل عن هذا المبنى لسلطات موسكو؟

لقد تحدّثوا بصوت واحد، قالوا إنّ التهديد بأنّهم سيأخذون المبنى ليس ضربًا من الخيال. وفي الحال، تكلم مارتن بحزم قائلاً إنّّه لا ينبغي السعي لإرضائهم بأيّ حال من الأحوال، إضافة إلى أنه يمكن أن نحصل على خطابات من المنظّمات الموجودة تدافع عنا، وإذا لزم الأمر نجتمع توقيعات الأهالي الذين يدرس أطفالهم هنا في المدرسة، إذا ما ضغطوا عليّ بالكامل، فسأتوجّه إلى محكمة العدل الدوليّة في لاهاي، وإلى «منظّمة العفو الدوليّة»، أو على الأقلّ إلى الكونغرس الأميركي، لكننا لن نسمح لهم بطردنا، لن يجروّوا على فضيحة مثل هذه.

قاطع الأب فاسيلي كلام مارتن -فجأة- ناظرًا إليه بعناد وكان متوتّرًا نوعًا ما:
- لكن لا يمكنك أن تتصرّف كما لو كنت على أرض عدوّ! حكومة موسكو، على أيّ حال، سلطة شرعيّة!

قال مارتن متقدِّداً:

- أمّا أنا فأشعر أنّنا متواجدون، في الحقيقة، على أراضٍ سبق أن استولى عليها الملحدون!

ثمّ بدأ الكثير من الحاضرين يتكلّمون ويتجادلون، سواء من أعضاء المجلس أو الضيوف.

الله وحده يعلم كيف يقع مارتن في هذه الفخاخ، التي يبدو أنّه كان قادراً على تجنبها وهو في العقد السادس من عمره! عندما يرى هؤلاء الأشخاص يعلم في الحال أنّ ضغوطهم كلّها بسبب الفشل، وبسببه فقط، ومع ذلك، فإنّ هذا الأب «فاسيلي» دفعه إلى الجدل، وجعله يشعر بالضيق، ودفعه إلى أن يقول أشياء كثيرة فائضة وهو مهتاج.

هدّأ كولوسوف الجميع. قال إنّ الأب فاسيلي، بالطبع، لم يكن على صواب، علينا أن لا نستسلم لحكومة موسكو. السلطات الروسية والكنيسة الأرثوذكسيّة، على الرغم من ضجيج الدعم الذي يعلنانه، لم يعيدا الكثير من الممتلكات. يحاولون الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن لأنفسهم من أجل إدارة الكنيسة على نحو أفضل. وماذا يمكن أن نقول حولهم! سيصفعونهم بمجرد أن يشعروا أنّ هذا يمكن أن يمرّ دون عقاب.

في النهاية، اتفق الجميع مع كولوسوف، واتخذ المجلس قراراً واضحاً يحتاج إليه كولوسوف ومارتن من أجل اجتماع الغد مع نيكولايف من حكومة موسكو. انتقلوا إلى البند التالي من جدول الأعمال، لكن على الرغم من ذلك، لم يكن في إمكان مارتن أن ينسى الأب فاسيلي؛ فقد كان متوتّراً كأنّ شوكة استقرّت

تحت جلده. كان يدير رأسه بعصبية، لكنه كان واضحاً أنه لم يكن يصغي، ولم يتدخل في النقاشات، كان ينتظر أن يوجه أي أحد إليه سؤالاً فقط.

ومع ذلك، كان مارتن سعيداً لإبلاغ المجلس أن الولايات المتحدة وافقت على برنامجين من البرامج الثلاثة التي طلبت منظمة «المسيحية المفتوحة» الأموال من أجلها. وهذا يعني أن المنظمة لن تواجه أي مشاكل مالية على الإطلاق في نصف السنة أو السنة المقبلة.

هذا الخبر، بالطبع، أسعد الجميع، وخلق الشعور الذي تقدّمه النقود عادة؛ وعندما تريد أن تنتهّد بعمق وراحة، تصبح الحياة مثيرة للاهتمام، أسرة، مليئة بالمعنى، وتواتيك الرغبة في التحدّث عن المستقبل، وعن الخطط.

لقد فعلوا ذلك، ومن التخطيط للمستقبل، جاؤوا الآن لتوسيع المجلس على حساب كهنة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

تحدّث كولوسوف بحذر: «ليكن، إن النقاش ضروري». أمّا مارتن، رغم أنه كان مهزوزاً بالفعل، عبّر عن نفسه بحذر كبير: «هل يستحقّ الأمر العناء هذا كله؟ هل هناك حاجة ملحة؟».

كان الموضوع يزيدهم توتراً أكثر فأكثر. هذا بالفعل ما ذهب إليه الأب فاسيلي، الذي سقط في ركاب الكراهية، على الرغم من أنه بدا أنه يتصرّف ببطء.

قال وهو ينظر مباشرة إلى مارتن، نظرة أضفى فيها بعض الاهتمام القاتل، إن «المسيحية المفتوحة» يجب ألا تكون أداة دينية معادية لروسيا، وإن لم يكن ذلك مناسباً، يمكن العثور على كاهن آخر، لكن لا ينبغي إبعاد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية جانباً عن اتخاذ القرارات كما يحدث الآن.

كان لدى مارتن إحساس بأنّه وقع في زوبعة أميركيّة سوداء. يمكن لهذا القادم التقليل من خطورة هذه الزوابع التي تغزل غزلًا، ويعرف السكّان المحليّون في الولايات المتّحدة هذه الحالة: ما أن ترى زوابع مثل هذه عليك أن تقفز من السيارة، وأن تركض وتختبئ. المروحة التي تصنعها زوبعة مثل هذه يمكنها أن تحمل السيارة مثل ورقة.

والآن، بدا لـ«مارتن» أنّ يدًا خشنّة معيّنة تدعك روحه مثل ورقة. الواقع نفسه تشوّه وذبل، وفجأة اختفى كلّ شيء كان يعدّه دعامة له، في مكان ما، وبدلاً من ذلك، انفتحت هاوية لا قاع لها، لولبيّة، مرعبة. بدا أنّ هذه الهاوية انفتحت فعلياً في مكان ما بينه وبين الأب فاسيلي، الذي كان يدفع مارتن إليها، ودفعه بالفعل! ولكن في الواقع، لم يكن لهذه الهاوية أبعاد، وهذا أفضع شيء فيها! فقد كانت الموت، العدم، ولا شيء آخر.

فجأة، لم تنهار حسابات مارتن لهذا الاجتماع فحسب. ماذا حدث هناك! لقد سُحِقت حياته السابقة كلّها، ومنطقها كلّها.

لم يعد مارتن يشكّ في أنّهم جميعاً لن يدعموه، بل سيدعمون الأب فاسيلي، وحاول التثبيت والحصول على بعض الأشياء فقط بواسطة آخر بقايا الوعي. حسناً، إنّّه، على سبيل المثال، لم يقترح أيّ شيء محدد! لم يرشح نفسه للمجلس، وقد كان هذا هو الشيء المطلوب بشكل رئيسيّ! التقط مارتن هذا الموضوع، وأجبر نفسه على الكلام بجهد فضيع:

- ما الذي تحاول قوله بالضبط؟ لم أفهم، فأنت تتحدث فقط بعواطف، تقترح التعاون مع الكنيسة الأرثوذكسيّة، لكنني لا أمانع، دعنا نناقش

- الموضوع. تقديم شخص له مكانة، رئيس أساقفة. أعتقد أنّ هذا غير مناسب، كما أنّنا لسنا في حاجة إليه. آسف أيها الأب المخلوع!
- أنا لست مخلوعاً.
- لا أريد الإساءة إليك أنت بالتحديد، أنا آسف، بل أقول: دعونا نناقش.
- من حيث المبدأ، يمكننا أن نرشح رجلاً أرثوذكسياً، ثم آخر كاثوليكياً أيضاً، ولكنني ضد...
- لقد فهم مارتن أنّه كان يتحدث بطريقة محيرة، وفوضوية، لكنّه فهم أيضاً أنّه مع كلّ لحظة من هذا الكلام كان يعود إلى الحياة، مبتعداً عن الهاوية التي تقود إلى العدم.
- أخيراً، على الأقل، أيّدهم -إيفانيخين- الذي قال: «بما أنّ السؤال كان معدّاً بشكل سيئ، فمن الأفضل تأجيله إلى أحد الاجتماعات التالية، وتكليف شخص ما، بيوتر إيفانوفيتش كولوسوف، على سبيل المثال، بالتفكير في كلّ شيء، وإيجاد حلّ للمشكلة».
- وأيد فكرة تأجيل البحث في هذا الموضوع كولوسوف أيضاً، أمّا شيرلينغ فهاجم الأب فاسيلي بحدّة، في حين بقي الأخير صامتاً. لكنّ بيفوفاروف قال: «إنّه لا يفهم على الإطلاق، لماذا يجب نقل أسئلة لم تناقش داخل المجلس لنقاش أوسع؟». لقد كان رجلاً حقيقياً، يميل أحياناً إلى التصريحات الغريبة.
- والآن يذكرون الشعب بشكل عابر، ويتشبث بيفوفاروف بالكلمة:
- لكن ما الشعب؟ الشعب مثل العشب، إنّهُ اليوم هنا -وأشار بيده- وغداً سيكون في الاتجاه المعاكس.

أوقفه كولوسوف قائلاً:

- لكن، لا يمكن للنقاش أن يستمر بهذه الطريقة.
على الرغم من حقيقة أنّهم قرروا تأجيل القضية، إلا أنّهم تحدثوا فترة طويلة.
ومع بعض التردد، لم يعرفوا بالتأكيد من يدعمون، على الرغم من أنّهم كانوا في
النهاية يميلون إلى مارتن، لا إلى الأب فاسيلي.
لكنّ روح مارتن احترقت بشكل كامل، ومع ذلك، بعد أن جمع قوّته، كان
بالفعل قادراً على وخز الأب فاسيلي:

- إذن هذا قرارنا: إنهاء هذا النقاش في هذا اليوم. بالنسبة إليك -وهنا لوح
مارتن بيده بلا اكتراث في اتجاهه- استمرّ في تعليم نفسك. إنني، في
الحقيقة، لا أعرف ما تقوم بتدريسه هناك، لكن بصراحة، لا أريد حتّى
الخوض فيه. وأنت لا تتدخل في ما لا شأن لك به. وهكذا، اعملوا، فلا
أحد يلاحقكم.

- نعم، أنا سأغادر هذا المكان! -استعد فجأة، وقف، ودفع الكرسي
المعدنيّ- هذه المنظمة لم تعد تخدم مصلحة روسيا!

غادر قاعة المؤتمرات الصغيرة ماشياً على السجادة ذات الخيوط
الاصطناعيّة المصنوعة في الغرب بخطوات مكتومة. انتظر الجميع بصمت حتّى
يغادر. أوماً مارتن إلى كولوسوف الواقف عند الباب الذي أغلق خلف الأب
فاسيلي.

- أهو شخص عصبيّ؟

مسح كولوسوف جبهته:

- لديه مشاكل، كان عميدًا في محافظة فياتسكايا، انتقل إلى موسكو، لم تسر
أموره على ما يرام.

سأل مارتن:

- ماذا يعني عميد؟

أوضح كولوسوف:

- مشرف، بروبست•

صعّر مارتن كتفيه:

- دعه يعمل إذا ما كانت هناك أيّ فائدة. أمّا نحن فننتقل إلى السؤال التالي،

أليس كذلك؟

لقد حاول التظاهر بأنّه لم يحدث شيء، وظلّ الآخرون هادئين، لكن بدا أنّ
الجميع فهم أنّ شيئًا ما قد حدث لا يمكن إصلاحه. على أيّ حال، شعر مارتن
بالرعب، وكلّما مرّ الوقت كان الشعور يزداد سوءًا.

أيّ جرح في الروح يلتئم تدريجيًا، ويخفت ألمه. لكن هذا الشفاء لا يبدأ على
الفور، أولًا، عليك أن تعاني من ألم شديد، وهو الألم الذي لا تظنّه خطرًا في
بعض الأحيان، وأنت تتعرض لجرح.

أدرك مارتن أنّ هذا اليوم كلّه سيكون معركة مع هذا العذاب المتزايد

باستمرار.

• منصب دينيّ كنسيّ. كان يسمّى «الأفينوم» في الأصل في أديرة أوروبا الغربيّة؛ لاحقًا
أصبح رجل الدين الثاني بعد الأسقف في الكاتدرائيّة؛ ثمّ، في أماكن كثيرة، راعي
الكنيسة الرئيسيّة.

لقد جعلت حياتك كلّها صراعاً ضدّ طاقة مثل هذه، محمومة ولا يمكن السيطرة عليها، وفي الحقيقة، تحمل شيئاً سحريّاً، لكنّها في جوهرها مدمرة، إنّها طاقة من الشيطان، تحاربها بشكل منتظم، وقد حققت بالفعل -بالمثابرة- الكثير، ممّا يجعل الانتصار على هذه الطاقة المعادية لك أمراً مستحيلاً تماماً.

فجأة، صادفتها، وتحطمت جميع أعمالك وتحوّلت إلى شظايا، لقد سُحِّقَتْ، لقد دُمِّرَتْ، ببساطة. أنت مهزوم، وهذا يعني أنّه يجب عليك إمّا أن تتعرّف على نفسك على هذا النحو، وبالتالي ليس مستبعداً أن تعترف أنّ حياتك كلّها كانت خطأ محضاً، أو عليك أن تجبر نفسك على إنكار الحقائق الروحيّة التي لا يمكن إنكارها، وبالتالي تكون قريباً من فقدان الأمانة الروحيّة.

لا، لم يستطع مارتن إعلان هزيمته، ولم يكن يملك الحقّ في ذلك. لذلك، كان عليه التظاهر بذلك على الأقل، والأفضل من ذلك الإيمان حقّاً أنّه لم يحدث شيء خاصّ هذا اليوم.

كان صباح اليوم التالي أسهل، على الرغم من أنّ مارتن ما زال يدرك أنّ صدامه مع الأب فاسيلي كان الحدث الأهم والأشدّ ألماً ممّا حدث معه في موسكو.

الشيء الحقيقي هو التخلّي عن ديننا وقبول الأرثوذكسيّة لأنّ فيها قوّة روحيّة حقيقية.

تومض هذا الفكرة للحظة فقط، لكن بشكل جاد، على الرغم من أنّه أدرك على الفور أنّه لا بأس من المزاح في هذا الموضوع. لكن بشكل عام، كانت

وظيفته تتلخص في مقاومة مثل هذه الاضطرابات، والتغلب عليها. لذلك كان عليه أن يُثبت لنفسه وللآخرين مدى سيطرته عليها.

التقوا بـ«نيكولايف» من حكومة موسكو، مع كولوسوف، وكان رجلاً وسيماً ذا شعر أسود وله أنف ذو حذبة، وخدّان بغمّازين. لقد تمسك بموقف شرير، محاولاً حتّى التخويف، وذكرّ مارتن مرة أخرى -بشكل مؤلم- بكل شيء جعل الأب فاسيلي يعاني منه. قال نيكولايف إنّ تعليمات جديدة تُعدّ، ونتيجة ذلك سيؤخذ المبنى منهم بكل تأكيد، لذلك من الأفضل لهم الاهتمام بالانتقال بدءاً من هذه اللحظة.

ردّاً على ذلك، أعلن كولوسوف ومارتن أنّ لديهم أيضاً أسباباً جديدة إضافية تمنعهم من الرحيل. ولكن بشكل عام، لم يعتقد مارتن أنّهم سيترجعون بحدة في روسيا أو أنّ حكومة موسكو ستكون قادرة على طرد منظمة «المسيحية المفتوحة» من المبنى. ومع ذلك، يجب أن توقف عمليّات الصيانة في كلّ الأحوال، ممّا أثار غضب كولوسوف. ومع ذلك، أدرك بيوتر إيفانوفيتش أنّه من الغباء أن تستثمر الأموال في شيء يمكن إصدار مستقبلًا.

ولم يتمكّن مارتن وحده من إرضاء كولوسوف. لقد ألّمح إلى أنّه -مع وجود البرنامجين المعتمدين في الولايات المتحدة، ومع توفر الفرص من جمع التبرعات لهما- قد تنشأ صعوبات في حالة ظهور آباء جدد على غرار الأب فاسيلي. ومرة أخرى، لم يستطع بيتر إيفانوفيتش إلا أن يتفق معه.

في اليوم الأخير، قبل السفر جواً إلى كييف، بدا الأمر كما لو أنّ شيئاً ما قد بدأ يتحرك على شاشة التلفاز، على قناة أخرى، وليس على تلك القناة التي طُرد منها. ولكن لم يتضح أيّ شيء ملموس. وفي المطار، قال مارتن لمرافقته أنجيلا:

- إذا سارت أمورنا على ما يرام في كييف، فسأوفر لهذه الرحلة أموالاً أكثر ممّا أنفقته على جميع الرحلات السابقة...

ثمّ نشر يديه وفتح أصابعه بشكل كوميدّي. أمّا هي فهزّت شعر غرتها الكستنائيّ القاتم وابتسمت كاشفة عن أسنانها البيضاء.

-5-

خضعت موسكو للأب فاسيلي مرتين. لكن كان هناك فرق. قبل عشرين عامًا، اختار خريج مدرسة فولوتشيك العليا إحدى جامعات موسكو بجدية بالغة، بالطبع، ولكنه لم يدرك معنى الجدية القاتلة، الأخيرة، إلا الآن فقط. لقد أصبحت الحالة التي تجد فيها كل خلية نفسها في حالة النزاع الأخير عادية تقريبًا. قد لا يكون الحيوان الذي يطارده الصيادون متوترًا مثل الإنسان في هذه الحالة نفسها. لأن الحيوان، من الممكن أن يأمل في خداع المطاردين له، والتملص منهم، غير مدرك لما هو مخطط له، وأن الخطر الرئيسي ليس في الضجيج الذي يهدر خلفه، ولكنه في ما لم يخطر في باله، وهو الشرك الذي يطاردونه إليه.

لكن في غارة الصيد التي رُتبت لـ «روسيا»، كان الأب فاسيلي متأكدًا أنه لن يكون قادرًا على الخداع، لأن المطاردين لا يأخذون الخداع بالحسبان في المقام الأول.

هنا، إذا كان هناك شيء ما يمكن إنقاذه، فإنه ليس سوى ذلك التوتر الذي توقعه فقط، ويمكن أن تكون تخميناته بعيدة عن الواقع حد السخرية. ترى، متى استشعر ذلك الخطر؟

لقد كان ذلك منذ وقت ليس بالبعيد، وقد حذرّه الكثيرون من ذلك في وقت مبكر.

أصبح كل شيء واضحًا، بالنسبة إليه، فقط حينما تحركت القوات الغربيّة على بعد نحو ألف كيلومتر من الغرب إلى الشرق، في البداية، على الخرائط فقط، وليس على الأرض، أقيمت القواعد العسكريّة، والمقر الرئيسيّ، والمطارات. وأُطلق على ذلك «قبول أعضاء جدد في حلف شمال الأطلسيّ»، ولكنّه توقع أنّ وراء ذلك إجراءات صياد خبير، تقوم إحدى مهاراته الرئيسيّة على عدم إخافة الحيوان في وقت مبكرّ.

رأى الأب فاسيلي، أنّه حتّى يتمّ إعداد كل شيء، فإنّ هؤلاء الخبراء لن يشنّوا هجومهم، ولكنّهم عندما يشنّون هجومهم، فقد يتضح أنّ أوان المقاومة قد فات. هرب من الأبرشيّة، حيث كان عميدًا، وعاد إلى موسكو. قبل ذلك، كان قسًا مدة سبع سنوات، وقد خدم هناك طوال هذه السنوات في منطقة فياتسكا.

تلقى أول رعاية له في قرية شيسناكوف على نهر فياتكا. لقد كانت قرية كبيرة فيها منازل مكوّنة من خمسة طوابق، وكنيسة حجرية، كانت على ما يبدو، في وسط القرية، لكنّها أصبحت الآن في ضواحيها وتشغلها منجرة.

استأنف الأب فاسيلي الخدمة في الكنيسة، وخلال عام تمّ ترميمها تقريبًا. لكنّه لم يكن لديه في هذه القرية شقّة تحتوي على وسائل الراحة الموجودة في شقق المدينة، سكن في منزل خشبيّ، ولهذا السبب رفضت زوجته الذهاب إلى هناك وبقيت في موسكو.

إنّه لم يدنها. هكذا تشكّلت العلاقة بينهما، إنّ لا يدين تاتيانا، على الرغم من أنّه، لو أخبره شخص غريب عن زوجته أنّها ترفض العيش هناك لأنّها لا ترغب

في أن تستخدم مرحاض القرية، وتطهو دون وجود صنوبر ماء، فإنه سيتعاطف مع هذا الشخص، لكنّه سيدي اندهاشا في الغالب، فهل الأمر حقًا كذلك؟ هل هذا ممكن؟

الحقيقة أنّ زوجته التي كانت تنظر إلى الحياة بهذه الصورة، لم تجعل الأمر أكثر قابليّة للفهم. بشكل عام، كان في علاقتهما، كما بدا له، الكثير من الأشياء الغريبة والشاذّة التي اعتاد الأب فاسيلي عدم استخلاص نتائج منها.

ربّما كان هذا الزواج بحدّ ذاته خطأ، فقد أصبح ذلك واضحًا بالنسبة إليهما كليهما بعد حفل الزفاف تقريبًا. لم يكن لديهما أطفال، ولم يلتقيا في مكان واحد، إذ بقيت هي مسجلة مع والديها في شُقّة في شارع فيرنادسكي، وظلّ هو الآخر في غرفته في شُقّة مشتركة، في شارع بولشوي سيرغيفسكي. لم يعيشا معًا منذ فترة طويلة، لكنّهما حتّى الآن لم ينفصلا.

بعد قرية شيسيتاكوفو، سكن في بلدة أكبر، حيث بُنيت الكنيسة هناك من الصفر. في حين خدم الأب فاسيلي في كنيسة خشبيّة صغيرة. بنيت الكنيسة في ثلاث سنوات، وبعد ذلك انتقل إلى قرية جديدة، قرب (النهر العظيم)، حيث أعادوا بناء الكنيسة، التي كانت تستخدم هذه المرة مستودعًا.

ربما كانت هذه السنوات هي الأسعد في حياته، كما يتذكر الآن. لم تكن قد ظهرت بعد هذه الخاصيّة الغريبة للبعث الأرثوذكسيّ الروسيّ: التهديد بالتوقّف، في حين لم تكذب تبدأ بعد. ومع ذلك، حتّى الآن، بالطبع، لم يظنّ أنّ روح روسيا يمكن أن تتلاشى من تلقاء نفسها، دون غزو عسكريّ. ببساطة لقد أصبح يرى الآن بشكل أفضل، أنّه من الصعب بناء شيء دائم، وكما يحدث في حالة أخرى،

أن الأمر يستغرق أحيانًا، للحفاظ على شيء ما، المزيد من الجهد كلما تقدّمنا قدماً.

ولكن، بعد ذلك، لم ير أيّ عقبات أمام نفسه أو أمام الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة. فقد طار به الفرح إلى خارج الجاذبيّة الأرضيّة وهو يرى أنّهم في بلاده يعيدون الآن ترميم كنيسة أو يبنون كنيسة جديدة، بالطريقة نفسها، في كلّ بلدة وقرية كبيرة من روسيا الكبيرة. بالتوازي مع هذا، هل يمكن أن نعدّ ظروفه مشابهة للصعوبات التي كان يواجهها؟ لقد كان يتشاجر مع البنّائين، ويطبخ لنفسه الشيء نفسه طوال الوقت، ويعيش في منزل قرويّ، ثمّ في غرفة غير مريحة في شقة مملوكة للدولة. ثمّ، مرّة أخرى، في منزل قرويّ لامرأة عجوز من أبناء الأبرشيّة. من وجهة نظر الزوجة، نعم، ربّما كانت هناك صعوبات، ولكن بالنسبة إليه فقد عاش مجتهدًا، وعمل كما لو كان يسابق نفسه، وكانت تلك الصعوبات مصدر السعادة الرئيسيّ لديه. إنّّه يرى ذلك بوضوح الآن، إلى حدّ كبير، فهل للسعادة مصادر أخرى، في الحقيقة؟

بعد أن ظهرت الجماعة الثالثة، والكنيسة الثالثة، جعلوه عميدًا مسؤولاً عن عمل عشرة كهنة في عشر أبرشيّات. عندها، بالمناسبة، جاءت الزوجة لتعيش معه مدة عام تقريبًا بعد أن مُنح -أخيرًا- شقة في المدينة. من بين الكهنة العشرة، ثلاثة منهم كانوا من عائلات كهنوتيّة متوارثة، يفعلون ما كان يفعل آبائهم. ثلاثة آخرون كانوا شبّانًا في مقتبل العمر، لم يكونوا يعرفون شيئًا في الحياة غير الجيش والمدرسة الدينيّة. البقيّة، مثل الأب فاسيلي أيضًا، الذي عمل مهندسًا إلكترونيًا

قبل عمله الكهنوتيّ، تمكّنوا من العمل في المجال المدنيّ، كلٌّ حسب مكان سكّنه. كان أحدهم مدرّساً، والآخر سائق حافلة.

كان أكثر شخص غير سعيد لما حصل معه هو والده جوزيف، وهو شخص قويّ البنية يتمتّع بخبرة ثلاثين عاماً، أتت سمعته الواسعة من حبه المال حبّاً غير عاديّ. كان ذلك يبدو على وجهه الأحمر بلحيته النحاسيّة المتموّجة بدقّة. من الضروريّ تقديم أيّ مبلغ، لأيّ سبب من الأسباب، أو من دون سبب، لا حرج في ذلك، وكلّما كان المبلغ أكبر كان ذلك أفضل. لقد كان مبتزّاً ناجحاً دائماً، مستعدّاً لقبول الرشى بشكل مكشوف وبِدْرِية، لدرجة أنّه يكاد لا يخطئ الهدف بأيّ حال من الأحوال مع أيّ شخص كان. كان أيّ شخص يواجهه يقدّم له المال دائماً، وكان لديه منزل من طابقين، وسيّارة «جوغولي»، رغم أنّه ربّما كان في إمكانه اقتناء سيّارة أغلى ثمنًا. كان يشرب الكحول بشكل معتدل، ليس مثل الأب أنطوني، المدمّن على الكحول، الذي طالما نفاه الأسقف إلى أبرشيّات بعيدة. كان الأخير متسوّلاً بامتياز، ويشرب كلّ شيء تقع يده عليه. في الصيف، كان يتجوّل بين القرى حافي القدمين، أشعث، أغبر، شكله أسوأ من شكل أيّ فقير معدم. هل كان يقوم بوظيفته وهو في حالة الصحو؟ كان الأب فاسيلي يشكّ في ذلك. كانت طقوس الضريبة معروفة ولا تتغيّر بالنسبة إلى أبناء الرعيّة. زجاجة الخمر.

وفي بعض الأحيان يصبح الأب أنطوني فجأةً حادّ الطبع وثقيله. في الاجتماع الأوّل، كادوا يشتبكون تقريباً مع الأب فاسيلي. مديرة التزويد في الأبرشيّات التي جاءت مع الأب فاسيلي للتفتيش على الأب أنطوني، رفعت صوتها مُرَعِدَةً. لقد

أطلق الأب أنطوني غضبه عليها، وسرعان ما طرد الاثنين معاً: «ارحلا، من حيث أتيتما». صالح الأب فاسيلي -نفسه- وغادرا فعلاً. ومنذ ذلك الحين وهو يحاول عدم العبث مع هذا الكاهن. كان أمامه أحد هذين الخيارين: إما أن يطرده أو يصبر. لكنهم لم يتمكنوا من طرده، فلم يكن هناك عدد كافٍ من الكهنة...

كان آخرون يعرفون موضوع النقص في عدد رجال الدين، وقد ترك ذلك تأثيره في بعضهم، ليس بأفضل صورة. لم يكن بعضهم نموذجاً للأخلاق فحسب، بل، كما لو كان الأمر عكس ذلك. الأب أنطوني نفسه، اشتكوا منه أكثر من مرة. فتارةً يسافر إلى المدينة، ويسكر هناك، ويقع في أيدي رجال الشرطة، أو يدخل المستشفى. كم من أسبوع كانت الكنيسة فيه تغلق؟ وفي إحدى المرات، في عيد الفصح، لم يسافر إلى أي مكان، ولم يقع في أيدي رجال الشرطة، ولم يدخل المستشفى، لكنه كان في حالة سكر شديد حدّ أنه فقد وعيه؛ فلم تؤدّي الشعائر. هكذا كان «المسيح قام...».

كان واضحاً بالنسبة إلى الأب فاسيلي أنّ الكثيرين في الغرب يعتبرون أنّ الروحانيّة الروسيّة الشهيرة ليست أكثر من انحراف مرضيّ، كما هو الحال بالنسبة إلى الأب جوزيف أو الأب أنطوني. التغيير غير الصحيّ، والنموّ غير الطبيعيّ، وفقط، كما يقولون، الكبرياء يجعل الروس يرون هنا نوعاً من التفوّق الروحيّ الخاصّ.

كان الأب فاسيلي يفكّر بتهوّر، رغم أنّه كان متأكّداً أنّ الأمر ليس على هذا النحو، وليس كذلك: «حسناً، لنفترض أنّ الأمر كذلك. لنفترض، هكذا، وماذا في ذلك؟ أليس الانحراف الصريح أفضل في بعض الأحيان من الصواب البائس

الذي يُجَلّ في الغرب على أنّه مثال؟ وهل يوجد حقًا مثل هذا الصواب في الغرب؟ نعم، يوجد تبسيط روحيّ، ولكنّه ليس صوابًا، توجد أشياء متنوّعة! أليس من الفجاجة، على سبيل المثال، الاعتقاد أنّ هناك نوعًا من النظام البرلمانيّ أو نظام السوق، يمكنه تحسين وضع الإنسان، ومساعدته في كلّ تعقيدات حياته؟ نعم، يمكن لهذا النظام طحن الإنسان وتقليمه، ولكن هل هذه نعمة؟ من غير المستبعد، وعلى العكس من ذلك، يمكن أن يكون ذلك خطرًا قاتلًا».

بعد أن ارتفع الأب فاسيلي قليلًا على سلّم الأبرشيّة، رأى الأشياء أوسع وأكثر قتامةً من ذي قبل. أو ربّما يكون الزمن قد تغيّر بالفعل، إذ إنّ خطط تقدّم الناتو نحو الشرق قد اقتربت من التنفيذ. كان الفقر في روسيا فظيعةً، لكنّ بالمناسبة، حتّى مع هذا الفقر، كان في إمكانهم التبرّع للكنيسة أكثر! وبعد كلّ هذا، فإنّ إحياء الأرثوذكسيّة الروسيّة بالكامل قد استقرّ، على الرغم من الفوائد الحكوميّة على رواتب كبار السن التقاعديّة، وأيّ نوع من الرواتب كانت تلك!

لقد انخفض الإنتاج في روسيا منذ عدة سنوات. لنفترض أنّ الكثير ممّا ينتج في البلدان المزدهرة المزعومة لا يحتاجه الناس حقًا، والحمدلله أنّنا لا نصنع هذه المنتجات. ومع ذلك، فإنّ تراجع الإنتاج أو نهوضه، يفصح عن مزاج الناس وطاقاتهم. واستنادًا إلى تدفّق البضائع والمبشّرين من الغرب، وخاصّةً من أميركا، كان هذا النوع من الطاقة موجودًا هناك. فهل هو موجود في روسيا؟

في روسيا، كانت المناطق النائية تتطلع إلى موسكو، وتنتظر القيادة منها. لم يكن الناس، الذين سيقوا في السابق إلى الكولخوزات والسوفخوزات* في عجلة من أمرهم لأن يتبعثروا ويتأكلوا، كما لو كانوا على استعداد لمواصلة العمل في فقر نسبي، ربما ستكون هذه فكرة عامّة. لكنّ موسكو لم تكن في عجلة من أمرها لطرح هذه الفكرة، فقد أصبح من المألوف الآن بين المثقفين في موسكو الاعتقاد أنّ العاصمة يجب أن لا تقود، وأنّ على الناس أنفسهم فعل كلّ شيء. على وجه التحديد، يجب أن ينقسم الناس إلى ذرات-فرادى، كلّ منها ملزم بالسعي بشكل مستقلّ لتحقيق الربح. وإذا كان استقلال الفلاح الروسي يتجلّى في معرفته، فما الذي يمكن أن يجنيه من مكاسب، أو حتّى أن يحيى فقط جزءاً من شعب، وليس فرداً؟ لقد كانت مثل هذه المسألة المنطقية تعقد -بالفعل- العقل المثقف.

هكذا اتضح أنّ الناس يلومون موسكو، وموسكو تلوم إلى الناس، وروسيا - من بين بلدان أخرى - لا تزاد ثراء كلّ عام، بل تزاد فقراً. لم تكن السخرية أو النكتة السوداء في موقف مثقفي موسكو هذه الأيام تعني الأب فاسيلي. كانت الحالة الروحية السائدة عنده تزاد قتمامة أكثر فأكثر، وهو شعور يشبه الصداق أو الألم الجسديّ، أو المرض العميق، عندما تكون فيه الحمى أكثر المظاهر سطحيّة وغير جوهرية. لقد وصل إلى موسكو وهو في هذه الحال. أخذ إجازة في أبرشيته، حاول الحصول على أبرشيّة في موسكو وفشل. وفي النهاية، كان أمامه أحد خيارين: إمّا أن ينتقل إلى موسكو، أو أن يحتفظ بلقبه «قسّ»، على أن يعيش

* المزارع الجماعيّة ومزارع الدولة في العهد السوفييتي.

على موارده الخاصّة، ولكن إذا أراد أن يكسب مالا بوصفه كاهن الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة، فهو ملزم باتباع النظام، والذهاب إلى حيث يرسلونه. مع توفّر المال، حُلّ كلّ شيء بسرعة: وجد عملاً في منظّمة «المسيحيّة المفتوحة». دفعوا له لقاءً بضع محاضرات ألقتها مقدار ما تدفع الدولة لمعلّم لقاء نصاب محاضرات كاملة. بالطبع، كان الأب فاسيلي يعي أنّه متورّط في أمر غير نظيف، لكنّه بقي متصالحاً مع الأمر مدة عام تقريباً. حتّى إنّ زوجته عادت للظهور عندما علمت أنّه أصبح محاضراً ثرياً. كانت تاتيانا أُمينة مكتبة، وهي امرأة حميمة، ثريّة وذات ميل كبير للدين، وربّما بشكل أساسي «للحياة الدينيّة». كانت غرفتها في شقتها في شارع فيرنادسكي تشبه كنيسة مسيحيّة، فيها أيقونات، بما في ذلك الثمينة منها، مع أطر باهظة الثمن، وأغطية مطرّزة بالقصب، وصلبان رائعة. على أنّ هذا الحال كان بالفعل موجوداً عندما التقيا، ولم يكن له تأثير فيه. اتضح أنّها كانت تعمل مساعدة وسكرتيرة رئيس أساقفة عجوز متقاعد، وجمعت مجموعة من الخطب المختارة له في مجلّد، وساعدته في كتابة مذكراته، وكانت تساعد كذا في الأعمال المنزليّة. لم يدفع الكثير من المال، ربّما قدّم لها الهدايا. وكانت هذه هي الحياة المثاليّة لتاتيانا: كنيسة غنيّة، قصور، أطباق طعام، نبيذ.

عندما نصّبوا الأب فاسيلي عميداً، جاءت إليه من موسكو في محاولة أخيرة يائسة لإعادة الحياة إلى هذا المثل الأعلى، لإقناعه بالعيش بالطريقة التي يعيشها - حسب كلامها - جميع الكهنة الطبيعيين، دون أن يحرم نفسه أيّ شيء، لكنّه كان في مكان آخر، في فقر الأبرشيّة؛ فغادرت خالية الوفاض، وكان هذا الشرخ

الأخير في علاقتهما، كانت النهاية. هما الآن في موسكو، يلتقيان بالفعل كالغرباء، خاصةً أن تاتيانا ارتبطت باللوثريين. شيء مدهش!

عندما علم الأب فاسيلي، لم يصدّق: «من أين أتى اللوثريون إلى موسكو؟». اتضح أنّهم من أحفاد الألمان الذين نالوا الجنسية الروسية. حتّى إن كنسيتهم ليست بعيدة عن ساحة بطرس وبولص القديمة.

هنا أصبحت تعمل تاتيانا. درّست في مدرسة الأحد، وعملت عملاً إضافياً آخر، وسافرت إلى ألمانيا مرتين. ومرة أخرى، كما حدث مع المراهيض الريفية، ظهرت مفارقة مدهشة: «أيمكن أن يكون هذا هو السبب حقاً؟ أن تتعرف على الألمان، وتقوم بزيارة بلدهم النظيف! لا». لم يكن الأب فاسيلي قادراً على تصديق أنّ تصرفات شخص ما قد تحدث بسبب مثل هذه الاعتبارات. ولكن، بالمناسبة، فقد مكّنت علاقات تاتيانا باللوثريين الأب فاسيلي من إلقاء نظرة واعية على نفسه: إنّهُ هو نفسه، في منظّمة «المسيحية المفتوحة»، ألا يفعل ما تفعله هي؟ ألا يساعد في نشر الهرطقة نفسها؟ أصبح الوضع مخزياً ولا يطاق، والآن، لقد انفكّ عنهم. كان هذا الآن، لكنّه ظلّ يعمل معهم قرابة العام.

كان السبب الذي جعله يعمل فترة طويلة أنّه كان طوال هذا الوقت في حيرة من أمره، حتّى إنّ أسئلةً جعلت الاختلافات بين الطوائف المسيحية غير مهمّة على الإطلاق. سحّقه سؤال: «هل تحتاج الإنسانية إلى المسيح حقاً؟ ألم تصل المسيحية إلى أعلى مستوى في المجتمع الغربي من خلال الإنتاج الضخم والابتسامات الإلزامية؟ ألم تحقّق روسيا اختراقاً هائلاً نحو السلطة، ففزة في الفضاء دون المسيح، ورغماً عنه؟ من ناحية أخرى، بدا رفض المسيحية النهائي،

ورفض التقاليد التي استمرّت نحو ألفي عام خطوة انتحاريّة. أ قليلٌ ما تحمّلته روسيا في القرن العشرين؟ وهل ستعاني عمومًا من كلّ ما مرّت به بالفعل؟ ومع ذلك، فبعد الابتعاد بشكل حاسم عن المسيحيّة، كما فعلت روسيا بالفعل، هل كان في الإمكان العودة إلى الوراء؟». أسئلة فظيعة وساحقة.

في الشتاء الماضي، زار الأب فاسيلي ديرًا أرثوذكسيًّا افتُتح حديثًا في موسكو، والتقى برئيس الدير هناك المعروف بإيمانه الجادّ. لقد ضاع الدير الصغير بين خطّي مترو مفترقين بعيدًا مسافة أحد عشر محطة بالحافلة الكهربائيّة.

لقد ظهر الشفق المتجمّد. وطول الطريق في العربة المتجمّدة، كان الأب فاسيلي يتنظر متوترًا: «تري، هل سيأتي الكُمسري؟»، إنّه لم يثقب البطاقة عن قناعة للتغلب على هذه الأمانة العقلانيّة المفترضة ولو بالحدّ الأدنى! وطوال الوقت كان مستعدًّا لصراع من نوع ما، فالكُمساريون يغرمون فقط أولئك الذين يشعرون أنّ لديهم خوفًا أكثر من خوفهم. ومع ذلك، من الصعب جدًّا التغلب على الكومساري. لم يتخلّص من التوتر إلّا عندما نزل عند المحطة التي كان يقصدها في أرض قاحلة مغطاة بالثلج، وقد أراحته فكرة أنّ الغالبية مثله لم يدفعوا. مرّ تحت خطّ الأنابيب، ورأى خلف الأشجار والشجيرات بناءً أبيض طويلاً ذا طراز معماريّ من طرز الأديرة. كان هناك دير في هذا المكان قبل الثورة، ثمّ تحوّل إلى ورشة لطلاء الخزف، والآن -دون إخلاء الورشة- جاء إلى هنا عشرة رهبان ورئيس.

اتضح أنّ رجل ذو لحية شاحبة ونظرة كراهية. استقبل الأب فاسيلي في غرفة واسعة ذات سقف منخفض، لا تشبه غرف الرهبان المنفردة. وفرض على الفور

- لهجة تهين الأب فاسيلي، وخاطبه بـ«أنت» لا «أنتم».
- فبادره الأب فاسيلي بأن شكك في المسيح، فكشف الآخر عن أسنان طويلة وحادة غضبًا:
- قلتَ على الهاتف إنك تريد التحدث عن الإيمان، وها أنت نفسك تتحدث عن عدم الإيمان؟ إذن تخلّ عن لقبك!
- وراح ينظر إلى الأب فاسيلي كما لو كان شيئًا قذرًا ومفسدًا. هذا اغتيال معنويّ له. هل يستحقّ الأب فاسيلي هذا؟
- كبح نفسه وقال:
- جئت لمعرفة حكمتك.
- رفع رئيس الدير صوته الحادّ:
- وأنت تعرف بالفعل حكمتي الأرثوذكسيّة. أنا نفسي ثقّفت أبناء الرعيّة بها. ليس لديّ شيء آخر. وهذا يكفيني...
- ومرة أخرى نظر إلى الأب فاسيلي دون أن يخفي ازدراءه.
- ثمّ بدأ الأب فاسيلي في النقاش، كما لو كان يشرح لنفسه. كان يدحض نفسه، ويقاطعها، ولا يسمح لأيّ شيء بالوصول إلى خاتمة.
- ثمّ تحدث الرئيس بحسم هازئاً رقبته، ناظرًا إلى الأب فاسيلي بعينين ابصّتا من الغضب، عن حقيقة أنّ نقطة الالتقاء هي الخلود الذي لا يمكن تحقيقه دون المسيح، وأنّه لا يوجد خلاص بعيدًا عن المسيح.
- تدخّل الأب فاسيلي، قائلاً:
- وهل الخلود ضروريّ للإنسان المعاصر؟

قال الرئيس صارخًا تقريبًا:

- غزت الشياطين، التي لم تبدأ حتى بمواجهتها! آمين بالمسيح وبالنصر على الموت، قاتل الشياطين، ثم تعال. والآن ليس لدي شيء لأنحدث معك عنه.

ومع ذلك، تحدثا بعض الوقت، وشعر الأب فاسيلي بالمزيد من النار التي تحرق روحه. يُثار لدينا الشعور بأننا أمام شخصية أكثر قلًا، وأكثر قسوة تجاه نفسها أكثر منّا.

لقد أدرك الأب فاسيلي أنّ هذا الرجل، الرئيس، يؤدّي الآن المأثرة الرئيسية في حياته التي حشد لها إرادته كلّها. وهي أقوى من إرادة الأب فاسيلي نفسه. يبدو أنّ المأثرة الروحية الفذة تكمن دائمًا في شيء واحد: وقف توفير القوى من أجل نضال مستقبلي محتمل، وصرفها لاحقًا دون أن تبقي منها شيئًا على ما يمكنك القيام به الآن مباشرة.

وبجانب هذا الشخص، يشعر الآخر، الذي يعدّ نفسه دومًا أفضل من غيره، دون أن يملك الحقّ في ذلك، بعارٍ لا يحتمل.

هذا بالضبط ما كان يشعر به الأب فاسيلي الآن.

تناول الرئيس الصليب عن الطاولة، ودسّه أمام لحية الأب فاسيلي وقال منهياً الحديث:

- والآن، قبل الصليب.

وقبله الأخير. وانطلق إلى الشارع، مجللاً بالعار. كان أكثر شيء أخزاه أنّ رئيس الدير لم يخترع شيئًا في الواقع، ولكنّه، ببساطة، دفعه إلى الأرثوذكسية التي

كان بدوره يعرفها جيداً. كان هذا بالضبط درساً في القوة الروحية للأرثوذكسية، شيئاً لا إنسانياً، وساحقاً.

أدرك الأب فاسيلي أنّ كلاّ منهما كان يعدّ نفسه منقذ روسيا المحتمل، وهذا يعني أنّ أحدهم يجب أن يطيع الآخر، أو يصبح عدوّه القاتل. ولكن حقيقة الأمر أنّ رئيس الدير كانت لديه أسباب، وكان لديه الحقّ في أن ينظر إلى نفسه على أنّه يعمل لإنقاذ روسيا، وكان لديه إيمان. أمّا الأب فاسيلي فماذا لديه؟ كان لديه كبرياء وحسب، ورغبة في تأكيد شخصيته الذاتية، وما تبقى مجرد أعذار وأدوات!

كان هذا الرجل، بعكس الأب فاسيلي، مؤمناً حقاً، وكان هذا محسوساً. وإذا كان هناك شخص واحد على الأقل يؤمن بشكل حقيقيّ بهذا البلد، مثل رئيس الدير تحديداً، فإنّ البلد لن يُقهّر ولن يهدده شيء إلى حدّ كبير.

انطلق الأب فاسيلي بلا هدى عبر الأعراس وعلق في الكتبان الثلجية. أخيراً، خرج إلى الطريق الذي أضاعته المصاييح. لقد كان الظلام مطبقاً تماماً.

لقد قطع إحدى عشرة محطة من محطات الحافلة الكهربائية حتّى المترو، مشياً على الأقدام، دون أن يشعر بالصقيع القارس بسبب الشعور بالخزي.

انتشل ضوء المصاييح قواعد الأعمدة الخرسانية من الظلام، وأشعّ على الثلج الذي سحقتة الأقدام عند المحطات.

هذا هو الحزم عند الأرثوذكسية! لم يكن الأب فاسيلي في حاجة إلى أن يخترع ديناً جديداً، لكن أن يخضع على الأقلّ لرئيس الدير هذا.

كانت نتيجة الرحلة أن الأب فاسيلي أصبح مسيحياً متحمساً مدة نصف عام تقريباً. يجب على المرء أن يمتلك الشجاعة للإيمان، وهذا كل شيء. لقد شعر بالشجاعة في نفسه بما يكفي، حتى إنه ربما يستطيع أن يجادل في موضوع الإيمان مع رئيس الدير. لقد تجاوز الأخير الخمسين من عمره، فاته الألوان للبدء بعمل أشياء كبيرة، لكن، بالنسبة إلى الأب فاسيلي، فهذا هو الوقت المناسب.

احتاجت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى واعظ ناري؛ وقد بدت الرتب الهرمية الحالية فيها شديدة الحذر، وأكثر انخراطاً في السياسة أيضاً. البطريرك الحالي أليكسي، في جوهره، غربي التوجه، والأكثر منه ميلاً للغرب هو ذلك المتروبوليت ذو الكلام المعسول، الذي يسعى لأن يصبح البطريرك القادم. ربما كان رئيس الدير هذا، الشخص الأكثر صدقاً في روسيا، ولكن من يعرفه؟ من يحسب له الحساب؟ أصبح الجميع يصادقون الكاثوليك بقوة أشد من أي وقت مضى، ولا يحاربون بحزم منظمات مثل «المسيحية المفتوحة» أو «السفراء المسيحيون». هذه هي كنيستنا. لذلك القطيعة الجذرية معها لا تستدي الشفقة أو الحزن! مع مرور الوقت، وتلاشي أثر الانطباع الذي تركته مقابلته مع رئيس الدير، ضعف أيضاً اليقين الأرثوذكسي لدى الأب فاسيلي. وعاد الشك في المسيح مجدداً.

لا يمكن للمسيحية أن توحد أوراسيا. من الغباء أن يُقبل ذلك من الأتراك والإيرانيين والهنود والصينيين - الشعوب التي تشكل الغالبية العظمى في أوراسيا - ودون توحيدهم، لا يوجد مجال للتفكير في توحيد الإنسانية معاً. يجب

إعطاؤهم ديانة جديدة تمامًا، حتّى لو كانت نابعة من الأرثوذكسيّة. أرثوذكسيّة، ولكن دون المسيح أو معه، لكن على أن يكون دوره في الحد الأدنى. سوف يشتعل هذا الدين، ويوحّد أوراسيا معًا، وهذا يعني، أنّه في النهاية سيوحّد البشريّة جمعاء!

قرأ كتبًا في التصوف، والسحر، والعبادات. في وقت من الأوقات، كان يعتقد أنّه يستطيع تحويل «المسيحيّة المفتوحة» قليلًا على الأقل نحو روسيا. لا يمكن أن تبقى مفتوحة فقط للنفوذ الغربيّ! لكن أين هو! لم يكن من الضروريّ أن تكون صاحب فراسة حتّى تتنبأ بدقّة كيف ستنتهي المحادثة مع مارتن بونديس. لقد أرسلوا له الأب فاسيلي. بالطبع هذا شيء عظيم، لم يكن هناك شكّ في ذلك. كان وضع بونديس محزنًا مع سخريته المسمومة. أيّها «الأب-القس-اعمل، لا أحد يطارذك».

كان من الضروريّ الثبات وعدم اتخاذ ولو خطوة صغيرة أو نصف خطوة إلى الوراء للمصالحة. القطيعة تعني القطيعة! دعهم يشعرون كيف يكون الأمر عندما يبدأ الشعب الروسيّ في الابتعاد عنهم.

كان من المفترض أن تكون محاضرة الأب فاسيلي التالية بعد يومين من الصدام مع مارتن بونديس في المجلس، لكنّه لم يذهب إلى المحاضرة، ولم يفكر في تقديم الاعتذار لأيّ أحد. نظر إلى ساعته، كان الطلاب قد اجتمعوا، انتظروه، وعندما اعتقدوا أنّه تأخر، ذهبوا لاستطلاع الأمر. سرعان ما رنّ جرس الهاتف في ممرّ الشقّة المشتركة، اقترب الأب فاسيلي من غير عجلة، كان المتصل إيفانيخين.

- أيها الأب فاسيلي! ربما حدث سوء فهم؟ لا مانع لدينا من أن تواصل عملك معنا.
 - على ما يبدو، أنكم لم تستوعبوا موقفني، أنا لست مهتمًا بمزيد من التعاون معكم.
 - انتظر رجاءً، لا يمكنك القيام بذلك فجأةً «من الباب إلى الطاقة»! تحمّل المسؤولية على الأقل أسبوعًا، أو أسبوعين. لا يمكننا العثور على محاضر جديد بسرعة.
 - أنا آسف، لا يمكنني مساعدتكم في أي شيء.
- وبلا تعجل، وضع السماعه، دون أن يسمع ماذا كانوا يقرّرون هناك. لقد عاد إلى نفسه كذلك، من دون عجلة، شادًا كتفيه على استقامتهما، وواضعًا يديه وراء ظهره. هكذا، هذا يسمى وضع النقاط آخر السطر. رنّ الهاتف مرة أخرى، لكنّه لم يرفع السماعه. إن كنت تعتقد أن كلّ شيء في روسيا يباع ويشترى، فأنت مخطئ. لكنّه سرعان ما وبّخ نفسه بسبب المتعة التي تلقّاها من تصرفه ذلك. فهذا يحدث عند النساء السخيفات والرجال الذين يشبهونهنّ. إنّ الرجل الجادّ لا بدّ من أن يشعر بالخزي إن فكّر في أن يحصل على السعادة بسبب تصرف مثل هذا.
- كان منخرطًا في أمر جادّ، الأمر الذي انشغل به منذ الصباح وهو قراءة مؤلّفًا هنديًا، إضافة إلى أنه كان مشغولًا بالأفكار التي كانت تضغط عليه، حول كيفة إخراج روسيا من براثن القراد، التي سقطت فيها.

دفعه ذلك الموضوع كما دفعته تلك الأفكار للنهوض من خلف المكتب،
والتمشي في أنحاء الغرفة، كان يدور مثل دوامة مائية. وبحلول المساء كان منتعشا
للغاية، لدرجة أنه شعر بالفعل أن دماغه قد حفر بمجرفة ساخنة. ولم يتمكن من
النوم فترة طويلة. ورأى في المنام أن مخلوقين مضيين، يشبهان الملائكة، اقتربا
منه من كلا الجانبين، أمسكاه من ذراعيه وراحا يرفعانه إلى الأعلى. كان نورهما
يغشي الأبصار، ولكن الأب فاسيلي، على سبيل المثال، لم يخف أن يتعرض
للحروق، لكن رغبته في النظر إلى وجهيهما كانت تعذبه، واستدار بالفعل نحو
اليمين، عندما صعقه فجأة صوت مدوّ:

- أنت ستوحّد أوراسيا!

ربّما أتى الصوت من الأعلى، وربّما بشكل عام من كلّ الجهات. بدأت
العمّة التي كانا يحلّقان فيها تتبدّد، ورأى حشودًا، مثل حشود السوق، وقد رأوه
من في الحشود، وأشاروا إليه في الأعلى بأصابعهم. وزعق صوت صبيانيّ
لشخص ما:

- ديكتاتور أوراسيا!

ثم هتفت الحشود بصوت واحد. لم تكن الساحة ساحة سوق، بل استادًا
ضخمًا، هو نفسه الذي حلّق فوقه. ازداد ضجيج الأصوات حرارةً، وكان الناس
يرتدون ملابس شرقية فضفاضة. لكنّه سمع صوتًا روسيًا، كما لو كان يستعجل
شخصًا ما:

- ديكتاتور أوراسيا، ديكتاتور أوراسيا!

ومع ذلك، رفعت الملائكة الأب فاسيلي عاليًا لدرجة أن الناس أسفله كانوا محاطين بالضباب. حجاب من الغيوم يحيط به، لكن نور الملائكة اخترقه بأعجوبة، ولم يُبق أيّ ظلال تقريبًا. أراد الأب فاسيلي مرة أخرى أن ينظر إلى من كان إلى اليمين، لكن خوفًا لا يطاق سحقه سحقًا. لقد أدرك فجأة أنه هناك - في الأعلى، حيث كانوا يصعدون - سوف يقف أمام الله!

كان أمامهم جدار ما يشبه الربوة، أو سلسلة من السحب، صعدوا نحو قمته. وهناك، في الأعلى، انحنى الجدار، واستدار حول نفسه، وخلف تلك الربوة كان ينتظره شيء مرعب يصعب تصوره. في هذه الأثناء، بدا أن الطيران للأعلى أسهل، كما يحدث عندما تزيد السيارة من قوة اندفاعها، وأطلق الملائكة الأب فاسيلي، وابتعدوا مبهرين، وأصبح خوفه مستحيلًا تمامًا.

لقد انتهت الربوة بالفعل، خيم الظلام على كل مكان، وامتألت السماء بالنجوم، وأدرك الأب فاسيلي أن الله لم يكن فقط في أيّ مكان قريب، لكنه ليس موجودًا على الإطلاق، ليس موجودًا في أيّ مكان في الكون! كان هذا الآن مؤكدًا تمامًا بالنسبة إليه، وكان الخوف يمزقه بالفعل، لأنه شعر أنه بدأ يسقط، وأنه يسقط بشكل متسارع، ولا أحد يستطيع انتشاله، على الرغم من أنه كان يعرف كيفية إيقاف هذا السقوط: أن يعلن نفسه الله! كان عليه أن يفكر في ذلك، حتى تباطأ السقوط، وظلّ يشكّ، وطار مرة إلى الأسفل.

ثم رفع يديه على الجانبين وإلى الأعلى، توقف الهبوط، كما لو أن مصعدًا كهربائيًا توقف بسلاسة. لكنه شدّ ذراعيه المرفوعتين أكثر، وشعر أن نورًا يصدر منه، ورأى كيف أن هذا النور بعثر الغيوم أمامه. كان هناك أشخاص، حشد مرة

أخرى، غطى الناس فيه وجوههم بأيديهم، واستنداروا مبتعدين، وررع البعض.
وصاح الأب فاسيلي:

- أنا ربك، يا أوراسيا!

وكانت موجات الإيمان تسري منه عبر الشعب، فرع المزيد والمزيد منهم.
لقد كان ميداناً مليئاً بالبشر، وقد حلق فوقه ولم يسقط، لم يخفِ خوفه، بل ازداد
لسبب ما. استيقظ في تلك اللحظة وقد لفّ الظلام المكان. جلس في الفراش لا
يكاد يستطيع التنفس، مشتتاً، ولا يزال صوته يصرخ في المكان: «أنا إلهك يا
أوراسيا!». ولكنه الآن، لم يكن كَلِّي القدرة، ولم يخلق قطّ، وقد قيده رعب
جليديّ وغير إنسانيّ، وقد أدرك في تلك اللحظة أنّه ليس إلهًا، إنّما رجل عاديّ
ضعيف! وبسرعة، أنزل رجليه عن الأريكة، كما لو أنّ شيئاً لا يمكن إصلاحه قد
حدث، وارتدى النعال. كان رأسه يشتغل بوضوح، لكنّ الإحساس كان يشبه
المصيبة القاتلة التي لم تصبه بعد في الحياة. إنّ إصدار المحكمة أشدّ العقوبات،
وتشخيص الأطباء بوجود مرض عضال، أمر يعدّ شيئاً ذا معنى. ربّما كان الأمر
أسوأ، فإذا ما أدانك الآخرون تبقى هناك فرصة أن يخطئوا في حكمهم، لكنّ
الخطأ هنا مستبعد، لأنّ ما أدانه في الحلم إرادته الذاتية. فمن أجل أن يعلن نفسه
الله ويدافع عن هذا الاعتقاد، سيضحّي بحياته. نعم، كان عليه أن يفعل ذلك!
على الرغم من أنّ الإعلان عن نفسه أنّه إله يعني التخلّص من جميع أساليب
الدفاع عن النفس، وأن يصبح لا مجرد شخص انتحاري، بل هدفاً حيّاً، يسعى
إلى الهزيمة بوعي. هذه هي الطريقة الوحيدة لإثبات شيء ما: أن تكون جاهزاً
لأيّ مخاطرة حتّى لو كانت صغيرة. كلّ هذا، أدركه الأب فاسيلي على الفور.

تناول روب الحمام، ارتداه، وخرج إلى الممر. لقد قاده ذلك الشعور الغامض للمستأجر في المنزل المشترك إلى هذه المساحة العامة المتنازع عليها، بمعنى ما. ترى، هل سمعه الجيران؟ فقد كان يصرخ، على ما يبدو. أضاء النور في المطبخ وجلس على كرسي يصدر صريراً. كان الهدوء يسود المكان. فُكر: «هذا هو الموضوع، لقد عشت راضياً عن نفسك، لأنك عرفت أنه لا يوجد شيء لن تجرؤ عليه. تأسيس شركة وكسب المليارات، والارتقاء إلى رتبة الأسقف، ورئيس الأساقفة، ورئيس البلدية. أيّ قدرات على الرجل الحقيقي أن يمتلكها؟ إخضاع أيّ امرأة، الذهاب إلى الحرب والموت مع الجميع، وإذا لزم الأمر، الموت بمفرده، أو الاشتباك مع نذل في السلم».

كنت تعلم أنك مستعد لهذا كله، وبالتالي كنت تحترم نفسك. ولكن هل لديك الشجاعة لأن تعلن نفسك إله؟ وهذا يعني أن تتحول من شخص محترم، كما هم الكهنة، إلى شخص يهابه الجميع، أو يحتقرونه. إنهم يحبون بخوف، مثل التابعين، أو يحذرون بنفور، مثل البقية. قد لا تجرؤ على القيام بذلك، ولن يعرف أحد، لكنك ستعرف دائماً أنك جئت. ومع ذلك، فقد شعر الأب فاسيلي بالفعل، وأدرك أن إرادته ستجعله يتخذ قراراً بشأن هذا الأمر، وكما هو الحال في جميع الحالات الأخرى، سواء في السابق أو مستقبلاً، فقد جعلته إرادته يختار الأمر الأصعب. وعلى الرغم من أن طبيعته كلها كانت تصرخ ضدّ هذا، فقد فهم أنه ليس لديه خيار آخر. نهض، وأطفأ النور في المطبخ، وعاد إلى غرفته. أعلن المنبه أن الساعة الثالثة. عندما قام بإغلاق الباب من الداخل، ومضت فكرة مريحة: إن روحه لا تزال حيّة بمجرد إلقاءها له مثل هذا الأمر. والحقيقة أن الأمر

بدا مخيفاً للغاية، يعني فقط أنه يمكن استخلاص فائدة كبيرة منه. لكن هذه الفكرة انزلت واختفت. لقد كان بالفعل في مكان بعيد جداً عن أفكار مثل هذه. كان ما يشعر به فظيماً جداً للدرجة أنه يمكن الموازنة بينه وبين لغم مضادّ للدبابات، وبالقسوة المتجسّدة المصهورة من حديد السكك التي ظهرت فجأة في أحشائه تفجّر لها وتمزّقها.

ما يحدث لنا يبدو أنه الشيء الرئيسي ليس فقط لأنفسنا، ولكن للبشريّة جمعاء والعالم بأسره. ولا شيء يمكن أن يقنع الأب فاسيلي الآن أنه لم يتغير شيء في الكون. كلّ شيء قد تغير. ومن أجل العودة إلى شيء مألوف على الأقلّ، إنّه الآن إله! فقد اندسّ في فراشه، بعد أن تناول مجلّة سميكة عن المنضدة، فيها مقال لم يكمل قراءته عن الطوائف والعبادات. كانت يدها ترتجفان، والقراءة لم تحجب عنه الهاوية المفتوحة. كتبت الصحفية كاتبة المقال عن «مركز والده الرب» وعن فيساريون بالنبرة الساخرة ذاتها، التي يعبر بها المثقفون عمّا يخشونه بشدّة. سأل الأب فاسيلي فيساريون في ذهنه: «ما بك، يا عزيزي، هل سافرت بعيداً إلى مينوسينسك؟ ترى إن كان لا بدّ من بدء هذا، فليكن في موسكو. أم تركت هذا لي؟». أطفأ النور. امتدّ الطريق أمامه مملاً، كريهاً، كالموت. كان لا بدّ من إنشاء طائفته الخاصة، وإشراك المراهقين فيها، هذه الأرواح النقيّة جداً، وتدمير العائلة، وأن يصبح واحداً من أولئك الذين يكرههم الناس، والذين تكتب عنهم مقالات مثل هذه. ولكن في البداية، كان من الضروريّ فقط تحمّل كلّ هذا، وليس الجنون.

-6-

في صباح اليوم التالي، بعد لقائه مع بونديس، استيقظ نيكولايف على صوت المنبه. ضغط زر المنبه، وعلى الفور انتقل من عند الطاولة التي كان عليها المنبه إلى النافذة: هل السيارة في مكانها؟ نعم، كانت سيارة الـ«فورد» من إنتاج العام الأخير تقف تحت النافذة، بلونها الفضيّ المسودّ الذي يشبه شروق هذا اليوم الأيلوليّ المملّ. لا يمكنك أن تفعل شيئاً عند الغسق، لكن، يبدو أن السماء لم تكن تمطر.

ذهب نيكولايف إلى الحمام بشعور نادراً ما كان يحدث عنده بعد الطلاق: كان هناك شيء جديد ومثير للاهتمام ينتظره اليوم. قبل عامين من طلاقه، استقرّ في هذه الشقّة المكوّنة من غرفة واحدة في شارع شيرباكوفسكي. قبل ذلك، عاش مع زوجته في الولايات المتّحدة مدة عام ونصف العام، ثمّ تنقّلا بين ذلك البلد وهذا البلد فترة مشابهة. أخيراً، قررت -هي وابنها- الذهاب إلى هناك، أو بالأحرى أن تبقى هناك، أمّا نيكولايف فقد عاد إلى موسكو.

منذ ذلك الحين، أصبحت الحياة كابوساً، ولسبب ما، فإنّه لم يكن في عجلة من أمره لإصلاح حياته، على الرغم من أنّه يعلم أنّه إذا ما تزوّج مرة أخرى، فستكون الحياة أسهل. أمّا هي فقد تزوجت بالفعل من رجل أميركيّ.

لنفترض، أن الزواج مرة ثانية بالنسبة إليها كان ضرورة خارجية إلى حد ما، وإلا فإنها لم تستطع البقاء هناك. لكنّه ربّما كان حاجة داخلية أيضًا، تمامًا كما كان لديه.

بعد الطلاق مباشرة، تعامل مع كلّ امرأة عاشت معه كزوجة. حتّى عندما لم يكن لديه أحد، كان يلتقط أنفاسه فجأة، إذ كان، في الحقيقة، يجهّد بإفراط، كما لو كان يجرّ عربة محمّلة بعائلة غير موجودة. الإحساس بوجود النير على رقبتّه لم يتلاش إلّا تدريجيًّا. في البداية، برر نيكولايف طول فترة عزوفه عن الزواج بأنّه لا يريد التسرّع، ولا بدّ من التفكير، ولأنّه لا يجوز تكرار خطأ الزواج، كونه انتهى مرة بالطلاق. والآن أصبحت قناعات العازب العاديّ أقوى، فالحياة دون زوجة، كما يقولون، أبسط وأسهل.

ولكن بشكل عام، وصل في حياته إلى حقيقة أنّه، على ما يبدو، كان من الضروريّ التوقّف عن التفكير فيها (الحياة). في حين كانت قد تسلّلت إلى رأسه فكرة مرعبة جدًّا. وسأل نفسه: ما هو الشيء الأنسب، أن تعمل وتشرب الخمر وتتزوّج؟ أو أن لا تتزوج، على أن لا تحاول الانشغال بالتفكير في كل هذا كثيرًا؟ على الرغم من أن ذلك كان مستحيلًا تقريبًا في عمله الحاليّ المتعلّق بالدين، بمعنى المتعلّق بمعنى الحياة بالتحديد.

بالمناسبة، كان اليوم موعد لقائه في الساعة السادسة مساء مع فتاة تدعى تانيا. ربّما هذا هو السبب الذي جعله يشعر بالحيويّة، وربّما لسبب آخر، فاليوم، أخيرًا، سيتعامل مع شؤون موراتالي. هناك شيء ملهم: الصاحب القديم والدين الجديد غير المعروف، الإسلام. بعد الإفطار، جلس

نيكولايف إلى مكتبه مع الأوراق. كان يريد - خلال الوقت المتبقي قبل العمل - أن يستوعب شيئاً ما بذهن صاف. حتى سنة 1992، حينما سافر إلى الولايات المتحدة، عمل نيكولايف مراسلاً لصحيفة «كومسمولسكايا برافدا»، وكتب كثيراً عن حرية الضمير، عن المسيحيين في الغرب والدعاة والمبشرين. كتب بدافع عمل الخير، وقدّروا له ذلك: ساعدوه في الحصول على وظيفة في إحدى الجامعات الأميركية لإلقاء محاضرات حول الشفافية (الغلاسنوست). عمل مدة ثلاثة فصول دراسية، ثم رأى أن لا أحد يحتاج إليه بشكل خاص هناك. كان هناك في روسيا عدد من المحاضرين الأجلاء أكثر ممّا هو عليه، والأهم من ذلك، كان من الضروري أن يبذل بعض الجهد لتثبيت نفسه هناك. كان من الضروري أن تُثبت أنك تُعدّ إمكانية البقاء في الولايات المتحدة عمل خير جيداً، لكنّه فضّل العودة إلى موسكو. خلال الفترة التي قضاها في الولايات المتحدة وما حولها، استطاع أن يوفرّ بعض المال، ولكن توقّفت مهنة الصحفي القادم من موسكو. فكّر في أن يرأس مجلة جديدة للعلوم السياسيّة كان قد ساعد في نشأتها، لكنّ منصب رئيس التحرير أصبح مشغولاً تماماً، بالرغم من أن نيكولايف ظلّ في هيئة التحرير، حتّى ظهرت له هذه الوظيفة في حكومة موسكو، التي كانت ترى الأشياء الأخرى الكثيرة، بطريقة مختلفة للغاية. تارةً كان يرى في ذلك نهاية وقبراً لكل ما كان يحلّم به، وتارةً، على العكس من ذلك، كان يرى في ذلك وظيفة حكوميّة رصينة.

حان الوقت للذهاب إلى العمل. كان المطر لا يزال يتساقط، ولكنّ السفر في سيارّة مثل هذه، في أيّ حالة من أحوال الطقس، حكاية. تُعدّ موسكو والطريق الدائريّ جميلين بشكل خاصّ في مثل هذه الأيام، على الرغم من أنّ نيكولايف لم يكن يرى بشكل واضح من خلف الزجاج المغطى بقطرات المطر، التي كانت تبدو مثل فضة سائلة. كانت البنايات تنعكس على الأسطح المبلّلة الملساء وتبدو أعلى ممّا هي عليه. وكان الشارع مع أوراق الأشجار المتساقطة الملتصقة به يعكس الضوء، كما تعكسه الأشجار المبلّلة المحيطة به. في مبنى «مجلس التعاون الاقتصاديّ» السابق ثلاثي الأجنحة على شكل كتاب مفتوح، حيث كان يعمل نيكولايف، كنت دائماً تشتتم رائحة الملابس المبلّلة في المصعد، وكانوا يفتحون المظلات ويتركونها لتجفّ في المكاتب. من نافذة مكتبه الخاصّ، رأى نيكولايف كتف البيت الأبيض (مبنى البرلمان. المترجم)، وهو اليوم يبدو رماديّاً من المطر. انتظر حتّى جاءت إزفوتشيكوفا إلى العمل وذهب إليها، وكان يفصله عنها بابان إلى الجانب نفسه من الممرّ.

- ناديا•، ما الحديث الذي جرى بينك وبين موراتالي رحيموف؟
- رحيموف؟ هل هو المُلّا؟ لقد أراد تسجيل منظّمة دينيّة، لكن ليس لديه ما يكفي من الأعضاء.

أوضح نيكولايف:

• اسم إزفوتشيكوفا، والأخير كنيّتها.

- إنه عازم على فتح مركز إسلامي هنا، لماذا لا يسجل على سبيل البداية صندوقًا خيريًا إسلاميًا؟
قالت إزفوتشيكوفا غاضبة وهي تقلّب بعصبية الأوراق الموجودة في الملف:

- دعه يسجل ما يريد، لقد أجبته بشكل محدّد على سؤال محدّد.
كانت ترتدي زيًّا بلون التوت البري، لم يره نيكولايف من قبل، وكان قد أشاد به في البداية. ولديها مزاج عاديّ، مزاج الحثالة، لذلك لم يكن المتديّتون أو زملاؤها حتّى، يحبّونها. لم تتزوّج إزفوتشيكوفا أبدًا، والآن، يبدو أنّ القطار قد فاتها. لكنّ نيكولايف لم يكن يغضب منها بأيّ حال من الأحوال، لأنّه رأى فيها بوضوح الفتاة الساذجة التي بقيت فيها منذ أن كانت في الكشفة حتّى الآن. ختم قائلاً: «لذلك أنصحك بهذه الطريقة. إنّهُ صديق، وأنا متأكّد أنّك لن تواجهي مشاكل معه».

في طريق العودة إلى مكتبه، كالعادة كان يحيي كلّ من يجده في الممرّ. بدا له أكثر وأكثر أنّ البدلة ذات اللون الكحليّ التي ارتداها اليوم كانت مهيبة للغاية للقاء المتعة التي كانت تنتظره مع تانيا. ترى، إلى أين يذهبان؟ هل يذهبان إلى أحد المقاهي، ثمّ إلى السينما؟ أو ربّما العكس؟ عندما ارتدى هذه البدلة في الصباح، كان يأمل بشكل غامض أن تثير إعجاب تانيا بئمنها المرتفع، وبالتالي سيكون عليه أن يدفع أقلّ. لكنّها ليست حمقاء حتّى تثير ملابس الرجال إعجابها. وعلى العكس من ذلك، سيكون عليه أن يضاهي تكاليف هذا الزيّ عند الدفع. تداعت فوق رأسه أفكار ثقيلة، وتساءل، هل

من الضروريّ أن يحدث هذا اللقاء؟ تراها لم تخلّصه من مشكلته الرئيسيّة، مشكلة الاعتماد دائماً على امرأة. طرد هذه الأفكار من رأسه واتصل بموراتالي، وعرض عليه أن يأتي إليه في أوستوجينكو في الساعة الرابعة، فوافق. لقد ألقى صنّارته على نيكولايف واصطاده، من خلال ضحكة غريبة في صوته. ربّما كان من الضروريّ سحبه إلى هنا، لماذا تذهب بنفسك؟ ولكنّ الأمر لا يبدو مناسباً إلى حدّ ما، ويبدو موقفاً عدائياً. ومرة أخرى، كان هناك شعور بالخطأ، فقد وصلت هذه المشاعر، التي ظهرت خلال النهار، وأصبحت كثيفة عند المساء لدرجة أنّه لا يمكن كسرها إلّا بالشرب، الذي غرق فيه نيكولايف عميقاً. كانت الحقيقة تكمن في أنّه كان يشعر بالتعاسة لدرجة كبيرة، بالدرجة نفسها التي كانت فيها ناديا إزفوتشيكوفا على حافة انفجار داخليّ، مثل أيّ مختلّ عقليّاً في المستشفى.

في كثير من الأحيان، كان ينفجر وهو في حالة من السكر ويحلّق متجاوزاً كلّ الحدود في تلك الظلمة التي يصعب الحديث عنها. ومع مرور السنين، أصبحت هذه الصورة من الاضطرابات المتكرّرة أكثر صعوبة، وكانت تعطيه شعوراً باليأس. لذا - في الساعات الصعبة - كان مستعدّاً تماماً ليعتقد أنّ حالته الذهنيّة وُصفت ببعض الصيغ النفسيّة البسيطة، وبالتالي الأكثر مهانة، مثل الذهان الهوسيّ المكتّبيّ، أو أنّه مدمن على الكحول، لكنّ الأمر أسوأ من هذا التبسيط الواضح، فالتعاريف التي اجترحت كانت إدراكاً بسيطاً أنّ السنين تمضي، وأنّه إذا ما كان قادراً على القيام بأشياء عظيمة قبل بضع سنوات، فلا يزال قادراً على فعل شيء ما، بشرط أن يغيّر حياته بشكل

حادّ، فإنّه بعد عام أو عامين من هذا الجنون، لن يكون قادرًا على القيام بأيّ شيء.

يصعب القول ما إذا كان هذا العمل قد دفعه نحو الهاوية أو، على العكس، دعمه صعودًا إلى الأعلى. لم يكن مضطرًا إلى الالتزام الصارم بوقت العمل الرسميّ، ولا حتّى إلى الالتزام بجرات الكحول الأسبوعيّة التي تُقدّم للذين يتعافون من الإدمان على الكحول، بل كان في إمكانه توضيح ذلك بأنّه كان في رحلة عمل مهمة جدًّا لدراسة المنظّمة التبشيريّة البروتستنتيّة في موطنها. لم تكن المشروعات الكبيرة فقط قيد التشغيل بالفعل، ولم يتوقّف العمل فقط، ولكنّه تحرّك، وتلخّص في جوهره في أنّه غزو روحيّ جيد من قبل الأديان الغربيّة-الكاثوليكيّة والبروتستنتيّة لـ«روسيا». وتبيّن أنّ نيكولايف ساعد في هذا المشروع باغتصاب المؤسّسة، وبأن أصبح أحد أفراد هذه الفئة من ذوي الأجور المرتفعة، الشباب في معظمهم. كانوا متواطئين بالفعل مع ما كان يجري مع البلد، بانتشاء لذيذ، كما يحدث في ممارسات الجنس الجماعيّ، عندما يجدون، بشكل جماعيّ، ضحية واحدة، ربّما توافق على أن تكون الضحيّة.

طرقُ على الباب قطع سيل الأفكار. في البداية، اندفع إلى المكتب رجل أشيب الشعر واللحية ذو كرّش مندفع كأنّه مقدّمة سفينة، في ثياب مجهزة جيّدًا، ومن ورائه شابّ شعره طويل: سامويلوف، المدير، وميرونوف، رئيس تحرير دار النشر الدينية «بروسكورين أند كومباني». أسّس دار النشر رجل الأعمال بروسكورين، الذي يعدّ نفسه في مقام منظر روسيا

المستقبلية، أصدرت الدار في البداية الأدب الشرقي والهندي بشكل أساسي، بالإضافة إلى الكتب الباطنية مثل كتب بلافاتسكايا وأوسينسكي. في الآونة الأخيرة، تحوّل بروسكورين بالكامل إلى الأعمال المصرفية، ونقل إدارة دار النشر إلى هذا المدير الجديد. وكانت الدار على استعداد لطباعة أنواع الأدب الروحي كافة، حتّى المسيحي الغربي، الذي أتوا للتحدث مع نيكولايف حوله.

هزّ نيكولايف نفسه. حدّد موعد الزيارة مسبقاً، وربّما كانت الزيارة مهمة. العمل الذي كان نيكولايف يعرفه بشكل عام، راح المدير الآن يشرحه بالتفصيل. كان صوته حادّاً آمراً، ولم تكن عيناه المحمّرتان تريدان، بأيّ حال من الأحوال، أن تميلًا جانباً. كانت دار النشر تستعد لطباعة العمل الإصلاحيّ «مذاهب موسكو»، وعُرض على نيكولايف أن يشارك في تأليف مشترك في الجزء الخاص بـ«المسيحية الغربية»، مقابل أجر جيد. في مقابل ذلك، طُلب منه أن يساعد في جذب المنظّمات المسيحية الغربية التي تريد طباعة الكتب في موسكو للذهاب إلى دار النشر. في الواقع، لم تعجب الصفقة المقترحة نيكولايف. ومع ذلك، لا يمكن لأحد أن يسلبه حقه في تأليف أيّ كتاب، والحصول على أجر مقابل ذلك (بغض النظر عن فضائح الكتب التي كانت تندلع من وقت إلى آخر في موسكو). في النهاية وافق على العرض. إذا أرادت دار «بروسكورين أند كومباني» الحصول على شيء في المقابل، فكان يكفيهم موافقة حكومة موسكو على إصدار كتابهما. وقد عدّ

طلبهم دعوة الراغبين في النشر لإرسال أعمالهم إلى دار النشر الخاصة بهم، طلباً فوق العاديّ.

قال نيكولايف، ربما ببعض القسوة:

- ليكن واضحاً أنّي لن أرشح دار نشركم، بأيّ حال من الأحوال، لأيّ أحد. آمل أن يكون ذلك مفهوماً بالنسبة إليكم، لا يمكنني استخدام موقعي الرسميّ في مصلحة أيّ أحد، وخاصة في مصلحتكم. نظر صامويلوف جانباً بملل:

- نحن نفهم.

تابع نيكولايف:

- شيء آخر، عندما يخرج الكتاب. هنا يمكنني تقديمه للمبشرين الغربيين الذين يصلون إلى موسكو للتدريب. إضافة إلى أن الكتاب نفسه، عندما يكون مطبوعاً بشكل جيد، سيكون إعلاناً خاصاً بكم. أكّد رئيس التحرير - الشاب ميرونوف - بمرح، وقد كان صامويلوف ينظر إليه بسخط:

- هذا يناسبنا تماماً، سيّد نيكولايف.

- ولكن في نظام تبادل المعلومات الحرّ. (فكر نيكولايف) لا بدّ من تقديم شيء لمساعدتهم. (فتح ملفاً ورقياً وأخرج منه ورقة) لديّ هنا ما يشبه الملخص. ما هي المنظّمات المسيحيّة الغربيّة التي أرسلت ممثليها إلى موسكو خلال الأسبوع الماضي؟ ستّ منظّمات. لاحظوا! فقط هذا العدد في الأسبوع الماضي. (رفع نيكولايف

أصبغه، ثم بدأ يقرأ) منظّمة «باكس كريستي» - الولايات المتحدة الأميركية؛ وفرع المعلومات لأخوية مينونيت - الولايات المتحدة الأميركية؛ ومنظّمة «إلى روسيا مع الحب»، ساكرامنتو - الولايات المتحدة الأميركية، والمنظمة الخمسينيّة؛ «مركز الحوار الدولي» - الدنمارك؛ و«موارد النموّ الروحيّ، المدمجة» - الولايات المتحدة الأميركية؛ وأخيرًا، «أخوات الروح القدس المبشرات»، وهي كاثوليكيّة (لم يعرف من أيّ بلد). نزل هؤلاء في موسكو على مدار الأيام السبعة الماضية. في المجموع، تعمل لدينا أكثر من تسعمئة منظّمة مسيحيّة غربيّة لصالحنا. (أبطأ حتّى يتمكّن من استيعاب الرقم بشكل أفضل) الصغيرة والضعيفة والجبّارة، بما في ذلك الجبّارة جدًّا. يوزّع معظمهم نوعًا من الأدبيّات، أو يطبعونها هنا، أو يجلبونها معهم جاهزة. يناقش بعضهم نشر الكتب في هذا المكتب، رغم أنّ معظمهم يفضّلون مكتب السيّد سليبتشينكو لهذا الموضوع. أكّد ميرونوف:

- المدير «البروتستنتي».

فكّر نيكولايف في أنّ عليه، على أيّ حال، أن لا يصدر التعليمات كثيرًا:

- نعم إنّّه هو، وبماذا تمكّن من نصّحهم؟

كانت دار نشر «البروتستنت» معمدانيّة بحتة في البداية، أمّا حاليًّا فهي تنشر أيّ أدب مسيحيّ غربيّ. عقدت بانتظام اجتماعات بين الطوائف، وكان يحضرها أولئك الذين يعملون بشكل دائم في موسكو من البروتستنت

والوافدين الجدد. كان الهدف مراجعة خطط النشر وإزالة الدبلجة، ولكن، إلى جانب ذلك، كانت دار «البروتستنت» تروج لنفسها، ونتيجة لذلك حصلت على أغلبية طلبات النشر. نمت الشركة بالفعل حتى وصلت إلى حجم دار نشر كبيرة من الحقبة السوفييتية: كان لديها مئة موظف أو نحو ذلك، وشغلت الطابق الأول من مبنى سكني فيه العديد من الغرف. بعد أن حصلت على طلبات ثابتة، أبقت أسعارها منخفضة.

اكتفى نيكولايف بالقول:

- سيكون من الصعب عليكم منافسة «البروتستنت».

راح رئيس التحرير يروج لنفسه:

- لدينا هذه الميزة، لدينا مجلّتان. هم يتاجرون بالأدبيات الروحية فقط، وأحياناً لا يهتمّون بوضع منشوراتهم على رفوف الكتب. نحن لا نأخذ كتباً بروتستنتية في الأساس، لأنّ الكتب يتداولها الناس بشكل ضعيف، لكن إذا ما تعاونت منظّمة ما معنا...

أوقفه صامويلوف وقال ساخراً:

- من المؤكّد أنّ السيد نيكولايف لا يمكنه أن يوصي بنا.

اعترض نيكولايف محتجاً:

- لماذا؟ إنّ أمر المجلّتين مثير للاهتمام، وسوف آخذه بعين الاعتبار.

- هذه الكتب تدخل، إذا جاز التعبير، في الدورة الدموية.

قدّم ميرونوف هذه اللفتة فوراً، كما لو أنّه كان يلّمح إلى شيء ما. وأصبح واضحاً بالنسبة إلى نيكولايف أنّ هذا الرجل أيضاً يبدو مستعداً للمساعدة في التغلغل الغربي في روسيا.

ثمّ ودّعوا بعضهم بعضاً وافترقوا. كان نيكولايف على يقين من أنّ دار «بروسكورين أند كومباني» لن تتمكّن من بناء أيّ تفاعل مع الدعاة البروتستنت. كانت روسيا تحتاج، بدرجة أساسية، إلى مُنفّذين بسطاء، إلّا أنّ الناشر أراد أن يلعب لعبته الخاصة، لكنّ نيكولايف رأى أنّ هؤلاء الناس كانوا مهووسين بالأمل كما كان عندما سافر إلى الولايات المتحدة. لذلك، فإنّ ثنيهم عن ذلك كان غير مجدٍ. دع التجربة نفسها تخبرهم بما يعنيه محاولة التعاون مع الغرب. ولم تكن لديه مصلحة في إخماد حماسهم.

في الساعة الرابعة رنّ نيكولايف الجرس بجانب الباب الأخضر للشقة رقم 41 في أوستوجينكو وفق العنوان. إذن، سوف يرى الآن مركز موراتالي الإسلاميّ. فتح له الباب رجل عجوز ذو مظهر شرقيّ، رغم أنّه لم يكن يرتدي ملابس تقليديّة. أمّا المُلاّ موراتالي رحيموف فقد كان في الممرّ وقد تألّق بعمامة بيضاء كالثلج على رأسه، لكنّ قميصه الأسود، وبذلته الداكنة وبشرته السمراء ألقت جميعها بظلالها على العمامة. كان موراتالي هو ذاته كما عرفه في المعسكر التدريبيّ، لكنّه في الوقت نفسه لم يكن هو نفسه، ولو كان نيكولايف قد قابله فجأة في مكان ما، فربّما لم يعرفه. أبقى موراتالي أيضاً حاجزاً من العزلة إلى حدّ ما، وصافح نيكولايف بصمت بعض الشيء، كما دعاه إلى المكتب بإشارة من يده. شعر نيكولايف ببعض

الخرج المعذّب من هذا، ومن أجل التغلب عليه، حاول التحدث كثيرًا، دون أن يهتمّ عن أيّ شيء يتحدث.

- نعم، موراتالي، جان، كيف الأمور، آها؟ في السابق، كما يقولون، كان المفوضون يأتون للمراقبة في سيارة «الفولغا» السوداء، والآن، كما ترى، في سيارة «الفورد». (وأشار، وهو جالس على أحد الكراسي في المكتب، من خلال النافذة، إلى سيارته التي كانت تقف خلف الأشجار).

جلس موراتالي خلف الطاولة مقابله، كان صامتًا. رفع ذقنه، متأملًا نيكولايف. وقد بدا يترفع عليه أكثر فأكثر من خلال نظراته الصامتة. حاول نيكولايف كسر تلك الحالة من جديد:

- كيفك أنت؟ كيف الأحوال؟ كيف تسير حياتك؟

تنهّد موراتالي وضمّ كتفيه:

- تسير الأمور وفقًا لإرادة الله (سبحانه وتعالى). أنا أستغرب، يا سيرغي، أنك تكيّفت مع هذه الوظيفة، ألا ترى أنّها كانت مثيرة للاشمئزاز؟

واستدار إلى نيكولايف نصف استدارة، واستقام وذراعه إلى جنبه، كما لو كان يتوقّع أن يبدأ نيكولايف بإعلان التوبة. وكان نيكولايف قد لاحظ مرارًا أنّه عندما يتعلّق الأمر بالعصر السوفييتي، فإنّ الجميع يتوقّع منه التوبة بشكل ما. فوافق إلى حدّ ما:

- ربّما كان ذلك سيئاً، لكنّ بعض الأشياء لم تكن سيئة على الإطلاق! دعنا ندخل في الموضوع مباشرة! (وقد وجد وسيلة للخروج من المأزق)، إليك ما أفكّر فيه بخصوص وضعك القانوني. سجّل في الوقت الحاليّ الصندوق الخيريّ الإسلاميّ، أنت في هذه الحالة لا تحتاج إلى أعضاء أو رأس مال، لكنك تحصل على الكثير من الحقوق، بما في ذلك الحق في تلقّي أموالٍ من الخارج معفاة من الضرائب.

فتح موراتالي عينيه على اتساعهما، وأمال رأسه إلى كتفه، وقد ظهر على وجهه امتنان شديد:

- هكذا إذن؟ هذا مثير للاهتمام! من فضلك، أخبرني المزيد عن هذا. ثم راح يستجوب نيكولايف ويكتب كما لو أنّه جاء له بأخبار جيدة جيّداً لدرجة أنّ الشخص الذي أحضرها لم يستطع فهمها، وإذا جاز التعبير، فهو غير قادر على تقييم مدى أهميّة المعلومات التي نقلها.

شعر نيكولايف، من ناحية أخرى، بمزيد من الحزن لأنّه كان يرتكب بالفعل خطأ ما لم يكن مبرّراً على الإطلاق. كان عليه أن يعرف بدايةً، كيف يمكن أن يكون هذا المُلّا مفيداً له. أغلق دفتر الهاتف، وكاد يقدّم تقريباً لـ«موراتالي» أحد أهمّ الأرقام، لكنّه كذّب بأنّه نسيه في المنزل. وراح يضع العقبات، التي زعم أنّه نسيها في البداية، وأنّ كلّ شيء قاله سابقاً، من حيث الجوهر لم يفض إلى شيء على الإطلاق. وضع موراتالي القلم:

- سيرغي، أنت قلت إنّ هذا أمر بسيط، وبالنتيجة....

- أنا لم أقل إنه بسيط، لكنني أعمل مع هياكل جاهزة، وقد مرّت معاملتك، بطريقة ما، بكلّ هذا. كيف حصل هذا؟ أنا حقًا لا أعرف. أنا أعترف بأنني لا أعرف الكثير. إليك هاتف آخر. كليّة موسكو للمحاميين، سجّل.
- أجاب موراتالي متردّدًا:
- لا، شكرًا. في إمكاني الحصول على هذا الرقم. (وحك جبينه) المهمّ، أنت أعطيتني فكرة..
- نعم. إنها فكرة جيدة، ستكون مدينًا لي بهذا.
- رفع موراتالي يده إلى صدره:
- أنا مقدّر لك هذا كثيرًا، يا سيرغي، لكن قل لي: كيف هي أمورك؟
- الآن أصبح موراتالي موضع الاهتمام. بدا أنّه أصبح مستعدًا لمساعدة نيكولايف بكلّ ما يستطيع. تنهّد نيكولايف:
- كيف أحوالي؟ أنا أعيش بمشيئة الله تعالى! (وضحك، شاعرًا أنّه أدار الحديث بطريقة الخاصة). أعمل مع المسيحيين الغربيين. يعتمد مبشروهم هنا بشكل أساسي على وسائل الإعلام، التي أنصحك بها أيضًا. هل تنوي نشر الكتب؟
- بشكل عام، نعم.
- سجّل، إذن، هذا عنوان دار نشر جيدة، إنّها «بروسكورين أند كموباني». بشكل عام، أخبرني، من فضلك، بتفاصيل أكثر قليلًا عمّا تنوي القيام به، إذا ما عرفت ذلك، فيمكنني المساعدة بشكل أفضل.

أفهم، أوما موراتالي برأسه، وتحدث مدة نصف ساعة تقريباً بهمة عالية، لدرجة أن نيكولايف كان ينسى أحياناً أين هو. كانت هناك بعض العبارات العربيّة التي ترجمها المُلّا نفسه. «لماذا قليلاً ما ندرس اللغة العربيّة؟ إنّها واحدة من لغات الأمم المتحدة، كما هو حال اللغة الروسيّة أو الإنجليزيّة!»، ويبدو أن العبارات الروسيّة كانت مشوّهة عن قصد. كان هناك مجال مغناطيسيّ قويّ للغاية يؤثر عليه، ولم يكن نيكولايف قادراً على إيقافه، لأنّه ببساطة كان يسحقه.

والآن، عندما ومضت عينا المُلّا، ذي العمامة البيضاء، الذي لم يفتأ يومئ برأسه، بشكل مهذّب، اهتزّ نيكولايف:

- هذا غباء، أليس كذلك؟ بشكل عام، أنا مهتم جداً بالدين، لكن اليوم، كلّ الأفكار تدور حول المرأة. سأذهب قريباً لمقابلة امرأة.

ارتدّ موراتالي إلى ظهر الكرسي:

- ليست زوجة؟

- لا. لقد انفصلت عن زوجتي، ألم أخبرك؟ هل أنت متزوّج؟ واحدة؟

اثنتين؟

- واحدة، واحدة.

- أرني، من فضلك، مرافق المركز الأخرى. تبدو الغرف واضحة،

كيف نظّمت الأمور.

نهض موراتالي وأخذ نيكولايف إلى الممرّ، من هناك إلى الصالة، حيث راح الأشخاص الذين يجلسون خلف أجهزة الكمبيوتر ينظرون إلى عمامته بكل احترام.

- لقد ضيقوا عليّ، فالمكان هنا ليس للمركز فقط، لكننا اتفقنا مع جوراباييف، بارك الله فيه، خلال أيام...
- لم يخجل نيكولايف من أن يسمعه كلّ من في الصالة، بل على العكس من ذلك، بدا له أنّه من الصواب التفكير بصوت عالٍ في هذه السلطة:
- هل ستقدّم عرضاً تقديمياً هنا؟ النجاح مع الصحافة نصف المعركة. ادعُ المزيد من الصحفيين، وليكتمل القوس، ادعُ القساوسة الأرثوذكس.
- أنا لا أرى ذلك، كيف، يا سيرغي، يمكن ذلك؟
- ما الشيء غير الممكن؟ الأرثوذكس؟ فهناك يوجد دين يوحد الإسلام واليهوديّة.
- إنّها الأحمديّة. هذه تعاليم زائفة.
- ومع ذلك لديها ملايين الأتباع. ربّما كان علينا أن نوجد هجيناً أرثوذكسياً - مسلماً.
- لكنّ موراتالي كان ينقله بالفعل بعيداً داخل الممرّ، إلى غرفة صغيرة تقريباً بحجم مكتبه.
- نصليّ هنا في الوقت الحالي، حتّى تفرغ القاعة. المكان ضيق بالطبع، ولكن...

لكن، ألهمت نيكولايف فكرة حفل افتتاح المركز بشكل متزايد. عادا إلى المكتب، وراح يتحدث عن حفل الافتتاح، ولم يتوقّف، وكان وجه موراتالي يتغيّصن كما لو كان بسبب صدام ما. بعد أن دفع عمامته إلى مؤخرة رأسه، فرك جبهته كما لو أنّه لا يريد أن يسمع ما يمهد له سيرغي. وشعر نيكولايف أنّ كلماته كانت تمرّ من أذني موراتالي، وكان ذلك الشعور سيئاً، لأنّه إذا لم تعلق كلماته الآن في أذن موراتالي، فسيكون الأمر أكثر صعوبة في المرّة القادمة. ولعن نفسه لأنّه جاء دون أن يكون مستعداً، ودون خطّة. وكان موراتالي -وهو يرافقه حتّى الباب- لا يزال يحدّق بألم، تماماً كما لو كان رأسه يتألّم حقاً.

وواصل نيكولايف في السيارة لوم نفسه، في مخاضات ساعة الذروة. «تري، كان ذلك ضرورياً، أليس كذلك؟». في الواقع، لقد أهدر اللقاء، ولم يحقق شيئاً. وظلّ طوال اليوم منتشياً بسبب اللقاء المرتقّب مع تانيا، والآن، أيّ موقف سيكون إذا ما حدث خطأ ما هناك أيضاً! ترى كم مرة التقيا؟ كانت بالفعل، ثلاثة، أو أربعة لقاءات، ودون فائدة كبيرة. وصل إلى مدخلها الأماميّ في الوقت المحدّد، وسرعان ما رآها في مرآة السيارة، في معطف مطريّ أسود مفتوح، كان شعرها فاتح اللون جدّاً، بتسريحة عصريّة قصيرة جدّاً، بدت غير مناسبة لها، ولكن كان من الواضح أنّها «تقليعة». أخذت مقبض الباب، بيدها النحيلة، بإيماءة متوتّرة قليلاً، إذ لم تكن تعرف -على ما يبدو- كيف يُفتح بالضبط. جلست أيضاً إلى جانب نيكولايف غير راضية

بعض الشيء بسبب شيء ما، ما أدّى إلى أن يتمدّد البرد على الفور في المسافة بينهما، مستبعدًا الحرّية.

كان لديها جسم طويل ونحيل ووجه ذو ملامح دقيقة، وربّما كان هناك عيوب كثيرة يمكن أن يجدها نيكولايف بسهولة، ولكن كان فيها ذلك المزيج من المظهر الخارجي وأسلوب حياة المرأة الجميلة، الذي، كما هو الحال دائمًا، أقنعه على الفور. ابتسم وهو يحرك السيارة.

- ما بك تبتسم؟

- نعم، كما ترين، لقد عشنا حتّى صار لدينا (وضرب عجلة القيادة)

سيارة كتلك التي تعرض في الإعلانات، وامرأة أيضًا. أقصد، أنت

تبدين رائعة، قصّة شعرك جميلة وجديدة.

قالت وهي تهزّ ذوائب شعرها المتلاشية:

- أحبّ كلّ جديد، سوف أدخن، حسنًا؟

- بالطبع. أتذكرين كيف تعارفنا؟

في الحفل الذي تعارفا فيه، جاءت إليه ومعها سيجارة غير مشتعلة، طالبةً

منه شعلة. صاح بها فجأة: «هل تدخينين، أيتها الفتاة؟». نعم، كان مرعبًا،

لدرجة أنّها خافت للحظة، كما لو كان قد أدانها بالفعل بشيء ما. لقد كان

الخوف الذي ظهر لديها، ما لفت انتباهه إليها في البداية.

اتفقا الآن على أن يذهبا إلى السينما، واختار المرور عبر هذا الحيّ،

الذي لم يكن مألوفًا جدًّا بالنسبة إليه، والتقط نفسه في زلّة، إذ تحدث عن

شيء لا ينبغي أن يتحدث عنه، وقد لاحظت تانيا هذا:

- أنا أرى، أن نتاشا زوجتك هذه، إنها... ولكن نحن، أنا وأنت، لم نتعرّف على بعضنا بصورة جيدة، وأنت تكلمت هكذا عنها، وهذا يعني أنه يمكنك التحدث عني.

- لكنك أخبرتني أيضًا عن فنّانك ذاك. ومع ذلك أنت على حق: لتكن الصراحة أقلّ مستوى في هذه الأمور!

- ومع ذلك، من تكون نتاشا، أيّ شخصيّة هي؟
قال نيكولايف أمرًا:

- توقّفي! ولا كلمة زيادة عني أو عنها، دعينا نتكلّم عنك أنت، كيف حالك؟

بعد صمت مهين، كما بدا، غيّرت وضعيّتها في الكرسي.

- ماذا عني؟ ما زلت لا أستطيع العثور على وظيفة عاديّة. طوال الوقت تفضي الأمور أن أكون مضطّرة إلى النوم مع أحدهم، وأنا لا أريد ذلك. حسنًا، لقد وعدتني بالمساعدة في العمل.
- طبعًا، سأساعدك.

كان يقود السيارة، ويتذكّر أحيانًا كيف يمكنه أن ينظر إلى نفسه من جانب. وكان مسرورًا بقسوة تعابير وجهه الشديدة. بشكل عام، كان ذلك يشبه الصور الإعلانيّة: سيارة فضيّة داكنة تسير على طول الإسفلت المبلّل، يقودها رجل ذو شعر أسود وإلى جانبه فتاة بشعر أشقر لامع.

وكان الحديث في داخل السيارة دعائيًا تمامًا، كما في الإعلانات، مع بعض التعديل على ذلك الميل المرضي، الذي نجد فيه الناس يحشرون

أنفسهم بسلوكهم في ما لا يُعدّ في أيامنا الحاليّة شيئاً بائساً. قال لها: «أتّضح أنّ أخذ المال مقابل شيء ما ليس مخزياً على الإطلاق كما كنّا نظنّ من قبل». لقد اخترعت العديد من الطرق التكتيكيّة. فهي، حيث أعمل، على سبيل المثال، تحدث على هذا النحو.

لقد أحضرها إلى قاعة سينما صغيرة، حيث كانوا يعرضون الأفلام زمن الاتحاد السوفييتيّ في صاليتين: في إحدهما تُعرض أفلام روائية ناقدة إلى حدّ ما، وفي الأخرى أفلام وثائقية علميّة. في الوقت الحاليّ يعرض فيلمان إباحيّان في كلا الصاليتين: فيلم ألمانيّ وآخر إسبانيّ. من بين الفيلمين، اختارت الإسبانيّ، لكن تبين أنّه كان سخافة رهيبة، إلى جانب أنّهما كانا قد شاهدها بالفيديو، وتمكّنا من الانتقال إلى الفيلم الألمانيّ. لقد أراد الخروج من هذا الفيلم أيضاً، إلّا أنّها ضغطت عليه كي يبقى:

- إنّ هذا الفيلم يتحدث عن حالتي!

في الفيلم، اختارت الفتاة بين رجلين، وأدرك نيكولايف أنّ تانيا كانت تقصد الاختيار بينه وبين فنّانها. قال غاضباً:

- عليها أن لا تختار أيّاً منهما، ولتبق معجبة بنفسها.

والمثير للدهشة حدث كما خمّن تقريباً: لم تفضّل فتاة الفيلم أيّاً من الاثنين، وذهبت إلى عرض التعرّي (الستريتيز). لم يلاحظ نيكولايف الدلالة السياسيّة للفيلم الألمانيّ، إذا كانت هناك دلالة، وراح يلعن وهو يغادر:

- هل هذا ضروريّ؟ ألمانيا! بلد الثقافة العالية!

- لكنك قلت إنه سوف ينتهي على هذا النحو.
- لقد قلت ذلك مازحاً، لكنني لم أكن قادراً حتى على التفكير.
- ثم جلسا في مطعم إيطالي. كان لا بد من الذهاب إليه، خاصة أنها وافقت بالفعل. والآن، هل كان كل شيء يدفعه للانفجار؟ لقد كان قريباً من هذا، وقد راحت تسكب كأس النبيذ الأحمر بعصبية خلف قدمها.
- آه لو كنت تعرف ماذا يمور في داخلي في هذه اللحظة!
- أنا أعرف. لكن كلما ساءت الأمور لديك، وكان الوضع أصعب بالنسبة إليك، ستجدين العمل الذي تسعين إليه بشكل أفضل.
- في منزله، طلبت منه إطفاء الأنوار وتشغيل الموسيقى. ولسبب ما، لم يتمكن من العثور على رداء حمام من أجلها في الحمام الخاص به. عندها أخرج رداء حماته المنزلي، الذي بقي عنده عن غير قصد بعد الطلاق. ويبدو أن هذا المخلوق الشاحب المتعب الذي خرج من الحمام في هذا الرداء الأرجواني الداكن يريد شيئاً واحداً فقط: أن يُترك وحده بهدوء. وكان نيكولايف نفسه مرهقاً اليوم من كثرة مشاويره، ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه. بعد ذلك اصطحبها إلى منزلها. وكان هذا كل ما حصل عليه منها، بشكل متقطع، لأكثر من عام.

كانت حياة الأب فاسيلي تتشظى. إن ما استحوز عليه في الرؤيا يتطلب تأسيس الدين الجديد على الفور، الذي سيساعده في توحيد أوراسيا، وبخلاف ذلك، فسيُعدُّ جبانًا، لا يستحقُّ الحياة. أما الشيء الآخر، الذي يسمّى «العقل»، فقد كان يبحث بشكل محموم عن كيفية تحقيق تلك الرؤيا دون السقوط في الهاوية التي تسمى «الطائفة الدينيّة». بمعنى، إنّ الشيء الذي يمكن أن ينشئه القائد القويّ، كما التواضع أيضًا، وهذا هو السبب في أنّه لا يثير اهتمام الناس. مع ذلك، فما كان يعدّبه، هو أنّ الطوائف لا يمكن تجنّبها، على ما يبدو. في المقابل، فإنّ الطائفة حمت مؤسّسها من شيء واحد: «الجنون». في الواقع، فإنّّه من أجل توحيد هذه المجموعة وتماسكها، يلزم بذل جهود هائلة، وفقًا للقانون الذي ينصّ على أنّه كلّما اقترحت نمط تواصل غير اعتياديّ، يكون عليك بذل قوّة أكبر. أمّا الطائفة فهي شكل نادر جدًّا من أشكال التواصل. على النقيض من ذلك، فإنّ الجنون هو هروبٌ من ضغوط الواقع إلى مملكة لذيذة، يفترض أنّك وجدتها وحدك.

كان واضحًا بالنسبة إلى الأب فاسيلي ما يجب عليه القيام به، بشكل عام: الخروج إلى الشارع والمباشرة بالدعوة، مباشرة عند مواقف الحافلات، في الحافلات، وفي مترو الأنفاق، في قاعات الانتظار. لإعلان نفسه إلهاً يتطلّب أن يُطيعوه، ويركعوا له. سوف يتعرّض للضرب، لكن،

ربما سيدافع عنه شخص ما، لا يجوز أن يضيّع هؤلاء المدافعين، وربما يخرج منهم أول التلاميذ. إنّ التلاميذ يُكتبون بهذه الطريقة بالتحديد، مع المخاطرة على الحياة، كما أنّ الحلقات الدراسية أو الاجتماعات لن تكون ذات جدوى في هذا المجال. لكن لا تجوز الدعوة كيفما كان. كان الأب فاسيلي قد استعدّ لهذا العمل بشكل محموم، وكان يكتب. بدأ الكتابة في منطقة فياتكا، وواصل ذلك في موسكو، وقد أصبحت أفكاره -تدريجياً- أكثر يأساً، وصار يرى، بشكل أكثر وضوحاً، أنّ الحداثة تقترب من خطّ الموت. في أميركا، يموت أكثر من ثلاثين ألف شخص في حوادث المرور على الطرقات كلّ عام، الشيء نفسه يحدث في أوروبا الغربيّة. ثلاثون ألف شخص كلّ عام! هذا أكثر من أيّ حرب شاركت فيها الولايات المتحدة، لكن هذه الإحصائيّات لا يُجرى الحديث عنها، لأنّها تلقي بظلالها على صناعة السيارات. وفي البلدان الناطقة باللغة الإنجليزيّة، تُركّب أيضاً الآلاف من جرائم القتل وغيرها من الجرائم الخطيرة، وتُعزى فيها الجرائم للمجانين وأفراد العصابات، في حين يعلن الأيديولوجيون الأنجلو-أميريكيون أنّ عمليّات القتل هذه، التي يرتكبها هؤلاء، أمرٌ لا مفرّ منه، لأنّ ذلك جزء، كما يقولون، من الطبيعة البشريّة. لكن هذه هي الكذبة الرئيسيّة لهذا النظام، فالطبيعة البشريّة ليست ما يصوّرها إيديولوجيوهم! للوهلة الأولى، يتفق كلّ شيء معهم، ويؤكّده عدد لا يحصى من الحقائق. نشأ سميث أو جونز في وفرة، تلقى تعليمه وعمله، لكن، دعنا نقول إنّهُ طُرِد من العمل، وبدلاً من الحصول على وظيفة جديدة، أخذ مسدّساً وأطلق النار

على زملائه السابقين. إنّه فساد الطبيعة البشريّة في أنقى صورها. كما سيُعاقب هذا القاتل ليس بالموت، بل بالسجن. ربّما تكون العقوبة الأخيرة صحيحة. في العقوبة لا يجوز أن تكون متحمّسًا، فالعقوبات لا تزال تحدث بأثر رجعيّ، ولا تمنع حدوث الجرائم. المسألة ليست في العقوبات المتساهلة، ولكنّها في الأطروحات الإجراميّة الخاطئة حول تجانس الجنس البشريّ! ترى، هل يعتقد أيّ شخص حقًا أنّ سميث هذا أو جونز لم يشعر عندما حمل بندقيّته، أنّ المجتمع الأنجلو-أميركيّ يتوقّع منه -ببساطة- هذه الجريمة؟ وأنّ هذا المجتمع في حاجة إليه، وتمسّك به حتّى يعلن مرّة أخرى أنّه لا يمكن الوثوق بالإنسان، فهو غير قابل للإصلاح، ولا يمكن أن تكون هناك سعادة شاملة، ولا خلاص شامل!

شيء بشع يحدث، إذ إن ما يُثبت للجميع فشل هذا المجتمع، من عمليّات القتل اليوميّة المستمرّة، التي تؤدّي إلى عمليّات إعدام جماعيّة، يستخدم من قبل إيديولوجيّ هذا المجتمع لإثبات عدم قابليّة نظامهم للتغيير! كيف ينجحون في ذلك؟ إنّه بمساعدة التفكير المنطقيّ التالي: انظروا، المجرم الذي قتل غير مدفوع من أحد، ممّا يعني أنّ الناس جميعًا في دواخلهم مجرمون محتمّلون، وخاصة جميع أنواع الأيديولوجيين ومؤسّسي الأنظمة الفلسفيّة والأديان و«الأصوليين» و«الطوباويين»، باختصار، كلّ من يجروّ على الاعتقاد أنّ هناك حياة أفضل من المجازر اليوميّة في النظام الليبراليّ. ليست صناعة السيّارات، بأيّ حال، العدوّ الرئيسيّ لـ«الليبراليين»، وليس المجرمون، الذين لا يعيشون على أيّ حال،

بشكل سيئ كذلك، ولكن هم من يُسمّون «الطوباويين»، لأنّه سيكون هناك المزيد من الشرّ والدم بسبب تعاليمهم. متى وأين ثبت ذلك؟ لم يثبت ذلك في أيّ زمان أو مكان. كانت هناك إبادة منظّمة هائلة للناس في القرن العشرين، وتزامنت مع وصول «الطوباويين» إلى السلطة في بعض البلدان، وتزامنت أيضًا مع تحقيق المجتمعات الليبراليّة، لا سيّما في إنجلترا وأميركا، نفوذًا عالميًا. إنّ دور هذين البلدين في تنظيم سفك الدماء في العالم مهمّ للغاية، وتشجيعهما الخفيّ (الصريح في بعض الأحيان) للبلدان المعتدية لا يتشابه مع تواطئهما مع الحوادث المروّية، ولا يشبه ارتباطهما بمجرم مهووس، من دونه لن ينجو مجتمعهم! والوقاحة التي يفرضها النظام الليبراليّ نفسه مذهلة، ولا يخفي أنّه لا قيمة له! قال أحد الليبراليّين الإنجليز: «إنّ نظام إدارتنا سيّئ، لكنّ جميع أنظمتكم أسوأ، والإثبات أنّنا سوف نؤلّب بينكم! يقتل بعضكم بعضًا بالملايين، أيّ دليل آخر تريديون؟ الطريقة الوحيدة لإلغاء هذا النظام في نهاية المطاف، هي توحيد أوراسيا! التوحيد ليس بالقوّة والدم، بل بوساطة الدين الجديد! لا بدّ من تذكير البشريّة بأنّ الخير والحقيقة موجودان، وأنّ هناك قيمًا إيجابيّة، لا توازن الشرّ فقط، الذي يبدو أنّه يُعدّ نهاية آمال الأنجلو-أميركيّين. وتذكيرها بأنّه في النهاية، توجد معجزة ملزمة بتقديم المساعدة، إذا لم يكن هناك شيء آخر يقدمها! ملكوت الخير على الأرض ممكن! هذه هي الحقيقة التي يحاول الليبراليّون انتزاعها وسرقتها بقوّتهم البشريّة كلّها. الحياة ممكنة دون الجريمة، السيارات، الحروب، والفجور والرذيلة، حياة العمل الشاقّ

والعلاقات الأخويّة الطيّبة. إذا لم يؤمن الناس بذلك، فلن يرغبوا في إطالة أمد وجودهم الدنيويّ على الأرض. نعم، كلّ شخص صادق يؤمن به! إنّ ذلك النمط من الأشخاص الذين تصوّرهم أفلام التحقيقات الإنجليزيّة، عندما يكون هناك مجرم قاتل بين أكثر من عشرة أفراد من السيدات والسادة المحترمين الموجودين في مكان واحد. ولا يوجد ذلك إلّا في هذه الأفلام. لكنّ معظم الناس في قارة أوراسيا يؤمنون بشيء آخر: الخير. هذا الإيمان، الذي يختلف بألف طريقة، يمثل جوهر ثقافة روسيا والهند وإيران والصين. إنّهُ يتضمّن جوهر كلّ دين تقريباً، كان قد أشعل الإنسانيّة في عصر من العصور. لكنّ هذا الإيمان الأساسيّ بالخير، بالضبط هو، كما يبدو، بالنسبة إلى الناس، ما تنكره الإيديولوجيّة الليبرالية. إذ إنّ المجتمع المثاليّ لديهم هو المجتمع الذي تتوازن فيه أنواع من السفالات. إذا لم يخجل أيديولوجيو الليبراليّة أنفسهم أن يدّعوا أنّها سيّئة، فكم هي سيّئة في الحقيقة! وكم هي رؤية الحقيقة سهلة! وفهم الأب فاسيلي في أيّ اتّجاه يحتاج إلى التحرك حتّى لا يقتله هذا النظام!

إنّ أيّ مجتمع تقريباً، وأيّ تعاليم تعلن صراحة أنّها تسعى إلى الكمال والمثل الإيجابيّة، تخطو بالفعل خطوة في الاتّجاه الذي يحتاجه الناس. لكنّ اختيار الاتّجاه ليس كلّ شيء.

لقد أعمت الأيديولوجيّة الليبراليّة العالم الحديث. الجدل حولها معقّد للغاية، لأنّها صُمّمت بشكل زلق وماكر بحيث يمكن أن توحى لأنصارها بأفكار متعارضة. الليبراليّون يدعمون الحرّيّة والقانون؛ والتسامح

والأخلاق في وقت واحد، والمصلحة العامة والخاصة، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هم في وعيهم؟ هل يمكن للعقل السليم أن يناصر المتناقضات على قدم المساواة؟ لكن الحقيقة هي أن الإيديولوجي الليبرالي لا يؤمن حقيقةً بأيّ من القيم التي يدافع عنها، فهو يحتفظ في ذهنه بشيء أكثر أهمية من أيّ منها. هذا «الشيء» هو نشر النظام الليبرالي في العالم بأسره، لذلك تراه يشغل هذه القيمة تارة، وأخرى تلك المناقضة لها تمامًا. لا يعقل أن يقود كلّ ذلك إلّا إلى هذا الوضع، إلى توسيع النظام الليبرالي، الذي يتطابق إلى حدّ كبير وشامل مع توسّع الشعوب الناطقة بالإنجليزية. نعم، بغضّ النظر عن مدى صعوبة الأمر، لكنّ الأب فاسيلي كان مضطراً إلى استنتاج أنّ هذا الأمر هو كذلك.

أحد الاتجاهات التي فكر فيها الأب فاسيلي وكتب عنها، هو ما أسماه «ضدّ عبادة الحداثة». في الواقع، إذا أمعنت التفكير، سيبدو هذا الاعتقاد الشائع على نطاق واسع مدهشاً، كأنّ كلّ شيء في الوقت الحالي مختلف عمّا كان عليه في القرون الماضية. ربّما يبدو أنّ أشخاص الماضي يبدوون بالنسبة إلى المتحمّسين للحداثة مثل الحمقى اللطفاء الذين لعبوا، لسبب ما، بامبراطوريّاتهم ودخلوا حروباً عالميّة، بشكل جادّ، كما لو كان في إمكانهم إنجاز شيء حاسم. على الرغم من أنّه من الواضح أنّهم لا يستطيعون فعل أيّ شيء على الإطلاق، وأنّ كلّ الخيوط تتلاقى اليوم، في أيدي رجل اليوم الليبرالي «العقلاني». وكلّ شيء بعد ذلك سوف يتطوّر حصريّاً بإرادة هذا الشخص. تكمن إرادة الليبراليّ جوهريّاً، وبدرجة كبيرة،

في حقيقة أنه لا شيء في حاجة إلى التغيير في عالم الليبرالي، فكل شيء جيد جدًا. لكن الخطأ في هذا الاستنتاج هو، إذا ما كانت أحداث الماضي غير الملحوظة تشكّل نقطة تحوّل، فإنه يصحّ أن نعدّ اليوم الحالي نقطة تحوّل أخرى. إنطلاقًا من ظاهرة النمو السكانيّ السريع، فإنّ البشريّة تنتظر تغييرات جذريّة قريبًا. ولم يكن الأب فاسيلي يشعر بنفسه أنّه يقف عند نهاية الأحداث كلّها، بل على العكس، شعر أنّه في قلبها، وهذا يعني أنّ الطريق لتأسيس حقيقيّ لدين عالميّ جديد لم يُغلق بأيّ حال من الأحوال. ذلك الدين، الذي سيواصل مهمّة الديانات العظيمة الماضية لتحقيق ما لم تحقّقه تلك الديانات: توحيد الإنسانيّة!

أمّا الجزء الآخر ممّا كتبه، فقد أسماه الأب فاسيلي «تبرير المعجزة». هؤلاء الأشخاص الذين يعتقدون أنّه لا ينبغي أن يحدث شيء مزلزل مرّة أخرى، عادةً ما يقولون أيضًا إنهم لا يؤمنون بالمعجزات. ليس في أنّ المعجزات ممكنة اليوم، ولا في أنّها كانت ممكنة في أيّ وقت. لكن بغضّ النظر عمّا يقوله أيّ شخص عن نفسه، فهم في اللاوعي يريدون المعجزات، وهم جميعًا ينتظرون، بمن فيهم أولئك المتشكّكون الذين يدوّنون الملاحظات، والليبراليّون النسبويّون*.

الليبراليّ، ببساطة، يخشى ارتكاب الخطأ، يؤمن بالخيال وأن يصبح أضحوكة الناس. وبالصورة نفسها، يريدون أن يؤمنوا، لكن ليس بصورة

* الذين يؤمنون بمبدأ النسبية [المترجم]

فردية، بل بشكل جماعي. لكن إذا ما آمنت الجماهير بشيء ما، فلا يمكن التراجع عن هذا الأمر، وسيصبح حقيقة تاريخية. إن حقيقة أن البشرية المعاصرة متعطشة أيضاً إلى المعجزة، مثلما كانت في الماضي، ويدل على ذلك العدد الهائل من الفرق التي نشأت في عالم ما بعد الحرب. ولكن أي فرقة من تلك الفرق المنعزلة يمكن أن تقدم ديناً جديداً، تلك الفرق التي تكاد تكون ميتة، وتلك التي تنفجر وتحترق من لحظتها، وتلك التي تتطور وتتحوّل إلى كنائس حقيقية؟ هذا، ربّما، لا أحد يعرفه. هنا، على ما يبدو، توجد حاجة إلى أن تتصادف أعداد كبيرة من الظروف، ما هو الأكثر أهمية منها؟ أهى البصيرة غير الإنسانية، أم إرادة القائد؟ أم قوة هذا الزلزال الذي يهزّ البشرية؟ يجب أن تكون الصدمة الروحية قوية، وربّما يكون هذا هو الشيء الرئيسي المطلوب. وإذا ما التقى ذلك مع شيء ما موجود داخل الطائفة نفسها، فإنّه سيحدث ما يسمّى «المعجزة». وسوف ترى الجماهير الله الحي.

ولكن، إذا ما كان الحاضر لا يختلف عن الماضي، فلماذا إذن كان الأب فاسيلي مقتنعاً بأنّ العالم يُحتَضَر، وأنّه سيموت لا محالة، إذا لم يتصرّف بطريقة اليأس؟ نعم، لأنّ العالم في السابق كان ينقذه فقط ثلّة من المضحين من خلال ما يبذلونه من جهد رهيب، وتضحية بالحياة في معظم الأحيان. دائماً لا يسقط العالم في الهاوية لأنّ شخصاً ما في مكان ما ضحّى بحياته. حتّى اليوم، لا يمكن تأكيد الخير إلّا في العذاب الفظيع، ولن يؤمن أحد، على المدى البعيد، بتحقيق الانتصار، باستثناء الثلة التي سيجمعها الأب

فاسيلي حول دينه الجديد. أمّا الشياطين، الليبراليّون المعاصرون، فلم يعرفوا أبداً النقص لا في الثروة ولا في جيوش الخدم الشّباع الجاهزين لكلّ شيء.

إنّ الدين لا يمكنه أن يدعو إلى أيّ شيء آخر في هذا العالم سوى الموت، بخلاف ذلك فإنّه لن يكون ديناً، وإنّما براغماتيّة دنيويّة متخفّية. أتحالّ لتنقذ لغتك، وأمّتك أو أرضك؟ لقد فهم الأب فاسيلي أنّ جميع أتباعه سيصبحون من عشاق الموت، لذلك إذا ما آمنت روسيا كلّها بالدين الجديد، فإنّ مصيرها سيكون الموت.

إنّ الليبراليّ، بكلّ ليونته الخارجيّة، لا يمزح. كما أنّه يمتلك اليوم أسلحة نوويّة، ولا يمكن لروسيا، التي تبنت الديانة الجديدة، أن تفشل في مقاومة الليبراليّين، وبالتالي، فمن المقدّر لها أن تموت في إعصار نوويّ. من الضروريّ فقط القيام بذلك بطريقة تضمن لها أن ترسل النظام الليبراليّ إلى العدم وتحرّر البشريّة منه. ثمّ، بعد تدمير الليبراليّة، ستنهض روسيا من جديد - ليس في شخصيّتها الروسيّة الحاليّة، بل بلغة أجنبيّة، ولكنّها تحمل النعمة نفسها، كما ورثت روسيا الحاليّة ألوهيّة بيزنطة.

كانت مهمّة عصرنا، حسب رأي الأب فاسيلي، تكثيف الروحانيّة حتّى إذا ما تجاوزت الكتلة النوويّة كثافة معيّنة، تتوهّج فجأة كنجمة تخضع الكون بأسره لها من الآن وإلى الأبد. كان دور الدين الجديد ودور الأب فاسيلي دورين مركزيّين في هذا الإعداد والتحضير.

-8-

في نهاية شهر أيلول، اقترب موعد القسط البنكي، ذهب الأب فاسيلي للحصول على المال غاضباً؛ لأنّه يعرف أنّهم سيكذبون عليه بوقاحة، إمّا أنّ البنك لن يكون في مكانه، أو أيّ شيء آخر. فكم مرّة حدثت حالات مشابهة! ولكنّ تلك أمواله، وقد حصل عليها من منظّمة «المسيحيّة المفتوحة».

في مكان صغير مفصول بمواد رماديّة مستوردة، كانت هناك عاملتان تجلسان خلف الحاجز. قدّمتا له دفعته النقديّة بهدوء، دون نسبة الفائدة تلك التي وعدوه بها، إنما بأقلّ منها. هذا يعني أنّهم منحوه نصف سنة أو حتّى سنة كاملة من الحياة! انخفض التوتر بشكل حادّ لدرجة أنّ الأب فاسيلي دلف إلى أوّل مقهى صغير وتناول مئتي غرام من النبيذ الأحمر المزّ. جلس إلى اليسار عند النافذة، وكان إلى اليمين، عبر الممرّ، رجل وفتاة يجلسان إلى الطاولة يحسبان شيئاً ما بعجلة، على ما يبدو، كانا يعدّان حساباً ما. عند منتصف الكأس، بدا النبيذ مقزّزاً بشكل مفاجئ، رشف الأب فاسيلي آخر رشفة، وخرج تاركاً السائل الأحمر في قاع الكأس. في الشارع كان رذاذ المطر الخفيف والرياح يخزان وجهه، رغم أنّ الصيف ما زال قائماً، وقلّبت الريح أوراق الشجر فبانّت فضّتها الداخليّة. قرّر الأب فاسيلي العودة إلى المنزل مشياً. وربّما سرّع النبيذ الزمن، لكن، فور أن أكمل السير تحوّلت موسكو إلى اللون الأزرق واشتعلت أضواء صفراء ليمونيّة. في كشك على زاوية زقاق بولشوي سير غيفسكي، طلب زجاجة بيرة، فتحها وراح يشربها في المكان

نفسه. هل كان محققاً في ذلك؟ يبدو أنّ النساء اللواتي كنّ يقتربن من الكشاك كنّ يلقين نظرات عدائيّة على هذا الكائن ذي اللحية السوداء مجهول الاسم. بدت سترة النايلون السوداء والقُبعة ذات اللون نفسه لاثقتين للغاية، لكنّ الحقيبة الخرقاء باللونين الأبيض والأسود على ظهره إلى جانب حقيبة بيضاء متسخة منذ مدّة طويلة، شوّهت الرجل البسيط. فور أن شرب زجاجة البيرة اشترى زجاجة أخرى ماركة «كوخ الدير»: أن نحتفل، يعني أن نحتفل! لقد تجوّل بين الأكشاك، واشترى أرخص نقائق وطماطم مخلّلة معلّبة وخبزاً، الطعميّة المفضّلة لديه، خاصة عندما يكون طازجاً. كانت قطرات المطر الشفّافة تتدلى من الأكشاك المشرقة بالأنوار. في المنزل، كان ينير الغرفة مصباح أحمر، وكانت ظلال زرقاء لأوراق الشجر تتراقص على ورق الحائط. أغلق الأب فاسيلي الباب وراح يعدّ النقود ويحصر النفقات كما كان يفعل ذلك دائماً، فقرّر إعادة ثلاثة أرباع الأموال إلى البنك غدًا حتّى تزيد الفائدة، وقرّر أن يعيش بما يتبقّى. لقد شرب زجاجة «كوخ الدير» وقرّر فجأة أن يتصل بشخص ما في هذه اللحظة، ويعلن أنّه كان يؤسّس ديناً جديداً. كان الهاتف لديه ذا سلك طويل، أخذه إلى غرفته. كانت مطارق تدقّ في دماغه، أو آلة لا ترحم تعمل فيه، وهو ما لم يكن عليه الحال قبل معاناته. ربّما لم يكن يشعر أبداً بسوء حاله، لأنّه لم يفتح قلبه قطّ.

لم يكن هناك من أحد يمكن الاتصال به. لقد قُطعت علاقاته بالأصدقاء في منظّمة «المسيحيّة المفتوحة» بشكل سخيف أيضاً. لكن كان من الضروريّ البدء، فهو لم يعلن لأيّ شخص عمّا يفكر فيه حتّى الآن.

اتصل بأستاذ العلوم الفلسفية «نيكيتين»، الذي عرفه طالباً وكاهناً أرثوذكسياً غير عاديّ، وطلب منذ وقت ليس ببعيد إحضاره إلى منظّمة «المسيحية المفتوحة». ها هو يستجيب بشكل عمليّ للغاية:

- أنا أسمعك.

- أردت ببساطة معرفة أحوالك ألكسي غليوفيتش، ماذا تعمل الآن؟

- لا بأس، الأشغال كثيرة، لا يمكنك تذكرها. وأنت؟

قذف الأب فاسيلي الكلام في وجه صديقه الذي التزم الصمت:

- قرّرت تأسيس دين جديد، إذا أردت، يمكننا الحديث حول هذا الموضوع.

سأل نيكيتين:

- وهل هذا مرتبط بـ«المسيحية المفتوحة»؟

- لا.

- لا؟ لقد ظننت، أنّه البروتستنتيّة. فهناك يجوز تأسيس كنائس جديدة؟

وأضاف نيكيتين:

- لكن، أتدري؟ أشعر أنّ الحديث طويل، وليس لديّ الوقت في حقيقة

الأمر. اتصل بي، أعرف متى؟

قاطع الأب فاسيلي:

- لا، ليس هذا ما يقلقني، بكلّ بساطة، لقد طفح بي الكيل، وها أنا

أفضض لكم: بالأمس رأيت في شاشة التلفاز اجتماعاً دورياً حول

مسألة حيويّة، ثلّة من الرجال يرتدون جاكيتات وربطات عنق. وفجأة

أدركت أنه لن يصل هؤلاء الأشخاص ذوي الربطات أبداً إلى أي نتيجة في أي وقت! الحقيقة التي سأقدمها لهم فقط هي ما سيقدّم الحلّ لكل شيء!

أغلق سماعة الهاتف بقوة وراح يذرع الغرفة، وقد بدأت الإثارة. فقد أدرك الأب فاسيلي أن الدوائر سوف تنطلق من عند نيكييتين، وأن هذه ليست مزحة. إنه لأمر مدهش ما كانت عليه ردّة فعله في البداية، إذ ظنّ، بل ألمح إلى فكرة أن الأب فاسيلي قد فقد عقله.

ولكن عند الاتصال بالرقم التالي، أدرك الأب فاسيلي -فجأة- أن الدوائر لن تنطلق من عند نيكييتين وحسب، بل إنه لن يخبر أحداً عن المحادثة التي جرت بينهما: إن فكرة الدين الجديد لن تدخل رأس أستاذ العلوم. الشخص التالي الذي اتصل به كان كورشونوف، وهو شاعر، ناشر وكاتب قويّ الإرادة ومكتفٍ ذاتياً.

بدأ الأب فاسيلي منفتحاً منذ البداية، وتحدّث عن موت روسيا والعالم إن لم تتوحّد أوراسيا. لقد تحدّث بغضب دون أن يسمح للطرف الثاني بقول كلمة، لأنّه تذكّر أن انطباعات غير سارة كانت تبقى بعد كلّ محادثة مع كورشونوف، كما لو كان قد أهانه بشيء ما.

- لقد قرّرت تأسيس دين جديد!

وفجأةً سمع صوتاً. قطع الآخر المحادثة. «هل اعتقد حقاً أنني في حالة سكر شديد؟». بيد مرتجفة راح يطلب الرقم مرّة أخرى.

- لقد تمكّنت من قول الشيء الرئيسي، يا نيكولاي بيتروفيتش. ماذا ترى؟

- أوه، إنني لا أعرف حتّى ما الذي أعتقده في هذا الموضوع. دعنا نتحدّث في هذا لاحقاً، حسناً؟ من دون زعل، حسناً؟

- حسناً. إذا ما أثار شيء لديك الاهتمام، اتصل بي، أنا جاهز للإجابة عن أيّ سؤال.

بعد أن وضع السمّاعة، شرب الأب فاسيلي كوباً آخر من النبيذ. لم يكن لديه كؤوس نبيذ ولا كؤوساً عاديّة. مع الاتصالات الجادّة التي أجراها هذا اليوم، قرّر إنهاء المكالمات، والاتصال بالمرأة التي كانت حبيبة يوماً ما، وهي حالياً من المورمون، وقد سحبت زوجها إلى المورمونيّة.

- دين جديد؟

صمتت ولم تسأل شيئاً أكثر من ذلك. أمّا هو، فقد قام بنفسه بتحويل المحادثة من نبرة مخيفة إلى ثرثرة المحترفين:

- كيف، يا ترى، تأسست كنيسة المورمون؟ وكيف تُؤدّى العبادات، وكيف يدير الأُميريّون الفرع الروسيّ؟

تجاذب أطراف الحديث مدّة أربعين دقيقة، واتفقا على موعد للقاء. قال إنّه سيّتظر مكالمتها.

ثمّ اتصل بسيدة أخرى، ماريانا بافلوفنا، من منظّمة «المسيحيّة المفتوحة». استحسنّت ماريانا الفكرة قائلة:

- أخيراً، يقوم شخص ما بإنشاء شيء خاص به. أمّا عندنا فكلّ شيء مستعار. أنا أدعمك بكلّ وسيلة.

كانت ماريانا تعمل معلّمة تاريخ، وقد درست الصفوف الأولى في منظّمة «المسيحيّة المفتوحة»، وحصلت -حقيقة- على دورة خاصة صغيرة في الجامعة هناك.

شكرها الأب فاسيلي وأضاف:

- ربّما ستكون هناك حاجة إلى الدعم. عندما يكون هناك اجتماع، سيّصلون بك.

ارتدّت فجأة إلى الخلف وقالت:

- لكن أرجوك، لا أريد أن أكون فرداً في قطع، لا أريد أن أستخدم من أجل بعض الأهداف غير المفهومة.

كانت هذه المكالمة غير ضروريّة بالفعل. حمل الأب فاسيلي الهاتف إلى الممرّ، وبعد تناول العشاء استلقى على الأريكة لمشاهدة شاشة تلفازه الصغير بالأبيض والأسود، التلفاز الذي كان يضيء الغرفة بضوء رماديّ. كانت لحيته تعيقه عن المشاهدة، لذلك راح يضغطها على صدره براحة يده. مرّة أخرى، عدد لا يحصى من الناس يرتدون الجاكيتات وربطات العنق ولا يستطيعون عمل شيء ما لم يمنحهم «الإشراق».

ولكن كم سيكون ذلك من الصعب على ذلك الكائن الضعيف، السكران، متدنّي التعليم، الممزّق بألم الروح والذي لم يهدّئه النبيذ، بل عزّزه!

-9-

لقد فهم الأب فاسيلي خطأه في مكالمات الأمس، فهو لم يخبر أحداً عن جوهر الدين الجديد باستثناء كورشونوف. كان فقط يعلن عنه مثل عريف الحفل الذي يقدم فقرات برنامج الحفل، ثم لا يكون هناك فقرات أو حفل! كان من الضروريّ التبشير على الفور، فقد تلقى -أحياناً- تأكيداً من المحاور أنّه يفهم ما تقوله ويؤمن به.

ولكن الأهمّ من ذلك أنّه لم يكن من الضروريّ -بأيّ حال من الأحوال- الإعلان عن أنّك تريد تأسيس دين جديد بالتحديد! هنا سيصدر حكم على الفور: مجنون! على العكس من ذلك، كان من الضروريّ الإبلاغ بشكل روتينيّ قدر الإمكان عن أنّ مجموعة ما كانت ستدرس إمّا الديانات الشرقيّة، أو حركات التأمل، أو الحركات المسيحيّة غير التقليديّة، عندها فقط سيكون في الإمكان النظر في الموضوع.

بعبارة أخرى، أدرك الأب فاسيلي الآن أنّ فكرته الأولى -أي الخروج إلى الشارع وإطلاق كلمة ناريّة- كانت خطأ. وأدرك شيئاً آخر: يجب دعوة أشخاص متنوّعين إلى المجموعة تحت ذرائع متعدّدة. وعندما يتقاربون... من المؤسف أنّه لم يدرك ذلك على الفور. لقد أخاف العديد من الأشخاص المناسبين، لكنّه تمكّن من دعوة صديق قديم، هو الآن نائب عميد معهد آسيا وإفريقيا، إلى منزله. ووعده أيضاً أن يأتي معه مدير مدرسة

اسمه سيرغي فاليريفيتش الذي أطلق حلقة دراسية حول البوذية في مدرسته. ربّما سيطلق سراحهم إذا ما توقّفت غرفته، غرفة الأب فاسيلي، عن استيعابهم؟

لقد حضرت إلى الاجتماع الأوّل الأخت أولغا، التي إمّا أن تكون معمدانية أو أرثوذكسية، امرأة طويلة القامة، غير متّزنة قليلاً، تعمل في مطعم شعبيّ. أحضرت معها رجلاً وصفته بـ«الأخ أوليغ»، وهو وكيل شحن في مصنع، رقيق الجسم، قويّ الإرادة وذو شعر أسود، ويرتدي بدلة لونها سكّريّ و قميصاً بنفسجياً مصنوعاً بواسطة آلة التريكو. جاءت امرأة أخرى اسمها ماريانا بافلوفنا، وهي مؤرّخة من منظّمة «المسيحية المفتوحة»، امرأة فخمة وبارزة مع حزم منقوشة من الشعر المجعّد. ترتدي قميصاً ملوّناً فضفاضاً وسروالاً رياضياً أسود ضيقاً. راح نائب العميد ذو الكرّش العريض والشعر الفاتح ينظر إلى وجهها بسعادة. تبين أنّ أندريه فاليريفيتش، مدير المدرسة، الرجل الملتحي رقيق الجسم والصموت في عمر الأب فاسيلي نفسه، وربّما أكبر قليلاً. أخيراً، جاء الجيران في البناية، أليكسي وفاليا، كما يقال: الروس البسطاء الجيّدون.

لقد كان الأمر محرّجاً. طرح الأب فاسيلي سؤالاً: «هل يجب أن تكون هذه الاجتماعات مجرد انعكاس للزعيم، أو يمكن للمشاركين أنفسهم تقديم شيء ما؟». كان يعتقد أنّ الإجابة في الشقّ الثاني ويطلب من المشاركين أن يتكلّموا.

هنا ظهرت الحيرة على وجهي كُلّ من نائب العميد والمدير الرئيسيّ. لقد وعدهما بأن لا يكون الاجتماع دينيًا على الإطلاق! لكنّ الأخ أوليغ كان أوّل مَنْ تحدّث، ولم يكن الأب فاسيلي يعرف عنه شيئًا على الإطلاق. قال بهدوء:

- منذ عشر سنوات تقريبًا، رأيت يسوع وتحدّثت معه. أريد التحدّث عن هذا.

قال الأب فاسيلي متيحًا له الحديث:

- في الواقع، لدينا تحيّز شرقيّ، لكنّنا جاهزون للاستماع إليك.

تابع كما لو أنّه لم يسمع الأب فاسيلي:

- كان ذلك في ساحة المصنع، في المكان المخصص للتدخين. كنت أجلس على المقعد على الرغم من أنّي لا أدخن. ورأيت رجلًا حليق اللحية يدخل ويتنقّل في المكان بشكل طبيعيّ، أدركت على الفور أنّ هذا هو السيّد المسيح.

كان في صوت الأخ أوليغ رعب شعر به الجميع وأثار لديهم الاضطراب. أكمل:

- لقد جلس على مقعد صغير في الجهة المقابلة، قريبًا مثلكم الآن (أشار إلى الأب فاسيلي). قال لي ما يلي: «لديك نقاط ضعف، كأيّ شخص آخر. ولكن، على الرغم من ذلك، يجب أن تتصرّف فقط كما أمرنا ربّ السماء. يمكنك أن تحيا هكذا، بل يجب عليك!».

ونظر السيّد المسيح إلَيَّ نظرة حتّى إنَّني لم أعد أشكّ في ذلك: «نعم، سأحيا هكذا، ولن يتدخّل أحد في حياتي». ثم نهض يسوع وغادر، ونادّني فتاة من ورشة العمل لدينا. سألتها: «هل تعرفين مَنْ كان هنا الآن؟»، قالت: «لا، أردت أن أسألك مَنْ يكون». قلت: «إنه يسوع!». قالت: «نعم، لقد رأيت رجلاً بدا لي غريباً!».

تابع أوليغ:

- بالنسبة إلَيَّ، لقد تغيّر كلّ شيء منذ ذلك الحين. كان هناك أشخاص سيئون للغاية في ورشة العمل الخاصة بنا، توقّفت عن الخوف منهم، وكانوا بالفعل يخافون مني. أدركت أنّ الشرّ عاجز. ولم أعد حاليّاً أوّل مَنْ يبدأ النزاعات حتّى مع هؤلاء الأشخاص، وهم يشعرون بقوّتي.

كان الأخ أوليغ يتكلّم، وأصبح الخوف ضاغطاً بشكل متزايد. ليس هذا ما يقوله الكهنة الذين يعبرون ليس عن الحقيقة الدينيّة الخاصة بهم، ولكن عن حقيقة عامّة. إنّه رجل صلب كالصخرة، مقتنع بأنّه قد أُعطي أكثر من أيّ كاهن آخر.

ولكن بمجرد أن صمت الأخ أوليغ متوقّعا الأسئلة ربّما، هاجمه الأب فاسيلي، إذ لم يكن مناسباً تحويل هذا الاجتماع إلى اجتماع مسيحيّ! قال:
- هناك تناقض في ما قلته. لماذا لم تتوصّل إلى هذا كلّ بنفesk إلا بعد أن أمر الشبح بذلك؟

قال أوليغ، كما لو كان الأب فاسيلي قد وجّه ضربة له:

- كان ذلك يسوع!

- هل أنت متأكّد؟ أنت تقول إنّه كان حليق اللحية. ما هي الصفات

الأخرى؟ قالت المرأة: «أيّها الرجل الغريب!». لماذا؟ ألا يمكن أن

يكون ذلك هو الشيطان؟ لا أريد أن أنتقد المسيحيّة، لكننا لم نلتق

هنا من أجل ذلك، والآن علينا أن ننحي هذا كلّ جانبًا.

اعترضت الأخت أولغا:

- المسيح!

توقّف الأب فاسيلي عن كبح جماح نفسه:

- نعم! هناك معركة مميتة، وقد جمع الغرب قوّته كلّها لسحقنا!

يختبئون طوال الوقت وراء بعض الحروب الصليبيّة. يجب إيقاف

ذلك! لذلك، إذا لزم الأمر، سنرفض الأرثوذكسيّة، وسأرفض لقب

سان*. وكان لا يزال يتجنّب النظر إلى نائب العميد ومدير المدرسة

اللذين لم يؤيّدوا بوضوح ما كان يحدث. تابع: كانت لديّ أيضًا رؤيا

تقول: يجب عليّ توحيد أوراسيا! (شيء ما في عينيّ ماريانا - حتّى في

عيون آخرين - قفز بشكل لا إراديّ نحوه، لكنّه لم يكن يلاحظ

الكثير ممّا حوله، إذ كان مأسورًا بحرارة الفكرة، التي أصبحت حاليًّا

أكثر أهميّة بالنسبة إليه من حياته) ربّما، سيعدّني أحدهم مجنونًا،

* لقب كنسيّ لمن يتولّى الطقوس الدينيّة في الكنيسة.

لكنني على استعداد لأن أقدم حياتي تضحية لما أتكلّم به. يجب أن ينشأ شيء جديد، وأنا متأكد أنه سيبدأ هنا في هذه الحلقة! لقد حدّثهم بما كان قد أعاد التفكير فيه مرارًا ودوّنه، تحدّث بهذه القوّة التي رآها. كانوا مذهولين، لم يتوقّعوا منه ذلك.

كان الجيران ينظرون إليه كما لو أنّهم لم يعرفوه، لكنّه كان يخاطبهم بالتحديد، واتفقت ماريانا ومدير المدرسة معه بشكل واضح. لقد تحدّث مدّة ساعة تقريبًا، وكان كلّ شيء واضحًا. في العالم يوجد صراع، وفي نهايته سيكون النصر.

لم يشعر الأب فاسيلي بنفسه كما شعر بها في تلك الحالة الجيدة من قبل أبدًا، شعر أنّه قَمّة موجة تتقدّم في أعالي البحر. ثمّ كان هناك فراغ وخفة. افترقوا دون أن يفهوا كيف عليهم التعامل مع كلّ ما كان.

صافحه نائب العميد كما لو لم يكن يعرف ماذا يقول.

- لقد غيّرتُ رأيي فيك، (لم يلمه على أيّ شيء ولم ينتقده) هذا مدهش!

أمّا سيرغي فاليريفيتش، فقد قال مخفّظًا رأسه قليلًا:

- آمل أن تدعوني إلى الاجتماع التالي.

هذا يعني أنّ كلّ شيء قد بدأ. نعم بدأ كما لم يكن يتوقّع!

-10-

كانت الحياة مريحة في منزل عائلة بونديس في كارول ستريم، في ضواحي شيكاغو الغربية. المنزل الذي منحهم إياه الربّ والذي لا يدخلون من استقبال الضيوف فيه مهما كان عددهم.

يقف المنزل ذو الجانحين، الممتدّ والمحاط نصفه بأشجار البلوط والقيقب الأميركيّ شامخاً على شاطئ البحيرة. إذا نظرت إليه ليس من جهة الماء، ولكن من الجهة التي يأتي منها الجميع إليه، ستجد في الجناح الأيسر مطبخاً، وشرفة مفتوحة وغرفة طعام مزجّجة من ثلاث جهات مع إطلالة على البحيرة. في منتصف المنزل، على البحيرة، تطلّ غرفة معيشة واسعة مع موقدين للتدفئة. في الصيف، يمكن تحريك أحد أقسام جداره الزجاجيّ جانباً، ويكون ماء البحيرة على بعد عشر خطوات. لقد نُظّم مستوى الماء مع نظام نهر المسيسيبي ولم يتجاوزه قطّ.

في الجناح الأيمن كانت هناك غرف النوم، وكان لدى ابنته ليندا غرفة استقبال الضيوف عندما كانت عنده، وبعد زواجها حوّلها مارتن إلى مكتب. لا يغلب على البيوت الأميركيّة نظام الطابق الواحد، فنظام الطابقين موجود أيضاً، إضافة إلى وجود التسوية تحت المنزل، وغالباً ما يجعل مالكيها فيها مكتب عمله. لكنّ هذا المنزل -بسبب سعته- لم يكن يُغني ولو جزئياً عن المبنى المكوّن من طابق واحد.

لقد انتقلوا إليها منذ وقت ليس ببعيد، لا مهاجرين ببطاقة خضراء، ولكن بعد أن كانوا قد رأوا أميركا وتعلّموا ملاحظة تلك الفخاخ التي يحمي المجتمع بواسطتها أيّ شخص من أن يقع فيها.

نعم، منذ البداية كان لدى مارتن شعور مشترك بين العديد من الأوروبيين الغربيين: أنه يفهم أميركا ليس أسوأ من الأميركيين أنفسهم. ترى من أيّ شيء يمكن أن تكون نشأت، إن لم يكن من بعض الأفكار القديمة والمحبوبة بالنسبة إلى الأوروبيين الغربيين عن أنفسهم وعن الكون؟ أمّا حقيقة أن لا تفيا جزء من الغرب، وأنّ هاوية تفصلها عن روسيا، كانت -بالنسبة إلى مارتن- حقيقة لا شكّ فيها منذ الطفولة، ومن الانطباعات المبكرة والنموذجية -على الأرجح- بالنسبة إلى صبيّ لا تفّي في عمره.

كان شعوره بالرعب عند قضبان سكة الحديد وقت الظلام إحدى ذكريات طفولته. انتقلت الأسرة إلى مكان ما، حيث كان يجلس مع والدته على القضبان، بجوارها أو ربّما فوق الأشياء. كان برد الصباح الباكر قارسًا، وكانت هناك نيران خضراء وحمراء تشتعل في العتمة، ولم يكن هدير القطارات مسموعًا، لكنّ ضغط الخطر لا يرحم، مثل ضغط العجلة التي سقطت تحتها يمكن أن تهرس جسدك هرسًا.

وفجأة حدث شيء فظيع: إمّا أنّه ركض وسقط، وتحطّم على القضبان، أو أنّ الوالدين العصبيّين هُزّما. كان هناك شعور بأنّ كلّ شيء قد انهار، وأنّ شيئاً لا يمكن إصلاحه تماماً على وشك الحدوث.

في الواقع، لا يتذكّر الأطفال السقوط حقّاً، يبدو أنّهم ينسون ذلك كما ينسون كيف يكون الخوف، لذلك ربّما عانى مارتن من أشياء رهيبة في حياته في وقت لاحق وهو أضج وأكبر سنّاً، لكنّ طفولته لم تكن كلّها سعيدة للغاية. تذكّر والده الذي كان يصمت بشكل مدهش، وتذكّر أيضاً والدته التي لا يدري من أين كانت لها القدرة على تقديم المواعظ.

ما تبقى من اللوثرية في لاتفيا السوفييتية لم يكن يدعو للسعادة أيضاً. لم يكن مارتن يزور الكنيسة على الإطلاق، لكن غرقت جدرانها العارية ومقاعد الصلبة في روحه إلى الأبد، إضافة إلى القسوة المتجهّمة، غير الضرورية، بل الواعية. كانت الأشواك السوداء التي اخترقت جبين المخلّص منتظمة، كما لو أنّها كانت مصنوعة في مصنع. وسقط ظلّ شرير على جسده الهزيل من الصليب، ومن العذاب الذي سيلقيه والذي لا يمكن تصوّره.

كانت هذه انطباعات مارتن الصغير عن الدين. ولكن ماذا عن عيد الميلاد؟ وماذا عن القناعة المسيحية الغربية بأنّ العدالة في العالم لا تزال، على الرغم من كلّ شيء، غير قابلة للتحقيق؟

لكنّ الحقيقة أنّه يمكنك أن تفرح، تتذكّر الظلام وتسعى إلى العدالة وأنت تدرك تماماً أنّها لا تزال غير ممكنة بشكل عام.

كانت كآبة مارتن وأحزان الطفولة لديه ذات أساس من حياته في الغرب، أمّا القمع السوفييتي فلا علاقة له بذلك كله. نعم، فعائلته لم تُقَمَّع ولم تُعَانِ تقريباً. زرع السوفييت شيئاً آخر: نوعاً من الفرح الصغير اللذيذ. هذه هي طفولة الإنسان الروسي الأبدية التي كانت تُقَابَل ببعض الشكوك.

بالطبع، كانت بعض الأشياء السوفييتية قد انطبعت داخل مارتن. كان عضواً في الكومسومول*، وكاد يؤمن بالاشتراكية في مرّة من المرات، ومع ذلك، لم يكن ذلك يهدّده بوصفه مواطناً لاتفياً. كان من الواضح أنّ هذا النظام فُرض على لاتفيا. ألم يُفرض حتّى على روسيا؟ إذ إنّ روسيا، في الحقيقة، ليست أقلّ شأناً، وإن جعلها على ما هي عليه هو قرون من تقاليد الاستبداد التي عرفتھا.

كانت مساعدة روسيا في التحرّر من أسوأ ما في إرثها، واحدة من المهام التي أعلن عنها أعضاء منظّمة «السفراء المسيحيّون» بصراحة وأمانة. كانت هذه، بطبيعة الحال، مسألة دقيقة ومعقّدة، لأنّ التقاليد الروسية، مثل أيّ شيء آخر، كانت تحمل الكثير من الأشياء الحسنة، لدرجة أنّه كان من المستحيل خسرانها.

من حيث الجوهر، لقد شكّلت خطابات مارتن أمام الجمهور الأميركيّ تفسيراً لكلّ هذه الدقّة في عمل «السفراء المسيحيّون» وتعقيداته. والآن، بعد عودته من هذه الرحلة، قام أيضاً بجولة كبيرة إلى كنائس الغرب الأوسط.

* اتحاد الشباب الشيوعيين أثناء الفترة السوفييتية.

كان من المفترض أن تبدأ حملة «درايف» أميركية عامّة أخرى لجمع الأموال لـ «السفراء المسيحيّون».

على الرغم من أنّه لم يمض من الوقت على مارتن في الولايات المتّحدة سوى أسبوعين ونصف فقط، إلّا أنّها أدهشته، كما هو الحال دائماً، بازدهارها ونظافتها التي لا مثيل لها في أيّ مكان على الأرض.

تكذب الإحصائيات عندما تقول إنّ الأميركيّين لا يعيشون أكثر ثراءً من أيّ شخص في العالم، والحقيقة أنّ الثروة تتدفّق عليهم جميعاً بيضاً وسوداً. إذا أخذنا بشكل منفصل الأميركيّين البيض الذين ينتمي إليهم -بالطبع- مارتن، فستكون الأرقام مختلفة جداً.

في موقف السيارات في مطار أوهارا، استطاع أن يرى من بعيد سيارته الـ «شيفروليه» الطويلة ذات اللون الكرزيّ الغامق، مع رديتها (مبرّدها) على الطراز المتوهّج الذي صُمّم قصداً، بالصليب الفضيّ الذي يبرز فوقه في إطار ضيق، كما لو كان إطار تصويب. لم يكن الصليب موجوداً على السيارة لكونه واعظاً، ولكن -ببساطة- لأنّ الصليب يدخل في شعار سيارات جنرال موتورز جميعها.

وضع الحقيبة في الصندوق، فتح الباب وجلس على مقعد مخمليّ كرزيّ داكن يناسب لون السيارة.

بعد ساعة، راحت العجلات تهرس الحصى في موقف السيارات قرب شرفة المنزل، وأدخل حقائبه إلى غرفة المعيشة الكبيرة المطلّة على البحيرة المتألّقة على اتساعها على الجانب الآخر.

- مرحبًا!

صاح باللغة اللاتفية، لأنّه كان يتواصل مع زوجته بهذه اللغة. أمّا بالنسبة إلى الابنة التي كانت قد وعت على الحياة في أميركا، فقد كانت تناسبها اللغة الإنكليزية أكثر.

- أوه، من جاء لزيارتنا!

خرجت ليندا من المطبخ، وكانت تشبه التاجر كوستوديفسكي، رغم أنّها كانت ترتدي سروالاً أميركياً أبيض قصيراً و قميصاً مخطّطاً بالأبيض والأسود، وقد رفعت نظاراتها السوداء على جبهتها، وكانت ترفعها من قبل فوق شعرها المصبوغ بلون القصب. قال مارتن وهو يقبل شفيتها الحلوتين: - هل تمكّنت بالفعل من أخذ الحبيب إلى البحيرة؟ انظري أيّ موجات هناك؟

أحاطت خصره الذي لم يعد نحيلاً بذراعيها، وقالت:

- لماذا في البحيرة؟ ستكون لدينا الكثير من المشاوير إلى الشجيرات والأشجار. حسناً، كيف كانت الرحلة؟ (سألت وهي تتّجه إلى المطبخ بلهجة مغايرة) هل تريد أن تأكل؟

ترك الحقائق عند الباب وذهب وراءها. كان التعب بسبب اختلاف الوقت يطرق أذنيه بسبب قلة النوم كما يخز الرمل العيون.

- ماذا تريد أن تأكل؟ هل تأكل شطيرة مع شرائح لحم العجل؟
- نعم، من فضلك.

كانت تقوم بالفعل بوضع أوراق الخس الرطبة المقرمشة على الخبز الأميركي الإسفنجي، وفوقها شرائح ثقيلة رمادية وردية من لحم العجل، وأضافت معجون الخردل، كما يحب.

بعد أن استحم عاد إلى المطبخ، كان صحن الشطائر على الطاولة الطويلة العالية في وسط المطبخ، على غرار طاولات البارات، وإلى جواره زجاجة بيرة ندية خرجت من الثلاجة للتو.

قال مارتن وقد راح يستخرج من محفظة قماشية الهدايا التذكارية والشخصية التي كان قد اشتراها، بشكل أساسي، من أوكرانيا وكازاخستان، وكان أثنى فستان باهظ الثمن وقلادة اشتراها -صدفة- مكوّنة من قطع كهرمان كبيرة، كبيرة جدًا، الواحدة بحجم علبة الكبريت:

- يمكنني أيضًا أن أجعلك سعيدة بشيء ما.

وضعت الفستان على جسدها، ثم قلبت القلادة أمام عينيها:

- يا إلهي! لم أر قط قطعة كهرمان بهذا الحجم! صحيح ما يقولون: عندما تأتي إلى الولايات المتحدة تحصل على كل ما هو في الوطن.
- كل، سأذهب لأجرب الفستان.

قضم مارتن قضة من الشطيرة وشرب بعدها، وتقاطع طعام الخردل الحراق مع طعام البيرة الحارقة بطريقة مختلفة. قال:

- بشكل عام، سأخبرك، لم تكن هذه الرحلة الأكثر نجاحًا.
- لقد تناقشا حول الفستان بالفعل، وراحت ليندا تدخن وهي تجلس على طريزة منخفضة في زاوية المطبخ. ولأنه كان يمضغ أكثر مما يتكلم، كانت تنفض سيجارتها في منفضة السجائر مع بعض التهيج. وتابع مارتن:
- أسوأ شيء أنهم أخرجونا من التلفزيون، لكنني كنت أعلم بذلك حتى قبل السفر. في الواقع، إن ما يحدث هناك لا يعجبني.
- لماذا؟ هل كنت تلاحظ عدائية ما؟

- كل شيء غير مفهوم على الإطلاق، لكن المؤتمرات التي أقرناها في موسكو في الربيع، سوف توضح الشيء الكثير، وأهمها مؤتمرا «اللوثريّة والأرثوذكسيّة»، و«الكالفنيّة والأرثوذكسيّة».
- رنّ جرس الهاتف. سأل المتصل: «هل أنت في البيت؟». تصلّب وجه مارتن، وكان مستعدًا لاصطياد متبرّع محتمل بسبب تفرّده، مثل المسمار الذي تُعلّق عليه القبّة. قالت ليندا: «نعم، كالمعتاد».
- الأميريّون، الذين يتبرّعون أحيانًا بمبالغ صغيرة، يحبّون إجراء أحاديث أخلاقية مطوّلة، وكان مستعدًا لذلك دائمًا.

لكنّ المتّصل كان ابنتهما ماريا، وكانت تسأل عمّا إذا كان والدها قد سافر، ومتى يجب أن تأتي وزوجها اليوم لتناول العشاء. قال مارتن: «قولي لهما أن يأتيا باكراً».

قالت ليندا موصلة الكلام: «يقول لكما: تعالا باكراً، حسناً، ليكن ذلك بعد ساعتين».

- ولكنك ربّما تريد أن تنام قليلاً؟

ذهبت إلى الكرسي المرتفع الذي كان يجلس عليه، أرخت بطنها الطريّ على رجله، واستندت إلى ركبتيه. قال:

- لا، اليوم يجب أن نصبر، لا أن ننام. سيكون من الصعب لاحقاً الدخول مباشرة في هذا الإيقاع.

- أعني ذلك أن لا نوقفك حتى وقت الغداء؟

قالت ليندا غامزةً وهما يسيران نحو غرفة النوم متعانقين.

- 11 -

كان لزوجته ليندا شخصية رائعة، على الرغم من أنه بدا في وقت من الأوقات أنهما سيفترقان. بالتحديد كادا يفصلان قبيل مغادرة الاتحاد السوفييتي مباشرة.

في ذلك الوقت بدا الأمر بشكل عام على النحو التالي: العالم ينهار، وكانت الهجرة تشكّل صدمة، بدا معها تفكك الأسرة شيئاً تافهاً. عاش كلاهما بشكل مريح، وكانا يشربان كثيراً، سواء قبل الانتقال إلى الولايات المتحدة، أو بعد ذلك مباشرة. لذلك، ربما بدأ الرب بمعاقبتهما، وربما بسبب أن مارتن فكر في أن يخلف وعده له.

لقد صهرتهما الهجرة معاً، تلك الهزة التي أحدثها الانتقال إلى مكان جديد. مثل هذه التجربة لا يمكن أن ينساها أي شخص يمر بها. وهل ينسى عالمنا كله الهجرة؟ كان في إمكان المرء، من دون الهجرة، أن يجادل أي نظام أفضل بالنسبة إليه، وكانت الهجرة تُظهر بوضوح أن المكان الأفضل هو الذي يحقق لنا الحفاظ على أنفسنا. على الرغم من أنه بعد التجربة واستيعاب الأشياء هنا، فقد لاحظنا أنه لم يكن كل شيء هنا رائعاً كما كانا يريانه من الاتحاد السوفييتي. غالباً ما كان الوضع على العكس تماماً. ما كنت تحصله هناك كان نتيجة جهدك الذي تبذله، أما هنا فقد قُدم ذلك لك مقدماً، ولكن بعد ذلك كان عليك العمل طوال حياتك. تحصل على سيارة

وسكن عن طريق بطاقات الائتمان، وقروض مؤجلة، وإذا حصلت، على سبيل المثال، على منزل على شاطئ البحيرة، تُرى متى ستمكّن من تسديد ثمنه؟

بدأ الشيء الأصعب بعد أن انخرط مارتن بالفعل في هذا النشاط المسيحي، وشعر بمدى ثقله وأنه يحتوي أيضًا على مواضع دافئة يذهب بعضها أدراج الرياح. في تلك المرحلة بالتحديد قدّمت له ليندا المساعدة، وربما لولاها ما كان قد تحمّل الوضع.

بالطبع، كانت الدعاية المسيحية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية مدعومة من قبل الحكومة الأميريّة، لذلك لم يكن مارتن في أيّ وقت وحيداً في صحراء. ولكن في بعض الأحيان كان لديه شعور بأنّه كان يشقّ طريقه من القاع تقريباً. لقد قسّمت الطوائف المسيحية أميركا منذ فترة طويلة طويلاً وعرضاً، وحتى إذا كنت مهاجراً ثلاث مرّات بتشجيع من السلطات الفيدرالية، فهم لا يسمحون لك بالضغط مباشرة على أموال الأميركيين المؤمنين إلّا على مضض.

لذا اضطرّ إلى السفر إلى مكانٍ ما في الصحراء، إلى أوهايو، للقاء قسّ كنيسة متعثر مُسنّ، فقط لأنّه عضو في مجلس منظّمة بائسة لها اسمها الصاخب: «رابطة الكتاب المقدّس العالميّة».

مساء يوم السبت، ذهب أخيراً إلى كنيسة الصغيرة التي كانت تُرى بارزةً عبر حقل فول الصويا. في موقف السيارات الإسفلتي بين الكنيسة وبيت

القَسّ، أوقف محرّك السيارة وخرج منها، ثمّ سمع فجأة صمتًا حقيقيًا لا خداع فيه!

وفي الحقل كان حفيف الريح، لسببٍ ما، لا يحرك قمم شجيرات فول الصويا المزروعة التي كانت تنمو في التربة الحمراء التي تشبه الشفق. وكان صرير باب المنزل بسبب جفاف مفاصله يشقّ السكينة. اهتزّ صوته وهو يظهر ترحيبه بقوّته كلّها:

- آها، لا بدّ أنّ هذا السيّد بو - نديس!

تعرفّ عليه وعلى زوجته وقضى الليل معهما، ونَبَّهاه أنّ صوت دقّات الساعة في غرفة المعيشة مرتفع، وأنّ عليه استخدام الحّمّام بعناية حتّى لا تنهار الأنابيب، فالأبرشيّة لا تخصّص مألّا لإصلاح الأعطال.

رأى حقًا أنّ المنزل كان يحتاج إلى ترميم منذ فترة طويلة. وعندما خلد إلى النوم كان يعلم - بالفعل - أنّه لن يكون في الكنيسة في قدّاس يوم الأحد غدًا أكثر من عشر عائلات أو خمس عشرة عائلة من المزارعين، ولن يزيد مجموع التبرّعات عن بضع مئات من الدولارات. أمّا بالنسبة إلى «رابطة الكتاب المقدّس»، فقد قال قسّ الكنيسة هذا اليوم إنّّه سيحاول معها، لكنّ صلاته «كما ترى»، ثمّ سأل: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

لكن، غدًا سوف يصدق الأورغان بصخب، وعبر الصلاة الطويلة الباردة بجدرانها العارية، سوف يتقدّم إلى الأمام من أمام المقاعد الخشبيّة ذات

الطلاء الأصفر، ويجلس في الصفّ الأماميّ بصفته ضيفاً متحدثاً، ويحسّ بنظرات القساوسة المسلّطة عليه من خلفه.

وسيطهر القسّ الذي ربّما كان يحلم أيضاً بشيء أكبر من الخدمة في هذه الكنيسة الصغيرة، ويعلوّ صوته في الصباح ناطقاً الكلمات التي تنقل -على الأرجح- العبارات نفسها في اللغات جميعها بحيويّة:

- باسم الأب والابن والروح القدس!

ولا يهمّ أنّهم يغنون بشكل غير متّسق، وعندما سيبدأ الخطبة، سيفتح رجل عجوز ما فكّه حتى سرّته تقريباً، لكنّه لن يفهم قطّ من أيّ بلدة أتى مارتن ولماذا يقول ما يقوله.

سيفهمه معظم الناس، ولكن إذا ما كان كلامه قويّاً، فقد تكون التبرّعات أكبر ممّا كان يتوقّع.

وهنا بعد الصلاة أن يقف القسّ والضيف من المعتاد عند مخرج الكنيسة لمصافحة المصلّين كلّهم. وقد يتحدّث إليه شخصٌ ما فجأةً باللغة اللاتينيّة، سيجد مواطناً آخر من بلده.

في كلمة واحدة، سوف يقدّم خدمة للرّب في هذه الرحلة، ولكن، إذا ما حسب كلّ شيء، فإنّ ما سيجمعه بالكاد يكفي وقوداً وصيانة للسيارة، ولكن على ماذا ستعيش العائلة؟

وهنا ساعدته ليندا في إحدى المرات، عندما بدأ مارتن يشعر باليأس ويفقد الإيمان، ولكنّها -على ما يبدو- فهمت أنّ الإيمان ينشأ من العادة،

عادة من الوعي الهادئ بأنك تتصرّف بشكل صحيح، وأنّ عليك أن تستمرّ في التصرّف بالطريقة نفسها. وهذا الوعي قد تقدّمه الزوجة لزوجها. وكلاهما كان يعرف أنّ كلّ شيء كان يعتمد عليها فقط منذ عدّة سنوات. ثمّ بدأت الـ«بيريستروبيكا»• وحصل الاجتماع مع غورباتشوف، والآن من السخف أن نتذكّر تبرّعات المئة دولار. ولكنّ مارتن، حتّى اليوم، ما زال يعتمد على زوجته، لذلك فإنّ العائلة ليس لديها إقامة دائمة، ولكنّها قابلة للتجديد طوال الوقت، هكذا فهم. وحتى الآن، كان من الممكن أن ينهار كلّ شيء لو توقّفت فجأة عن دعمه. في الساعة السادسة ذهب إلى غرفة الضيافة الغارقة بشمس المساء. على اليسار، دفّأت الأشعة البرتقاليّة الأرضيّة، أمّا على اليمين، فقد سطعت مياه البحيرة. حيّا ابنته، وصهره، وبالطبع، الضيف الرئيسيّ وحفيد مارتن البالغ من العمر سنة واحدة. تعرّف الحفيد على جدّه وانتقل عن طيب خاطر إلى ذراعيه، ثمّ راح يبكي. شرب صهره -ستان هاردينغ- البيرة، وسكب مارتن القهوة لنفسه. لم ينتظروا أيّ شخص آخر، وكانت هذه الزيارة ضروريّة بشكل أساسيّ حتّى لا يتمّ إلغاؤها: كان النشاط الاجتماعيّ قاعدة عائلة بونديس.

• مصطلح استخدمه آخر رئيس للاتحاد السوفيتي (1986-1991) ميخائيل

غورباتشوف، ويعني إعادة البناء.

لم يبدُ الصهر، المهندس السمين في شركة «آي بي إم»، ذو الشاربين اللذين يشبهان سنابل القمح، بالنسبة إلى مارتن، الاختيار الأمثل لابنته. كان بسيطاً جداً، حتى إنه كان غير مبالٍ. لقد اختارت الموثوقية وراتبه، فقد درست في الكلية «العلاقات العامة» وورثت من والدتها الحزم، وكان في إمكانها، والله أعلم، أن تصنع حياتها المهنية بنفسها. سأل مارتن وهو جالس على كنبته وفي يده كوب القهوة:

- حسناً، ستن، ماذا قرّرت شركة «آي بي إم» بخصوص إنتاجها في الاتحاد السوفييتي السابق؟
ردّ الصهر بنبرة منخفضة متّزنة:

- حتى الآن، كلّ شيء كما كان من قبل.
- أبقيني على اطلاع. لقد تعرّفت في كييف على نائب رئيس الأكاديمية الأوكرانية للعلوم، وهو مسؤول فقط عن الحوسبة. إنه على صلة بالمصانع والحكومة، لذلك إذا قرّرت «آي بي إم» الاستثمار في بعض المشاريع الجادة...

- أها. لكن هل يستطيع المساعدة في تسويق المنتج؟
- حسناً، بشكل عام، ليس التسويق من اختصاصه، ولكن لمّ لا؟ إذا لزم الأمر، لديّ عنوانه وبياناته.
- OK، سأخذ ذلك بعين الاعتبار.

التفت مارتن إلى ابنته التي دخلت غرفة المعيشة وحفيده على ذراعيها، وقال:

- كيف حالك؟ يقولون إنك تقومين بزيارات؟
- نعم، نقوم أنا والطفل ببعض الزيارات بالفعل، وفي الصيف القادم، يا أبي، نريد أن نسافر إلى أوروبا الشرقية.
وجرّوا مارتن إلى أحد تلك الحوارات التي كان يخوضها غالبًا هنا، وكان يحبّها، حول توديع الأميركيين الذين يُرسلون إلى دول المعسكر الاشتراكي السابق.

دعت ليندا الجميع إلى غرفة الطعام. جلسوا، تلوا صلاة عامّة قصيرة ثمّ بدأوا في تمرير الأطباق بعضهم إلى بعض بشكل دائريّ.
سألت ليندا وهي تشاهد مارتن يتناول قطعة من الدجاج المقليّ من الطبق:

- ما الطعام الأميركيّ الذي كنت تفتقده هناك؟
ضمّ كتفيه وقال:
- من الصعب الإجابة، كما يقول الأميركيون: وجبتي المفضّلة هي الطعام.
«أوافق» رفع ستن إصبعًا بحركة التأييد، إذ اكتشف، على ما يبدو، أنّ هذه الحركة ستفسّر كلّ شيء أفضل من أيّ كلمات.
ومن لم يوافق هنا؟ كانت الابنة تواكب بالفعل والدتها في الحجم.

أضاف اللونُ الوردِيّ، القليلُ من المرارة والجفافُ، دهشةً إلى طعم اللحوم الساخنة والطريّة، على الرغم من أنّ مشاعر مارتن كلّها كانت قد خفتت بسبب قلة النوم وفارق الوقت. في أثناء الاستماع إلى ابنته، بالكاد فهم أنّها كانت تتحدّث عن رجل استعراض أسود غنيّ يُدعى «كينج بيل لويس»، كان قد اشترى مؤخرًا منزلًا مقابل عائلة هاردينغ، وقد دعا عائلة هاردينغ إلى زيارته ولم يجدوا مجالًا لرفض الدعوة.

سأل مارتن:

- وما ديانتها؟

أجابت الابنة:

- إمّا أنّه بلا دين، أو أنّها شيء من قبيل الإسلام.

- بالضبط شيء من هذا القبيل.

ابتسم مارتن، وأضاف:

- لا يمتلك الإسلام لدى بعضهم هنا إلا القليل من القواسم المشتركة

مع الحاضر.

سألت ليندا:

- هل كان لديه زوجات؟

- كان هناك نساء كثيرات، لكن من يَكُنّ؟ لم نكن نعرف.

- كلّهنّ سوداوات؟

قال ستن بطريقة غير لبقّة:

- بالإضافة إلى بعض الكلاب البيضاء الصغيرة التي تعلق مؤخرته.
فصححت الابنة مستاءة:
- مجتمع مختلط. أنت تعرف، يا أبي، أنه اقترح عليّ أن أكون
مستشارة لديه في العلاقات الاجتماعية، وهو الاقتراح الذي يمكن
أن أقول إنني ما زلت أفكر فيه.
- هه! هه! هه!
- ضحك ستن بصوت متشنج لا يحمل أيّ مشاعر، لكنه يُظهر بوضوح ما
يفكر فيه.
- لقد تجادلوا حول ما إذا كان ذلك كثيرًا أو قليلًا، مليون دولار سنويًا، هو
ما يملكه هذا الكينج بيل في التلفزيون.
- قال ستن:
- يتقاضى رئيس شركة «آي بي إم» مليونًا ومئتي ألف في السنة، وأعتقد
أنه مبلغ دسم للغاية بالنسبة إلى موظف مستخدم مثلي أنا تمامًا!
- قالت ليندا التي ظهر عليها القلق:
- لا، ولكن ما يحصل عليه لاعبو كرة السلة هؤلاء، أو نجوم البوب،
ليس الملايين، بل عشرات الملايين! هنا يوجد شيء غير صحيح.
وأعلن مارتن فجأة:
- أنا سعيد لأن هؤلاء الناس كلهم يحصلون على الكثير. (نظر إليه
الجميع بدهشة، ولكن أيضًا بالأمل الذي ينظرون به عادةً إلى

الواعظ) عندما أتذكّر هذه المداخيل الضخمة أقول دائماً لنفسى: لا تخجل، اطلب المزيد من التبرّعات، تذكّر أنّ أميركا أغنى دولة في العالم!

تمتم ستن متدّمراً:

- هذا صحيح تماماً.

واصل مارتن الكلام:

- مليون دولار هو بالضبط المبلغ الذي ستستثمره منظّمة «السفراء المسيحيّون» في بناء مصنع للأنسولين بالقرب من كييف. لقد وقعتُ على عقد فيه بند يتضمّن ضرورة تقديم جزء من المنتج للمرضى مجاناً أو بيعه بسعر منخفض جداً، دون ذلك لن تكون هذه المؤسّسة مسيحيّة، بل تجارية. لكنني أخشى أن يرفض المانحون الأميركيّون تقديم المال عندما يقرّؤون هذا البند! هذه أيضاً أميركا.

ختم كلامه بهذه العبارة مادّاً يديه. قال ستان:

- أي أنّك تخشى أن يفشل مشروعك؟

- بالطبع لا. «أنا أخشى؟!» (أصدر هذا التعبير بعفويّة ملوّحاً بيده) أنا مستعدّ للإقناع، لكن منّ عليه أن يخاف هم أولئك الذين يضعون الربح فوق أيّ اعتبار لأيّ شيء! (استولى الغضب على مارتن فاندفع إلى الأمام دون اكتراث لارتفاع العوائق أمامه) لهذا السبب فشلت الإصلاحات الروسيّة أيضاً! أنا أفهم الأشياء بشكل أفضل من

الكثيرين. هناك الكثيرون الآن أيضًا، لا يرون شيئًا باستثناء الريح! يفكرون: لقد طردنا الشيوعيين، وبعد ذلك سيأتي كل شيء من تلقاء نفسه. لكن لا شيء يأتي من تلقاء نفسه، فأنت تحقق شيئًا، فقط حين تبذل جهدك، وحين تزيد من بذل جهدك! ولهذا السبب يجب أن يقبل أكبر عدد ممكن من الناس في روسيا ديننا، لأنه فقط ما يمكنه المساعدة في ذلك! ولكن هنا، في أميركا، سينهار كل شيء إذا كان الناس ينظرون إلى الدين، كما هم ينظرون إليه الآن، للأسف!

أرعد صوت مارتن حتى رنت الثريا المعلقة فوق الطاولة، وارتجفت يدها بشدة. بدأت ليندا في تهدئته وذهبت ماريا إلى غرفة المعيشة لتفقد طفلها هناك.

- لماذا هو محتد حقًا إلى هذه الدرجة؟

أشرقت الشمس على غابة القصب ذي الرؤوس الخضراء والسوق البيضاء بالقرب من المياه الذهبية. كان سطح البحيرة يتموج من حين إلى آخر بفعل نسيم المساء.

كان كل شيء هادئًا وجيدًا. هداً مارتن تدريجيًا. حان وقت الراحة، وسيبدأ العمل صباح الغد.

-12-

إنَّ العين التي اعتادت رؤية الحُفَر في شوارع رابطة الدول المستقلة، نشطتها الطُّرُق السريعة في شيكاغو بنعومتها وسرعة السير فيها وعزم الأُميركيّ الجبَّار الذي يبدو أنَّه يسعى إلى هدف واحد.

وأيّ سيارات جديدة وثرينة كانت في معظمها!

بالطبع، في بعض الأحيان يمكن أن ترى شيئاً مختلفاً يسير في الطرقات. انظر، على سبيل المثال، إلى تلك السيارة بلونها البنفسجيّ وبقع الصدأ المنتشرة على الهيكل، والمقاعد الجلديّة المهمّلة المليئة بالبقع. ولكن من المدهش كيف تغيّرت غالبيّة السيارات بشكل كبير في السنوات الأخيرة، يا لها من قفزة في غلاء الأسعار حقّقتها الولايات المتحدة!

كانت هذه أميركا في حقبة ما بعد «ريغان» التي حققت انتصارا عالمياً هائلاً - بالفعل - بشهادة الجميع.

تدفّق تيّار السيارات، وظهرت في الأمام ناطحات السحاب في مركز شيكاغو، ظهرت في البداية الملامح العامة لها فقط من خلال ضباب الصباح، ثم راحت تنمو تدريجياً وتّضح الكتل كاملةً.

اندفع التيّار، وما تحرّك فجأة لم يكن سيارة من أيّ نوع، إنّما قذيفة صاروخية! كان هناك شابّ خلف المقود يتجاوز الجميع بحركات متعرجة كاسراً قواعد السير جميعها، شابّ يبدو أنَّه طويل، كان يمضغ العلكة، ربّما كان رجلاً أسود أو حتّى امرأة! كانت تظهر عليه تعابير الهدوء التام، وحتّى إدانة الآخرين من حوله.

ومضت السيارة كأنها مُدَنَّب، ومرة أخرى ازدحم المكان بأمركيين متنوعين يتجاوز بعضهم بعضاً -أيضاً- طوال الوقت، معيدين ترتيب قواعد السير، ومخالفينها في الآن ذاته، على الرغم من أن ذلك لم يكن يحدث بشكل ملحوظ. قبل السفر إلى روسيا، كان على مارتن زيارة ولايتي دالاس وتكساس. أذهلته الثروة هناك! من الواضح أن الناس في شيكاغو ليسوا فقراء، وإذا ما كانت شيكاغو تملك الكثير من الأشياء الجيدة، فمن أين جاء كل شيء في هاتين المدينتين المتضخمتين: «فورت وورث» و«دالاس»؟

في مواضع معينة على الطرق السريعة، كانت الحصى الصغيرة لا تزال موجودة على الإسفلت الأسود الجديد الذي لم يتلاش دخانه بعد. كل هذا موجود جوهرياً في السهوب العارية، يا لها من طرق سريعة متعددة المسارب ومكلفة! نعم، وهي مليئة بسيارات السباق الحديثة باهظة الثمن، التي اقتنيت للتو على مستويات متعددة، الواحدة فوق الأخرى، بألوانها المتعددة: الأسود، الأخضر الزمردي والفضي الفاخر.

وكيف تكونت تلك الكثافة العمرانية في المكان! لماذا هذا كله يا ترى؟ ثم بدأ مارتن يرى لوحات إرشادية في الطريق: «قاعدة القوّات الجوّية الأميركية». لقد تذكر أن أكبر قاعدة جويّة توجد في فورت وورث! بدأ يراوده شعور بأن أموالاً لا تُحصى قد ضُحّت هنا.

ولكن لسبب ما، فقد أفلقه هذا الارتباط بين ثروة أميركا وقوّتها العسكرية! وكان هناك شيء مزعج، فقد واثته الرغبة في أن يفكر في الأمر ليتوصّل إلى نتيجة معيّنة، لكن لم يكن لديه الوقت الكافي.

وفي الوقت نفسه، نهضت ناطحات السحاب في الأمام بالفعل بارتفاعها الكامل بواجهاتها الزجاجية، وقد حان الوقت لمارتن حتّى يلتفتّ من الطريق السريع ويتّجه إلى مكتبه.

بالطبع، انعطف إلى اليمين بشكل تلقائيّ تقريباً، على الرغم من وجود الكثير من أنواع التفرّعات هناك التي يمكن أن تُربك المسافر أوّل مرّة. تسير في البداية في طريق فيه علامات سير متقطّعة، وعليك أن تتّجه إلى اليسار على الفور تقريباً، وفي الآونة الأخيرة برز خطر آخر بالقرب من هذا التقاطع على شكل سيارات تغادر محطة وقود افتُتحت حديثاً. محطة الوقود هذه، بجناحها الرئيسيّ المموج -كالمعتاد- الذي يبيع جميع أنواع الأشياء التي تلمع خلف زجاج العرض في المتجر، كانت قد تمدّدت تدريجياً بقوة في هذا المكان، وهي -على ما يبدو- تراحم شخصاً ما. فور أن وصل مارتن إلى هنا راح يفكّر في أنّ التعقيد الأميركيّ قد وصل الآن. على الرغم من أنّ أميركا في جوهرها، على الرغم من كلّ تعقيدها، بسيطة مثل عود منغرس وسط السهب العارية.

الآن لم يكن أحد يغادر محطة الوقود الجديدة، فمرّ مارتن من أمامها سريعاً. الآن، لم تفصله عن مكان عمله مسافة سوى جزء من الشارع المستقيم، وكان من الممكن أن يعود للتفكير في القاعدة الجوية.

نعم، يبدو أنّ لا شيء محيّر هنا: الشيء المؤلم أنّ روسيا تمتلك القوة العسكرية نفسها تقريباً مثل الولايات المتحدة، ومن الغباء التعويل على أنّ الروس لن يستخدموها أو يوظّفوها في المناورات السياسيّة.

إضافة إلى ذلك، فقد كان من الواضح أن القوى المعادية للمسيحيين في روسيا تمتلك اليد العليا بشكل واضح، وهذا ما يحزنه ويعدّبه!

بعد أن ركن مارتن السيارة في الموقف، دخل المكتب. كان لديهم مدخل خاص ومنفصل، فوّه لوحة من الجرانيت الأسود نُقش عليها اسم المنظّمة بحروف مذهّبة.

«أوه، مرحبًا، سيّد بوندي-س!» انطلقت أصوات الموظّفات كأنّها شدو طيور. وبعضهنّ استقبلنه بوقاحة كأنّه «عشيق»:

- هاي، مارتن! كيف كانت رحلتك؟

تضمّ الهيئة الإداريّة للمنظّمة عشرة أشخاص، منهم رجلان فقط غيره: نائب الرئيس «د. ويلسون»، ونائب الرئيس التنفيذي «راي ستيفنز». كان راي - بالتحديد - من قام باختيار الموظّفين الآخرين - النساء السبع - وكان يقوم بالعمل كلّهُ بمساعدتهنّ. اعتبر راي أنّ سوء حظّ المنظّمة الرئيسيّ هو التشتّت المفرط الذي كان مارتن يتشبّث به. لكن هنا لا يمكنك الهرب إلى أيّ مكان، سيتعيّن عليه أن يتلعّ اليوم زوجًا جديدًا من مشاريع مارتن.

غادر راي نفسه المكتب رافعًا رأسه الذي زيّنه تاج من الشعر الفضيّ بفخر، بدا يشبه فطر جذوع الأشجار أو أمير حرب قاسي الملامح، وهذا يعتمد على الناظر إليه.

- كم تحتاج يا راي حتّى تضعني في وضع العمل؟

- يعتمد ذلك على كميّة الدخول في الموضوع. لقد تراكمت لديّ الأشغال.

- إذن، دعنا نتناول الموضوع هذا حتى موعد الغداء. وبعد الغداء، أودّ أن أخبر الموظفين جميعهم عن الرحلة. هل سيكون لدينا وقت؟
- طبعًا.
- إذن، أنتظر الجميع في قاعة الاجتماعات.
- أعلن مارتن، ثم انشغل كلاهما بالعمل في مكتبه مُستدعيّين أحيانًا سكرتيرتهم المشتركة.

قال مارتن:

- أشلّ الفشل في التلفزيون أيدينا، يا راي. كانت الاتصالات عملنا الرئيسي، ولكن علينا الآن التوقّف تمامًا عن الأعمال جميعها هنا. وستحوّل - حتمًا - إلى منظّمة أقلّ تأثيرًا إذا لم نبذل جهودًا إضافية.
- وافقه راي:

- نعم، نحن في حاجة إلى شيء مثل ذلك الاجتماع مع غورباتشوف.
- لذلك أقترح هذين المؤتمرين.
- وصف مارتن ما كان يراه. لقد ظهرت بالفعل طبقة قويّة إلى حدّ ما من المثقّقين في روسيا، لديهم قناعات قويّة، مُقنّعين أثر مؤلّف بارع قال إنّ الرأسماليّة من حيث الجوهر متّصلة بالبروتستنتيّة. لذلك لا بدّ أن يلتقي هؤلاء الناس أكثر ويتواصلوا مع بعضهم بعضًا.

قال راي محلّلاً:

- وأنت تفكّر في مؤتمرين منفصلين بالتحديد؟

- لكن، بما أن الكالفينيين مستعدّون لدفع ما يترتب عليهم بالكامل، سيكون من الممكن دمج المؤتمرين في مؤتمر واحد، على سبيل المثال، «البروتستنتية والأرثوذكسية».

وافق راي دون أن يحدّد، مع ذلك، ما الذي وافق عليه بالضبط:

- يبدو جيداً.

بعد الغداء، جلس الموظفون جميعهم بحريّة في الصفوف الأماميّة في قاعة الاجتماعات الصغيرة الخاصّة بهم.

في الوقت نفسه، كان المكان مُصلّى كنسيّاً صغيراً، كما يتّضح من الصليب على الكرسيّ الكهنوتيّ بجانب طاولة الرئاسة، وخلف هذه الطاولة على الحائط يوجد صليب آخر مصنوع من خشب الجوز مع تقاطع ذهبيّ معمول فيه. عادة ما يتلو الصلاة الدكتور ويلسون الذي غاب الآن، لذلك تلاها مارتن. ثمّ، من دون الخروج عن الشدّة الوعظيّة، أعلن أنّ يسوع في روسيا أصبح الآن في خطر أكبر من أيّ وقت مضى.

وساد الصمت.

قال مارتن:

- روسيا تناور، الساسة الروس على اتصال مع الغرب والشرق، مع ديانات مختلفة، ولكن لا يمكنك توقّع أيّ شيء آخر من السياسيين. وما يعني لي ليس الروس، بل حقيقة أنّ المزيد من الأشخاص الروس العاديين يقرّرون بوعي أنّهم ليسوا مع المسيح. الشيطان أكثر فائدة ومتعة بالنسبة إليهم! وهناك نوع من البواعث الشيطانيّة تجول في البلد، تتقل من

شخص إلى آخر، تسحق حتى أقوى الأشخاص. أعرف ذلك من تجاربي السابقة، والآن أصطدم بمواقف مثل هذه. وأخبرهم عن الأب فاسيلي وشيء آخر مشابه.

لقد فهم الجميع على الفور ما كان يتحدث عنه؛ ولم تكن هناك حاجة إلى مزيد من الشرح هنا. في أميركا، يعرفون جيداً أن الروس ذوو مزاج شديد في بعض الأحيان بشكل ينذر بالسوء، بطريقة أو بأخرى، لكنهم واجهوا هذا أو سمعوا به على الأقل. لذلك لم يتحدث مارتن عن هذا الأمر طويلاً، لكنه تحدث عن عمى أميركا فترة طويلة. الأميركيون يفهمون، نعم يفهمون كل شيء، ولكن في بعض الأحيان يبدو أنهم ينسون ما لا يجوز نسيانه! ومن يذكره يُقال إنه مثير للاضطرابات. إن هذا التراخي قاتل!

قال:

- إن المنظمات الدينية حولنا، في وسط مدينة شيكاغو لا تُحصى. أنتم تعرفون ذلك. من هنا يديرون الأبرشيات والكنائس بأكملها، وهنا يدرسون في الكليات المسيحية، والمعاهد، والأكاديميات والجامعات. وكم عدد المراكز التبشيرية التي تدير العمل في القارات جميعها! متاجر «جيش الخوف» تباع بأسعار منخفضة وتستقبل المستشفيات المسيحية المرضى. هناك الكثير من البرامج الإذاعية والتلفزيونية الدينية، لدرجة أنه يبدو لي في بعض الأحيان أن الهواء نفسه بين ناطحات السحاب يهتز هنا من كثرة تردد كلمة «الله»! في حصن الروح التي تدعى «أميركا الشمالية»، تُعد شيكاغو واحدة من الحصون الرئيسية! وماذا؟ كل هذه المنظمات لا

ترى ما أراه، ما نراه نحن في منظّمة «السفراء المسيحيّون»! نعم، إنّهُ كذلك! إنّهم لا يرون! في ما يتعلّق بالعلاقات مع روسيا، نحن متقدّمون على أميركا المتديّنة كلّها! لكنّ القيادة ليست بالأمر السهل، إذ تتطلّب نوعاً من الصراع مع من تقودهم. وأنا أحذّركم: استعدّوا للقتال، أنتم وزملاؤكم، مع المنظّمات التبشيريّة الأميركيّة الأخرى. لقد حان الوقت لذلك! بالنسبة إليهم، سيتعيّن علينا فتح أعيننا، تركيز تفكيرنا وكسر أيدينا إذا لزم الأمر! (وشدّ مارتن قبضتيه) ولكن علينا إيقاظهم وجعلهم يرون ما نراه.

هنا أنهى خطبته، وأجاب عن الأسئلة بإيجاز شديد.

وفور أن دخل مكتبه أنشَب الخوف بروحه بخطافات حادّة. ما الذي يفعله؟ إنّهُ يتحدّى الكنائس الأميركيّة القويّة! سيسحقونه!

أغلق الباب بسرعة ورُكع أمام تمثال المسيح المصلوب. حاول أن يوضّح للربّ أنّه لا يوجد فخر بهذا التحديّ. على العكس من ذلك، فإنّه يضحيّ بنفسه. سُمِع طرقٌ على الباب وتحركَ المقبض، في الوقت الذي كان ينتظر فيه ردّاً من الله تعالى معذباً من ألم الموقف الحرج الذي أصبح فيه: هل هو مُحقٌّ أم لا؟ أخيراً، نَحى الخوف جانباً. وفكر في أنّ هناك الكثير من العمل الذي كان عليه أن ينجزه.

-13-

في شهر تشرين الأول، تجول موراتالي في موسكو وتوقف -فجأة- مذهولاً أمام مكان: يا له من بستان، إنه الجنة!

كانت سلسلة ذهبية تحيط بشجيرات وأشجار خضراء لامعة ورائعة، في وسطها نافورة تتدفق منها المياه، وكانت النادلات، كأنهن الحوريات، يطفن بين الطاولات. وكان ذلك كله مجرد مقدمة لعظمة الروعة الرئيسية المختفية في الداخل، في القصر قزحي الألوان!

خطا عدة خطوات، وها هو يرى وجهه المستطيل منعكساً على واجهة البنك الزجاجية السوداء الذي استقرّ فوق بوابته نموذج مشرق للكرة الأرضية. ترجلت سيّدة ورجل من سيارة المرسيدس اللامعة التي اقتربت من الأبواب ذات اللون الأسود القطراني، لم يعد أحد -حالياً- يميّز بين الروس والغربيين الأجانب!

بالطبع، كانت أعداد السيارات والمحلات الأجنبية الفاخرة قد قفز عددها كثيراً في شوارع طشقند. إنه فائض بضائع. لكن أين ذلك من موسكو! هنا، يجعلك الخريف البارد تقدّر الدفء أكثر، وبسبب رابط غير مفهوم، فإنه كان يزيد الثروة بشكل واضح. ربّما كان ذلك -بساطة- لأنّ روسيا قبلت تماماً النموذج الغربيّ المزدهر «الشمال»: عندما تتوهج

المدفأة في الصباحات الباردة، تنتشر رائحة الأغصان المحترقة بشدة ولا يجرؤ أحد على القول: إنَّ رائحة النقود - في الواقع - تفوح منها!

لقد استوعبت روسيا هذا النموذج كاملاً، لكن حتى يتحقق هذا الاستيعاب فقد حدثت هناك خسائر! لأنَّهم في مثل هذا المجتمع يتحدثون فقط عن الحرّية، في حين أنَّهم - في الحقيقة - لا يملكونها. فالإنسان لن يحصل على الحرّية إلّا إذا كان مستعدّاً للموت دونها، لكنَّ سعيهم الرئيسيّ كان نحو الحصول على الراحة والابتعاد عن كلّ ما هو مزعج، فهل يمكن لأناس مثل هؤلاء أن لا يخافوا من الشيء الأكثر إزعاجاً: «الموت»؟

وكلّما اقترب فصل الشتاء أذان موراتالي نفسه أكثر بسبب الضغوط العبيّنة التي واجهته في بداية الخريف: توسعة المركز وإقامة علاقات عاجلة مع دور النشر! هل كان هذا كلّهُ ضروريّاً للغاية؟ أليس التسرّع في الأمور هروب من خوف ما؟ هل يحقّق الإنسان الشيء الكثير بامتناعه عن الفعل، كأن يصمت عن الحديث في بعض الأحيان؟

قطع موراتالي الآن علاقات العمل، الواحدة تلو الأخرى، وقال لنفسه مندهشاً: لقد كان لديك بالفعل الكثير من هذه العلاقات في موسكو! أنت تنفصل عن شخص ما، وتعتقد أنّك أصبحت حرّاً، وستجد، فور أن تنظر، أنّ شيئاً ما لا يزال يشدّك، ولا تزال في حاجة إلى التحرّر من علاقة ما.

يحاول - حالياً - الحدّ من خروجه. يذهب فقط إلى المسجد والمركز، ويهاتف طشقند، وهذا بحدّ ذاته كثير حدّ الجنون!

إحدى الشركات التي بدأ موراتالي ينسج معها الأعمال كانت دار النشر «بروسكورين أند كومباني» التي أوصاه بها نيكولايف. وعدهم موراتالي بنشر طبعات عديدة من القرآن، مئة ألف نسخة في الطبعة الواحدة، وربما أكثر. وهو لم يعد الأمر خدعة، على الرغم من أن الأموال اللازمة لم تكن بين يديه، ولكن يجب الحصول عليها! فعائدات النفط لا تصل إلى عشرات المليارات وحسب، بل إلى مئات المليارات من الدولارات في العالم الإسلامي! فهل يصعب توفير مليون دولار من أجل طباعة القرآن لـ«روسيا»؟

إضافة إلى ذلك، لم يتعامل موراتالي مع مشروع دار النشر هذا من منظور ماديّ بحت، وتوقع منهم اتخاذ إجراءات مقابلة، فهم يسمّون أنفسهم «ناشرين روحيين». واقترح عليهم نشر كتيّبه الشعبيّ حول الإسلام على نفقتهم.

لقد وافقوا وقدموا الكتيّب للتنفيذ، ولكنهم طلبوا من موراتالي أن يوقع اتفاقية ضمان أن يطبع القرآن عندهم. لم يكن أمامه إلا أن يوقع. في تشرين الثاني، انتهى العقد، فاضطرّ إلى الذهاب إلى دار النشر لتجديد العقد. لماذا كلّ هذا؟ قرّر موراتالي الانتظار وعدم اتخاذ أيّ خطوات جديدة. لقد عقد صلات وأثار اهتمام الأشخاص، وحاليًا يوجد شيء ما يخصّ المركز بحدّ ذاته لا بدّ أن يحدث.

تذكر موراتالي الآن شيئاً من حياته، رأى أن وجهة نظره قد تغيرت. بدأ يرى بعض الأشياء بشكل مختلف الآن، ولم يعد يدين نفسه، أو يمتدحها بسبب الأشياء نفسها التي كانت تحصل معه في السابق.

تذكر منزل أهله في الجزء القديم من طشقند، في شارع تظللّه أشجار ضخمة. هناك انقضت طفولته. كانت الحمام في الصباحات تحلق وتسجع فوق الحدائق، الأسطح والجدران الطينية العالية. وكانت الشمس تشرق، وفي البعيد كانت صارية الراديو المخرّمة تبدو كأنها خيوط بيت عنكبوت دقيقة، تستحم بأشعة الشمس الشفافة والنضرة. لكن هناك بيت عنكبوت حلو آخر عالق بالفعل في الحلق، إنه إنذارات القيث اليوميّ الخانق.

كانت رائحة السكر الكثيفة تنبعث من دكان الحلويات، تلك هي رائحة الأرض في الشرق. خلف منزلهم كانت هناك حديقة مليئة بالأشجار المثمرة، والخضراوات وقنوات الماء ذات اللون البنيّ التي تشبه الحروف العربيّة تلتف حول أحواض مزروعة بالطماطم والفلفل والأعشاب وأشجار التفاح والكرز.

كل شيء في طشقند يروى، بالطبع، بوساطة قنوات الريّ، بما في ذلك شوارع المدينة المزروعة بالأشجار. الخندق القديم عبارة عن جدول عميق، يمكن القول إنه قناة تقريباً، ولكن عندما يكون هناك أنابيب مياه، لا تحتاج إلى حفر عميق، ومعظم القنوات في المدن الحديثة يتراوح عمقها من عشرة إلى عشرين سنتيمتراً، عادةً ما تكون مكلّسة باللون الأبيض، مثل

الأرض كلّها في المحيط، ولكن عند تفتح عليها المياه، غالبًا ما تتحوّل إلى اللون البنيّ. لا يبلّ الماء الشفّاف قيعان القنوات فقط، بل يبلّ أيضًا التربة على الجانبين، وتتسع المساحة المبلّلة تدريجيًا، ويبطء. ومن المحزن دائمًا أن تنظر إلى الماء المتدفّق في القنوات كيف يخفي ويذهب هدرًا. وهكذا تختفي حيوات البشر أيضًا دون جدوى أحيانًا، ليس في الشرق فقط.

هل كان الإشفاق على الناس ما قاد مورتالي إلى الإيمان؟ الإيمان يُعلّمنا أن نجرّب أعظم متعة على وجه التحديد تتأتّى من التلاشي في الحياة. والأهمّ من ذلك كلّ، أنّه كان يحبّ أن يتذكّر - بالضبط - كيف وصل إلى الإيمان. لم يكن وصوله بشكل فوريّ أو مباشر. كانت هذه الذكريات مثل خدوش على شكل مروحة لمخلب على الجلد، وقد شفيت ببطء، أو مثل تلك القنوات التي كانت تمتلئ بالماء تدريجيًا في محيط المكان كاملاً، وهي الآن تفيض على الجانبين في بعض الأماكن.

تبقى الذكريات ذكريات، لكنّ مورتالي فهم أنّ المرحلة الحاليّة في حياته كانت نقطة تحوّل. فإذا ما نجحت مهمّته في موسكو، سيصبح - دون مبالغة - إحدى الشخصيات التي تستحقّ حياتها الدراسة والاقتداء. أمّا إذا ما فشل، فستكون حياته السابقة كلّها - على الأرجح - مجرد مثال على التصرف غير المقبول.

ومع ذلك، لم يكن في حاجة إلى النجاح بالمعنى الغربي القابل للتحقيق. وربّما يكون المكسب الرئيسيّ هو الحياة في موسكو، مع الامتناع عن اللعب وفقاً لقواعد موسكو.

كان موراتالي منزعاً قليلاً من الفهم الغربيّ للنجاح والشخصيّة المميّزة، وبشكل عام «الشخصيّة». إلّا أنّه عدّ نفسه -فترةً طويلة- واحداً من هؤلاء المثقّفين الأوزبكيّين «الثقافيين»، من الطراز الغربيّ. سبحان الله، فقد رأى أنّ هذا الطريق مسدود. كم من هؤلاء «العباقر» في كلّ بلد غربيّ يبدو أنّهم يخرجون من التاريخ بنصب تذكاريّة أو تماثيل بيضاء نصفية بعيون ميّنة! كثرة لا حصر لها، ومن المستحيل تذكّرهم، لكن ما الفائدة؟ تمضي الأمّة نحو الهاوية، حينها من يهتمّ من يكون «أمبرتو دي لا فينتشيتسا»، ولماذا عدّ مشهوراً؟ ولا حاجة حتّى إلى التحقّق من ذلك من بعض الموسوعات، إن كانت شخصيّة مثل هذه موجودة بالفعل أو أنّ الاسم قد اختُرع ببساطة.

لا يمكن للأمّة إلّا أن تسقط إذا بدأت الشخصيات، والأفراد وأولئك الأنانيون كلّهم الذين لا حصر لهم والذين يتخاطفون قوتها المشتركة بالتكاثر. والأمم الأوروبيّة، واحدة تلو الأخرى، سوف ترتفع فترة قصيرة ثم تهوي إلى الأسفل وتتحول، إذا جاز التعبير، إلى رواسب تاريخيّة. تُضغَط الآثار والتماثيل بمرور الوقت، كما ضُغِطت الكائنات الحيّة قديماً في طبقات جيولوجيّة لتصبح غير قابلة للتمييز. فهل يوجد معنى للسعي من

أجل المجد الوطني، إذا كان هذا السعي يعجل فقط موت شعبك ولغتك؟ إن الأمم ذات النزعة الفردية ستختفي جميعها، بما في ذلك -على الأرجح- الأمة الروسية، ما لم تتبنى الإسلام.

تُرى، مَنْ هو «الشخص الناجح»؟ الابتعاد عن الله خطوة نحو العدم، ستكون بسبب جنبك، وفيك المبدأ الإلهي، أن لا تطلب الشهادة، وتسعى إلى المجد والثراء. ولكن إذا ما كان هناك ربّ، فأيّ شخصيّة يمكن أن يكون، ولماذا؟ وأيّ نجاح آخر يمكن أن يحصل غير نجاح عمل الله؟ ليس عملك أنت، ولكن عمله هو - «الله»، من فضلك لا تدع الأمر يختلط عليك. إن الشعوب تعيش ما دام الناس يحدّدون كلّ شيء، ومستعدّين للتلاشي بلا أثر ويختفون مثلما يختفي الماء في الرمل.

لكنّ الغرب يتصوّر أنّ الأشخاص كلّهم يجب أن يكونوا مثلهم. مثلاً، أنت لديك رأس، ذراعان وساقان، تعال وأثبت أنّك لست «شخصيّة»! إنهم يحاولون تصوير النبيّ محمّد عبقرية بطريقته الخاصّة، حتّى إنهم في بعض الأحيان يصوّرونه الأكثر نجاحاً من بين جميع الشخصيات التاريخيّة، لأنّه -كما يقولون- الوحيد من بين مؤسسي الديانات العالميّة معروفه حياته على وجه اليقين. نعم، المسيح وبوذا كانا موجودين، ولكن أيّ نوع من الأشخاص هما؟ إنّ ذلك ليس واضحاً، تُسج الكثير حولهما لدرجة يصعب الوصول إلى الحقيقة من خلال طبقات الأنسجة تلك. حياة محمّد معروفه تماماً مثل حياة نابليون، على سبيل المثال، هنا يحاول الغرب مساواتهما،

لكن المساواة هنا أمر سخيف! لقد حقق النبي محمد إرادة الله بوضوح، لا شيء آخر، لدرجة أن شخصيته ذابت ببساطة، واستبدلت كاملة بالدين! هذا ما لا يريدون أن يعترفوا به، وهو أمر غير مستغرب، فهذا يعني الاعتراف بالإسلام ديناً سماوياً.

وفي الوقت نفسه، فإن أي شخص ذكي سيفهم أن الإسلام جوهر العالم اليوم ونوره. بعد سقوط القسطنطينية، لم يعد في الإمكان هزيمته جغرافياً. ويمكن فهم كيف أثرت سيطرة محمد الثاني على القسطنطينية في روسيا من خلال النظر، على سبيل المثال، إلى نظام الدولة الجديد الذي أوجده إيفان الرهيب. فالقيصر (إيفان) لم يتكرر أي شيء، إنه ببساطة استعار كل ابتكاراته واستعار النظام السياسي بأكمله من محمد الثاني. وحقيقة أن الإصلاح الغربي الذي تبعه مباشرة بعد اختفاء بيزنطة يعني أيضاً شيئاً! الأعمى - فقط - من لا يستطيع رؤية وجه الشبه بين (اللوثرية والبروتستنتية) والإسلام.

قرأ موراتالي شيئاً مضحكاً لدى كاتب مناهض للإسلام: يقولون إن الإسلام اليوم يمرّ بالأشياء نفسها التي عاشتها أوروبا المسيحية في العصور الوسطى: توتر الإيمان والتعصب. لكن سرعان ما يقولون إن المسلمين ستنفذ قوتهم ويضمحلون. أطرف شيء أن الكاتب هذا، على ما يبدو، ليس على ما يرام مع الحساب، ناهيك عن المنطق، فالحقيقة أن الإسلام أقلّ عمراً من المسيحية بستّة قرون ونصف القرن، ما يعني أن العصور الوسطى

انتهت للتوّ لدى المسلمين. وها هو القرن المسيحيّ الرابع عشر، الاكتشافات الجغرافيّة الكبرى وغزوات القارّات الأخرى ليست بعيدة. لم تُستنفد المسيحيّة إلّا بعد أن رسّخت هيمنتها في جميع أنحاء العالم وقمعت الثقافات الأخرى بوحيّة.

بالطبع إنّ هذه المقارنات هراء تمامًا، وهي -في حدّ ذاتها- لا تثبت أيّ شيء، لكن -مع ذلك- لا مفرّ للمسلمين من محاولة تكرار ما فعله المسيحيّون. أي استكمال الجهود حتّى النهاية والاستيلاء على السلطة في العالم!

إنّ روسيا أحد الأهداف المرحليّة هنا بالطبع. ليس لأنّ الأسلحة النوويّة ضروريّة، فإنّ الإسلام سيحصل عليها وليس باكستان فقط، بل هو أمر لا مفرّ منه. إنّ روسيا -ببساطة- على الطريق، والبحث عن الممرّات الالتفافيّة لا يكون في قوانين الله.

لا، كلّ شيء كان يتحقّق: موسكو اليوم هي المكان الذي يجب على المسلم النشط أن يكون فيه.

-14-

لم يصل موراتالي إلى الإيمان فجأة أو ببساطة. وليس من دون التأثير المميز لـ«نورية» التي دفعته في الواقع إلى الانتقال إلى موسكو إلى حدّ ما. ولكن في بداية تعارفهما، لم يكن هناك أيّ قدر من الإيمان في فؤاد موراتالي، كان هناك فقط حبّ وشغف يكتّنه لهذه الفتاة السمراء ممشوقة القامة الجميلة.

كان معروفًا أنّها كانت فتاة صعبة المزاج، وكان من الأفضل عدم التشاجر معها، لذلك لم يفهم موراتالي إن كان لديه ثقة في قدرته على تطويعها، لكنّه نجح! بدا أنّه نجح على الرغم من أنّها بدأت تتحدّث عن الطلاق تقريبًا في السنة الأولى بعد الزفاف، ومنذ ذلك الحين استمرّت بالمطالبة به فترة طويلة.

اليوم يتذكّر أن شوارع طشقند التي كانا يتمشّيان فيها في ذلك الوقت، كمعابد ذات أعمدة سمكية من جذوع الأشجار.

كان ظلّ تلك الأشجار كثيفًا، وبدا فيها جسد نورية أسود محاطًا بهالة من نور الشمس، لكنّ نظراتها التي كانت في البداية متوتّرة وغامضة، بدأت تتألق بشكل متزايد وتطابير منها شرارات البهجة. وبعد مرور بعض الوقت، أشرقت سعادة مجنونة في عينيها لدرجة أنّ موراتالي لم يكن ليصدّق أنّ هذا ممكن لو لم يرها بنفسه.

يبدو أنّهما التقيا حول حقيقة أنّ كلاهما وافق على النظام آنذاك. تلك وجهة نظر نادرة جداً في أيّ زمن وفي أيّ بلد. كان ذلك في الثمانينيات، عشية «بيرسترويكا» غورباتشوف، والأنفاس الأخيرة للنظام السوفييتي. على الرغم من أنّ هذا -بالطبع- لم يكن معروفاً، بل على العكس، فقد بدا النظام أنّه قائم للأبد. لكن، لماذا يبدو له أنّ النظام سيتغيّر؟ فالكيان الأوزبكيّ السوفييتيّ الضخم هذا، كان يستظلّ بقمّة أكثر سمواً، إنّهُ يستظلّ بـ«موسكو»؛ فلا يحدث شيءٌ فرّص الشخص النشط في التطوّر.

ترقى موراتالي بأفضل ما يمكن: عمل حتّى سنة 1989 في صحيفة بلدية طشقند ثمّ في صحيفة الجمهورية، ثمّ لم يُتَح له العمل في الصحف على مستوى الاتحاد السوفييتيّ، إذ رحل الاتحاد نفسه، وبعد عام من رحيل الاتحاد السوفييتيّ دخل المدرسة الإسلامية.

ولكن في البداية، بدت الوظيفة غير مهمّة للغاية بالنسبة إليه وبالنسبة إلى نوريّة أيضاً، بدت نوعاً من الإضافة إلى النجاح الرئيسيّ لكلّ منهما لدى الآخر. فالحبّ لا يُظهر بشكل واضح تقريباً -بطريقةٍ ما خارقة للطبيعة- تلك الفرص التي ستتاح لك في الحياة، ولكن أيضاً يجعل من الممكن تجربة كلّ شيء كما لو أنّه لم يكن قد فاتك. وقد اتضح أنّ الحبّ السعيد يصعد إلى السماء أفضل من أيّ عمل آخر، مُحدّثاً التجربة نفسها التي تُحدّثها العشرات من الأعمال الناجحة.

في هذه الأثناء بدأت «البيرسترويكا»، وبقي بعض الوقت غير قادر على أن يفهم -تماماً- ما يحدث، إذ لم يكن من أولئك الذين في إمكانهم على

الفور التقاط التغيّرات في الوضع، لذلك ظلّ -طوال سنوات حكم غورباتشوف كلّها- ينتقل من هذا الاتجاه إلى ذاك، لكنّه في المحصّلة بقي كما لو لم يتحرّك من مكانه. كان عدم رضى نوريّة عنه يزداد، وتبيّن أنّها كانت تنتظر منه أن ينطلق بقوة أكبر. انظروا كيف يرتقي الناس في موسكو، وهنا أيضًا!

بعد ولادة طفلها الأوّل، تحوّلت إلى عارضة أزياء أكثر من أيّ وقت مضى، وخانته، ولا شكّ في أنّه كان يعرف ذلك، خانته مع رجل أعمال ثريّ في الظلّ. كان في إمكان موراتالي أن يدينها، لكنّه فضّل التريث واللعب على خوفها، وأوصلها قريبًا من حقيقة أنّه يعرف كلّ شيء، رآها كيف تتوتّر ثم تركها مطمئنًا، معتقدًا أنّ كلّ شيء -كما يقولون- سيكون على ما يرام. الشيء المضحك أنّ هذا الخوف كان يمكن أن يُستدعى لديها بشكل لا لبس فيه حتّى الآن، على الرغم من أنّ هذا الشخص لم يعد موجودًا منذ سنوات عديدة. حاليًا يصيبها هذا الوضع بالمرض بالفعل، ولكن في ذلك الحين...

في تلك السنوات نفسها من فترة حكم غورباتشوف، بدأ يغوص أعمق في الدين، قرأ القرآن والحديث، دفعته المشاكل في الأسرة إلى الإسلام، لذلك يعتقد أنّه اقترب من الله، ليس دون تأثير من نوريّة. ربّما كان الصبرُ الشيء الرئيسيّ الذي علّمه إياه الإسلام، فالجهلة فقط من ينظرون إلى الإسلام على أنّه يبشر بالعنف والقتال، أمّا في الواقع، الإسلام يُعلّم الصبر وحسب. الصبر ربّانيّ. لولا الإسلام، من يدري ماذا كان سيحلّ بعائلاتهم خلال

سنوات الـ «بيستروبيكا» الفوضويّة؟ فكلّ شيء كان يمكن أن ينفجر، كيف سيكون ذلك؟ تمكّن موراتالي من إنقاذ أسرته من خلال ضبط النفس فقط، وقد تمكّن أيضًا من تقريب نوريّة إلى الإسلام، وكان ذلك العمل معجزة بالفعل.

هل كانت نوريّة تدرك في أيّ شرك وقعت؟ ربّما لا. لكنّ الإسلام في ذلك الوقت أصبح -بالفعل- ظاهرة في الجمهوريّة، بالإضافة إلى ذلك، ربّما أرادت نوريّة استخدام الدين لصالحها. لم تتجنّب ما يسبّب إحراجًا لـ «موراتالي». تفترض نوريّة أنّ موراتالي يتظاهر بأنّه رجل صالح وحسب، ولكنّه في الواقع رجل تافه وفساد. لكن، حسنًا، وإنها لا تعارض إجراء منافسة بينهما، لإثبات أيّهما أكثر أخلاقيّة.

جاءت اللحظة الحرجة عندما عرض عليها الصلوات الخمس. وافقت، فالصلاة تُغيّر الإنسان تمامًا! لم تُغيّر الصلاة نظرة موراتالي إلى العالم كلّه فقط، بل -على سبيل المثال- كان يأكل، ينام ويتنفّس بشكل مختلف تقريبًا. وأصبح يحبّ نوريّة أكثر من أيّ وقت مضى.

بالمناسبة، لقد سهّل الإسلام التواصل بينهما. في الماضي، بغضّ النظر عمّا كان يقوله موراتالي ويكون جوهريًا، فقد كانت نوريّة تدخل في جدال معه. كان واضحًا أنّه لا بدّ من المضيّ بشكل سرّي. لذلك، مباشرة بعد الزواج، كان لا يتحدث عن الأشياء المهمّة بالنسبة إليه. أمّا الآن فناقش كما تشاء بحريّة، لا يوجد إلّا شرط واحد فقط: لا تجدّف بالدين ولا تقاطع الحديث، بل عزّز قضية الله.

ليس صحيحًا أنَّ المرأة المسلمة مهانة مُذَلَّة. ألم تكن زوجة النبي الكبرى «خديجة» مهمّة؟ لقد كانت أوّل مَنْ كشف لها النبي الدين الجديد وأوّل مؤيّد له. يعلم الجميع مدى نشاط زوجته الشابة الحبيبة «عائشة» بعد وفاته، كم روت عنه الأحاديث، بالرغم من وجود آراء مغايرة لدى بعض الناس، ولكن مَنْ يدرى؟ انطلاقًا من انتشار الإسلام السريع، لا يمكن أن يكون تأثيرها غير صحيح.

غادر موراتالي إلى موسكو ووعده نوريّة بأنّه سيحاول إحضارها والأطفال في أقرب وقت ممكن. من المحتمل جدًا أنّها ستكون مساعدًا جيدًا له في موسكو.

في الحقيقة، فإنّ نورية - حتّى بعد أن اعتنقت الإسلام وأصبحت تلتقي معه بالتفكير - لا تزال تفضّل أن تكون منافسًا وليس مساعدًا. في موسكو، لم يكن يعرف ماذا سيأتي منها أكثر: الفائدة أم الأذى!

أذهله حجم الفساد في موسكو، وغالبًا ما كان يتحدّث عنه في اجتماعات الصلاة في المركز، تلك الاجتماعات التي - للأسف - لم يكن يحضرها إلّا عدد قليل من الأشخاص، عدد أقلّ ممّا كان يتمنّى.

لكنّ نورية كانت تتصلّ وتسأل إن كان الوقت قد حان كي تحزم أغراضها؟

- اشتقت إليك كثيرًا، يا عزيزي، ألا تريد حقًا أن تعانقني؟ أن تضمّني إليك؟

حاول بهدوء التنفّس بعمق والتفكير في الإجابة. قال:

- أشعر أننا معًا الآن، في التواصل الروحي، كأننا نصلي معًا. وافقت بتواضع:
- وأنا أشعر بالتواصل الروحي معك أيضًا، ولكن ألا يحتاج الزوج والزوجة إلى تواصل حميم أكثر؟
- أفكر في الأمر يا نوريّة. أنت تعلمين (لقد جاءته الفكرة فجأة) أنني أعيد اكتشاف ما يبدو أنه معروف. إننا نحتاج الحميميّة الجسديّة من أجل الإنجاب فقط، لا من أجل شيء آخر، وقد قلت إننا لسنا في حاجة إلى أطفال جدد.

انفجرت وقالت:

- اسمع، توقّف عن هذه الخرافات الجديدة! ماذا حدث لك؟
- هذه ليست خرافات جديدة، عزيزتي، أنا بالفعل أعتقد ذلك. راوده الشك لحظةً في الحقيقة: أليس هذا لفّ ودوران؟ لا، لا بدّ من هذا.

قالت:

- حسنًا! سآتي، ثم نرى. ولكن إذا كنت سآتي، فمتى ذلك؟
- هذا هو السؤال، يا عزيزتي. وضعي هنا محفوف بالمخاطر، لذلك ما زلت لا أستطيع دعوتك بأيّ حال من الأحوال.
- لكنك استأجرت شقة، وافتتحت المركز. ماذا غير ذلك؟
- ليس الأمر بهذه البساطة. نعم، هناك بالفعل ثلاثون شخصًا في المنظّمة، على الرغم من أن نصفهم لا يكادون يأتون للصلاة. نقوم

بالكثير من الأعمال المتنوعة، ولكن كلّ هذا يتوقّف على مساعدة جورابايف، ويمكنه إيقافه في أيّ وقت، ماذا بعد ذلك؟ لا، يعاني المركز الآن من ظروف ماليّة صعبة للغاية. ما لم تتحسن الظروف، فإنّني ببساطة لا أملك الحقّ في دعوتك.

قالت شاردة التفكير:

- حسنًا. أدعو الله أن تُحلّ هذه المشاكل كلّها قريبًا.

- شكرًا. بارك الله فيك.

ثمّ راوده الشكّ: هل فعل الصواب؟ الأهم من ذلك أنّه لم يكن متأكّدًا، فهو لم يستطع أن يشرح لنفسه ما كان يفعله هنا في موسكو! واو! لقد حقّق الكثير، ماثرة الإيمان: العيش من أموال دائرة الإفتاء في شقّة فسيحة، التجوّل في مدينة غنيّة والاستمتاع بخدمات اقتصاد السوق المتقدّم جميعها.

بطالة، بلا عمل؟

لا، إنّهُ نفسه لا يفهم معنى حياته هنا، حتّى يجعلها زهدًا حقيقيًا. إنّهُ لا يملك الحقّ في نقل عائلته إلى هنا!

-15-

لم يعرف نيكولايف كيف يتّصل بـ«موراتالي». في البداية، عندما اتصل به نيكولايف، كان يريد مساعدته، أراد أن يتحسّس نوعاً من الصلة، أن يبني جسراً -ربّما- بين الأرثوذكسيّة والإسلام وأن يقدم عرضاً صاخباً.

ولكن بعد ذلك اشتكت دار النشر «بروسكورين أند كومباني» أنّ المُلّا خدعهم. وكانت دار النشر مثل مؤسسات بروسكورين جميعها، مرتبطةً بهياكل شديدة الالتواء وإجراميةً أيضاً. اتصل به مدير دار النشر صموئيليف، ثمّ موظّف آخر من بروسكورين، بما أنّه كان قد أوصاهم بـ«موراتالي»، يتوجّب عليه أن يشرح لهم هذا كلّه. لكن أنّى ذلك! لم يعد موراتالي يسمع.

قام على الفور بحشر نيكولايف في الزاوية:

- سيرغي، دعنا نتفق على ما يلي: العلاقة مع الناشر من شأنى أنا، فأرجو أن لا تتدخل.

- لكنّني من زكّاك لهم!

- مع ذلك، أنا لم أخدعهم ولا أكذب عليهم، هذا كلّ ما يمكنني أن أخبرك به.

لقد تحدّث بثقة كما لو كان لديه المال حقّاً! نعم، ربّما ليس «كما لو كان» ولكنّه كذلك في الحقيقة!

قرّر نيكولايف الاستمرار كما بدأ. اتصل بالناشر. يقال إنّ رحيموف

شخص جادّ، يجب أن يُمنَح فرصة. المبلغ كبير، لن يجمعه دفعة واحدة. ولكن أن يكون المبلغ تحديداً كبيراً، وأن يكون الشخص جادّاً، بمعنى أنّه يمكن الضغط عليه، لم يوفر الهدوء لجماعة بروسكورين. قالوا إنّ بروسكورين نفسه، لا بدّ أنّه كان مهتماً، أو ربّما كانت لديه حساباته لهذا المبلغ بطريقة ما. وحالياً يطلب التعامل مع المُلّا بصرامة وعدم التفاوضي عنه على الأقلّ.

بشكل عامّ، وقع موراتالي ولن يحسده أحد على ذلك. لكن دعنا نفترض أنّ نيكولايف سيتعامل مع هذا الأمر كما يقترح المُلّا نفسه: أن لا يتدخل، فدار النشر ليست موضع اهتمامه. لنفترض أنّه يريد فقط مساعدة موراتالي في الترويج للمركز بصفته مكاناً لا يصلي فيه إلّا عدد قليل فقط من الناس، ولكن أيضاً بصفته مكاناً يحدث فيه التقاء معين بين الأرثوذكسيّة والإسلام. فكيف يتحقّق ذلك؟ لم يعرف نيكولايف الجواب، وهنا كان قد تلقّى خبراً للتوّ عن الأب فاسيلي الذي طرح أفكاراً جنونيّة، تقود -على ما يبدو- إلى المكان الذي يحتاج إليه. هل يساعده؟ وسرعان ما اتصل هذا الأب نفسه بـ«نيكولايف»، ودعاه إلى اجتماع في مدرسة في شارع أوساتشوف في تاريخ معيّن، في الساعة السابعة.

وفي أحد مساءات تشرين الثاني الذي كان -بالفعل- ثلجياً وبارداً بشكل غير متوقّع، اقترب نيكولايف من مدخل مبنى من الطوب الرماديّ وقد بدا يشبه المدرسة التي يحتاجها.

جاءت الريح من تحت مصابيح الشرفة بندف ثلجية أرجوانية وألقت بها على سيارتين فقط متوقفتين أمام سيارة نيكولايف. لم تكن هناك أي حشود تتقدم نحو المبنى، لكن الأب فاسيلي قال إنه لا بد أن يحضر اللقاء أكثر من مئة شخص.

العاصفة الثلجية التي طيرت أوراق شجر الحور المسودة التي لم تطيرها الرياح من قبل، غطت نيكولايف كاملاً بينما كان يسير على بعد أمتار قليلة نحو المدخل. نفص نفسه في الردهة الفارغة. استقبلت الضيوف مربية ترتدي معطفاً أزرق ورجلٌ ملتصق نحيل يدور بإصبعه حلقة مفاتيح.

تقدم نيكولايف إلى الرجل ولم يسبق له قط أن رأى الكاهن من قبل:

- الأب فاسيلي؟

- لا، لا. أنا مدير المدرسة. من فضلك، اخلع معطفك في قاعة النشاطات في الطابق الرابع.

في غرفة تعليق المعاطف، تلك الغرفة المحاطة بشبكة من الخلايا الكبيرة التي تصل حتى السقف المطلي باللون البيج، علّق نيكولايف معطفه الأسود الطويل على شّاعة فارغة تقريباً وتوجّه نحو الدرج.

ربّما لم تخف المربية ولا المدير ذو اللحية السوداء ابتسامة الازدراء نفسها التي -ربّما- كان يراها نيكولايف في كلّ مكان من حوله بمجرد أن يشرّد تفكيره في أشياء مجنونة مثل إنقاذ بلده أو تدميره. لم يكن يُسمح لأحد بالتكهّن بأن روسيا سوف تموت سوى لعدد قليل من العباقرة الذين يُعدّون أغنياء مسرفين، لكنهم واضحين. تضع فئة المثقفين العاديين أسئلة مثل هذه جانباً،

وإذا ما تحدّثت عنها تتلقّى تشخيصًا صامتًا أو حتّى مسموعًا: ما بك أنت؟ هل فقدت وظيفتك؟ ألا يمكنك الحصول على دعم لتقوم ببحث علمي، بنشره أو بمناقشته؟ ولم يكن هذا مجرد رأي خارجي، وقد كان شعور نيكولايف الداخلي على النحو التالي: كان الفشل الحكومي مرتبطًا بطريقة ما بالانشغال بقضايا مثل هذه. إذا كنت حقًا خائفًا من موت البلد والإنسانية، فحينئذٍ - ببساطة - ليس لديك الحق في القيام بكل شيء أنت مضطرّ إلى القيام به في معظم الأعمال الحديثة المسمّاة «الذكيّة». وإذا كنت لا تزال ترغب في البقاء في منصبك والحصول على راتبك، فالرجاء، إمّا أن تصمت إزاء هذه القضايا أو أن تتكلّم مع ابتسامة ساخرة.

كانت هذه المصيبة العامة، لكنّ نيكولايف كان يعرف أنّ لديه مصيبته الخاصة التي تتمثّل في حقيقة أنّ معظم الأشخاص الناجحين قادرون على فصل التقلّبات الفلسفيّة الموجودة لدى الجميع عن السلوك اليوميّ. أوّلاً، حقّق موقعًا متينًا في العمل، وبعد ذلك فقط، في عطلة نهاية الأسبوع - على سبيل المثال - فكّر في مصير العالم. كانت الأشياء لدى نيكولايف تزحف على نحو خطير بعضها فوق بعض، وهتكت الحدود بسهولة، فكان يكبح نفسه بصعوبة حتّى لا يسيء إلى المبشرين الأميركيّين الآخرين الجالسين في مكتبه ولا يلصق بهم قضيّة خداع قانوني. لقد فعل ذلك بالفعل، ثمّ اضطرّ إلى اللفّ والدوران حول الموضوع.

لقد كان ذلك بالفعل مرصًا تقريبًا، ألا وهو عدم القدرة على كبح ما يسمّى «الدافع الأوّل»، وأسوأ شيء أنّه - في بعض الأحيان - لم يكن يريد حتّى التغلّب عليه!

والآن، كان نيكولايف يأمل في أعماقه، وهو يصعد إلى الاجتماع، أن لا يتمكّن الأب فاسيلي من إشفائه من هذا المرض. على العكس من ذلك، سيثبت المرض عنده ويقنعه بأنّه ليس انحرافاً على الإطلاق، بل إنّ، على العكس، شيءٌ جديرٌ بالثناء. في الوقت نفسه، لم يتوقّف نيكولايف عن تذكّر أنّ المرضَ مرضٌ، ممّا جعل شعوره أصعب بسبب ذلك.

وفي الطابق العلويّ، في قاعة الاجتماعات الكبيرة، كان هناك ستّة أشخاص فقط. تُرى، هل وصل إلى المكان الصحيح؟

ولكن بعد ذلك ظهر واحد آخر ذو لحية سوداء، أضخم من مدير المدرسة، يرتدي رداء أسود فوقه جاكيت أسود. كان اللباس غريباً بعض الشيء، وكان هناك بقع حمراء على وجهه كأنّه مصاب بالحمّى. كان واضحاً أنّ هذا هو الأب فاسيلي.

بدأ الحديث حول التناقضات بين الطوائف. كانت مساعدته المسيحيّة المسؤولة عن الدعوات قد اتصلت بالجميع وأخبرتهم أنّ الاجتماع غداً، على الرغم من أنّه متأكّد أنّه حدّد لها تاريخ هذا اليوم. قال:

- الموجودون هنا اتصلت بهم بنفسي، إذا جاز التعبير، رئيس الحركة والجماعة كلّها. لا، لا يمكنني تحمّل ذلك! (ضرب جبهته بقوة، ثم ضغط عليها وأضاف): أرجوكم - جميعاً - الحضور غداً في هذا الوقت!

نهض مدير المدرسة ويده المفاتيح، وقال:

- هذه القاعة مشغولة غداً، لكنّنا سنجد مخرجاً.

- حسنًا، الآن، لن يكون اجتماعنا دون جدوى، يا يفجيني أليكسيفيتش!
(توجّه الأب فاسيلي إلى رجل ذي لحية حمراء في الصف الثاني) ربّما
ستتحدّث على الفور، سمعتك تقول إنَّك مضطّرّ إلى المغادرة مبكرًا.
استدار صاحب الوجه الأحمر وقال:
- لكن أمام من أتحدّث؟
كان قد تجمّع عشرة أشخاص في القاعة الكبيرة، وتقدّم الرجل إلى الأمام،
وقدّمه الأب فاسيلي:
- كاشانوف، يفجيني أليكسيفيتش، أشهر مستشرق في بلادنا، عالم
صينيّات ودكتور في العلوم.
جلس الأب فاسيلي نفسه إلى طاولة أمام خشبة المسرح ووقف كاتشانوف
في مكان قريب بمظهر محاضر متمرّس فارغًا يديه، ثمّ بدأ يخلّل أصابع يده في
لحيته.
- بدأ الحديث قائلاً:
- في الفولكلور الصينيّ، هناك مثل «الغيبوبة الكبرى»، «دا كواي»، إنّه
يعني الرغبة في تجميع الأشياء المتعدّدة وخلطها. على ما يبدو، إنّ
الرغبة في خلط الأشياء حاضرة في الثقافة الروسيّة أيضًا، ما يشهد على
ذلك المحاولة هذه. وأنا أردت أن أبين أحد الأخطار التي تواجه هذا
المسار مستشهدًا بهذا المثل الصينيّ القديم.

وسرد قصّة لطيفة كيف أنّ جازي الإمبراطور «الهيولي»^{*} وهما إمبراطور الشمال وإمبراطور الجنوب زاراه من أجل مكافأته وشرعا في منحه الشكل، فصنعا العدد المطلوب من الفتحات فيه.

- وبعد ذلك اتخذ أعظم إمبراطور هيولي هون-دون شكلاً، ولكنّه مات للأسف.

هنا نظر كاتشانوف -وهو يمدّ يديه بشكل كوميدّي- إلى الوراء، إلى الأب فاسيلي. ومع ذلك، عاد ليصحّح الموقف. قال:

- حلّت بنا اليوم -بالطبع- مصيبة مغايرة تماماً، مصيبة تضارب المواعيد، لكنني أظنّ أنّ هذا الحادث حدث صدفةً. مع ذلك، فإنّ المصيبة الرئيسيّة هي الإفراط في التنظيم والشغف بالشكل. لقد آن الأوان - للأسف- كي أذهب.

نظر إلى ساعته وأضاف:

- كل التوفيق لكم، أتمنّى لكم النجاح! وفي أثره نهضت امرأة أخرى، كان الأب فاسيلي قد طلب منها التحدّث، لكنّها لم تبق. كذلك فعل دكتور العلوم المستشرق.

في تلك الأثناء نهض الأب فاسيلي من خلف الطاولة الصغيرة، وردّ شعره غير الطويل من الجانبين ثمّ بدأ الحديث:

- ربّما سيفاجئكم كلامي، لكنني أودّ أن أتكلّم عن الخوف. في وقت

• المادّة غير المتعيّنة (chaos).

سابق، كنت قد توقّفت -فجأة- عن الخوف. بشكل عام، مهما كان،
فقد تحرّرت تمامًا من الخوف!

نظر الأب فاسيلي إلى نيكولايف الذي ارتعد شيء ما في داخله. حتّى عندما
كان يجلس إلى الطاولة، فقد بدا لـ«نيكولايف» أنّ الأب فاسيلي يسلّط عليه
نظرات قاسية، ولكن كان من الواضح أيضًا أنّ الأب قد خرج عن الاتزان الذي
يفرضه هذا الفشل المعلن، لكنّه الآن راح يسلّط نظراته على الأشخاص
الجالسين، أمّا نيكولايف فقد رأى -فجأةً، وبوضوح كبير- القاعة الفارغة على
اتساعها تسطع بأنوار الثريّات ذات الكريّات الكرستاليّة، وقد انعكست في
النوافذ السوداء غير المغطاة بالسّاتر بشكل كامل وفي صفوف المقاعد المطليّة
باللون الأصفر.

تابع الأب فاسيلي:

- صحيح، لقد توقّفت عن الخوف ليس بشكل فولاذيّ مرّة واحدة وإلى
الأبد. يجب تعزيز هذا الأمر مرارًا وتكرارًا. وإليكم هنا ما يمكن أن
يساعدنا: أكثرُوا من تذكير أنفسكم بأنّ مهمّتنا -توحيد أوراسيا- صعبةٌ
إنسانيًّا لدرجة أنّنا -في الواقع- يجب أن نحذر الفشل هنا. هذا هو
الشيء الوحيد الذي أخشاه، وأنا لا أخجل من هذا الخوف! لكنني لا
أخشى أن أموت من أجل ذلك. لكن دعونا أن لا ننسى أنّهم يحاولون
إقناعنا بشيء مختلف تمامًا: أنّنا نخشى بعض الأشياء الصغيرة مثل
الزعران في الشوارع أو المتاعب اليوميّة. لكنّ هذا كلّّه تزوير! إنّهم
يوحون إلينا: «بما أنّك تخاف من هذه الأشياء، فهذا يعني أنّك غير

مهمّ، فمن أين لك أن تقوم بأمر كبير؟! لذلك دعونا لا ننسى من نحن وما هو هدفنا.

تحدّث الأب فاسيلي بالروح هذه بعض الوقت، وبدأ لـ«نيكولايف» - فجأةً - أن أمامه مجنوناً، على الرغم من أنّه شعر في الوقت نفسه أنّه مستعدّ لتصديق هذا الرجل تماماً بلا حدود.

- لقد جاء في أغنية كنّا نريد أن نؤدّيها عن هذا الموضوع بالتحديد، التحرّر من الخوف. ودعا الأب فاسيلي الفتيات: «أيتها الفتيات، من فضلكنّ! كلمات مأخوذة من إنجيل رامكريشنا».

تقدّمت ثلاث فتيات سمرات إلى الأمام وبدأن التصفيق وخطب الأرض بأقدامهنّ، وكُنّ قد ثبّتن أجراساً صغيرةً بمعاصمهنّ وكواحلهنّ. غنّين باللغة الروسية بأصوات عالية اخترقت أذانهم. وراح الأب فاسيلي يغني بصوته الحادّ الذي يشبه رنين المعدن:

أنا لست متقيّاً، أنا لست متقيّاً!

أنا لست متقيّاً، أنا لست متقيّاً!

من يجرؤ على تقييدي؟

أنا ابن الربّ، ملك الملوك!

- - غنّوا جميعاً!

بدأ الأب فاسيلي يصفق بشكل مبالغ فيه كما يفعل المغنّون موجّهاً القاعة. ورقص بالطريقة الهندية، كما قامت الفتيات - بشكل إيقاعيّ شديد - بتحريك أوراكنهنّ.

أنا لست مقيداً، أنا لست مقيداً!

أنا لست مقيداً، أنا لست مقيداً!

من يجرؤ على تقييدي؟

أنا ابن الرب، ملك الملوك!

- توقّفن! (أوقف الأب فاسيلي الفتيات) شكرًا للجميع! أنتظركم جميعاً هنا غداً، في هذا الوقت! آسف على هذا الإخفاق.

شخصٌ ما صفّق له، لكن، عندما كانوا يغنون، جلس الجميع في القاعة بصمت دون تصفيق. كانت الأفكار تضحّج في رأس نيكولايف، ولم يكن يعرف كيف يفكر في كلّ هذا.

تقدّم من الأب فاسيلي وناولته بطاقة تعريف شخصية.

- أها! لقد حزرت أنّه أنت. انتظرني من فضلك، سأفرغ لك حالاً.
وسرعان ما أغلقا المدرسة وذهبا ليركبا في سيارة نيكولايف للتحدّث. سأل الأب فاسيلي:

- هل أعجبك؟

- شيء ممتع. أنا أفهم أنّ الاجتماع -من حيث الجوهر- لم يتحقّق، ومع ذلك...

- ألم ترغب حينئذٍ بـ...

- ألم يكن بإمكانك أن...

راحا يتكلّمان معاً ثم توقّفا معاً. ولم يكن واضحاً هنا من يطلب مساعدة

الآخر.

طلب منه نيكولايف:

- ألا يمكنك توجيه جهودك الوجدوية نحو الإسلام؟ لقد افتتح صديقي -الملا الأوزبكي- مركزاً إسلامياً هنا، كما حدثتكَ عبر الهاتف، وهو يخطط لتقديم عرض افتتاح، وقد يدعوك ضمن ضيوف آخرين، وأنت سترى بنفسك.

لكن يبدو أن الخلل الذي حدث كان لا يزال يعذب الأب فاسيلي.
طلب منه:

- هل يمكنك أن توصلني إلى المنزل؟ لا يزال عليّ إجراء بعض المكالمات. أنا -بالفعل- لا أثق بهذه المرأة على الإطلاق.
- لا مشكلة، لنذهب.

كانت العاصفة الثلجية لا تزال تعصف، لكن أنوار المصابيح الأمامية كانت تخترقها بشكل جيد، وكان هناك -بالفعل- الكثير من الثلوج على الأرض فبدت السيارة كأنها تطفو، أو تنزلق انزلاقاً.
قال الأب فاسيلي موضحاً:

- المسلمون أشداء، إنهم يقدمون جماعتهم بحزم وقوة، ولكن يبدو أنهم لا يسمحون لأي شخص آخر بأن يروج لأي دعاية في وسطهم. سأحضر حفل الافتتاح بكل سرور إذا دُعيت، ولكن ألا ترغب أنت في حضور اجتماعنا غداً؟ سيكون هناك المزيد من الحضور، وسيكون لديّ مزاج أفضل، وربما تمكّننا غداً من التفكير المشترك في ما يمكن أن نعمله مع المسلمين.

قال نيكولايف دون أن يعده بشيء:

- سأحاول.

كانت لوحة الـ«تابلو» تنير داخل السيارة المظلم بشكل مريح، والثلوج تتطاير ذهبيةً أمام المصابيح الأمامية، لكن نيكولايف لم يرَ هذا كله مثلما رأى الظلام حولهما. كان الصداق الناجم عن شدة الأخطاء يضغط عليه، وليس حلاً أن يسكر، إنه بذلك يكرّر المشكلة نفسها. وهكذا، كانت لديه رغبة في أن يؤمن بشيء، حتى لو كان ذلك ما يقدمه الأب فاسيلي هذا.

كان نيكولايف قد فهم بشكل عام أن الشخص الذي يجلس بجانبه قد يكون من الناحية النفسية مريضاً أكثر منه.

سار على طول شارع ماركس السابق، تاركاً الكرملين على اليمين، ناظراً إلى النجوم المضئية التي تنير عتمة السماء فوق الأبراج باللون الأحمر دون أن تعتمد على شيء. فكّر فجأة: هل سينقضي عمري كله أيضاً بلا أساس؟

في حقبة العمل الصحفي، ربّما سنة 1990، في ذروة الجوقة المعادية لـ«سوفييت»، كان يوازن بين تلك النجوم والكؤوس المليئة بالدم التي يرفعها نظام آكلي لحوم البشر فوق البلاد والعالم.

يا ربّ! ما الشيء الذي لم يكتبه حينها؟ حسناً، لم يكونوا ينشرون له كل شيء. كان يكتب كل شيء بشكل موثوق، ومع ذلك، فكل شيء كتبه كان هراء.

أنزل الأب فاسيلي في حارة بولشوي سيرغيفسكي وأسرع إلى منزله في شارع شيرباكوفسكي. لا، لن يذهب إليه غداً. فقد وعد الأب فاسيلي -

بالفعل - بالمساعدة في مَدَّ جسور مع المركز الإسلامي، والآن كان من الضروريّ الاتفاق مع موراتالي.

وسرعان ما توجّه نيكولايف إلى منزل موراتالي. جاء إليه ومعه زجاجة فودكا.

كان يوم سبت رطباً، وكانت الثلوج تذوب بالطبع، لكنها كانت تتجمّد بالفعل من جديد، أمّا الإبر الثلجيّة فكانت تلمع بيضاء في بعض الأماكن. عرض موراتالي الشُّقّة لـ«نيكولايف» وعرض عليه الحديث في الغرفة، جلسا على الأريكة كلّ منهما على طرف. جلس موراتالي بالقرب من النافذة، حيث كان الضوء يسقط على وجه نيكولايف.

لم يُخْرِجْ سيرغي زجاجة الفودكا بعد، كان ينظر إلى المُلّا ليرى تعابير وجهه، على الرغم من أنّه كان عكس الضوء، فماذا يمكن أن يرى؟ بدت الأشياء قاتمة وضاعطة. وكان هناك نوع من المعاناة شوّهت وجه موراتالي في بعض الأحيان على شكل خطوط متعرّجة.

- إذن، عزيزي المُلّا، من حيث المبدأ، أنت مهتمّ بحفل الافتتاح، نحتاج فقط - إلى مناقشة التفاصيل. هل فهمتُ ذلك بشكل صحيح؟

هزّ موراتالي رأسه:

- ربّما.

- والمعنى؟

- لماذا حفل الافتتاح؟ هذا هو السؤال. هذه ليست تفاصيل.

- حسناً، لماذا! لماذا الحفل ضروريّ بالنسبة إليك؟

أجاب موراتالي:

- هو ليس ضروريًا بالنسبة إليّ، إنّها فكرتك.
- غير نيكولايف نبرته قليلًا:
- إذن، حسنًا. سأشرح كيف أرى الفكرة. على ما يبدو، كانت هناك حاجة إلى شخص متزلف قليلًا مثل رجل أعمال يسعى إلى الشهرة.
- كان يشعر بالاشمئزاز من نفسه، ولكن لم يكن هناك مفرّ من هذا الإلحاح:
- أليس هذا صحيحًا؟ سيكون الوضع جيدًا، أليس كذلك؟
- أجاب المُلّا بشكل غير مفهوم:
- ربّما!
- ماذا هناك؟ هل لديك أيّ شكوك؟
- نعم، كانت هناك شكوك.
- صمت نيكولايف وأسند ظهره إلى الأريكة. حاول تجميع أفكاره مستديرًا عن موراتالي، ثمّ أعلن فجأةً:
- دعنا نشرب الفودكا!
- أوجد لديك؟
- نعم.
- حينها نهض موراتالي بصمت وذهب إلى المطبخ، وهناك أخرج من خزانة الحائط كأسين صغيرين ووضعهما على الطاولة. قال نيكولايف مسرورًا:
- نعم! هذا موضوع آخر!
- ابتسم موراتالي وهو يمدّ يديه. بدا أنّه على وشك الجلوس وظهره إلى

الضوء مرة أخرى:

- أعلم أنّ الأمور في موسكو لا تتمّ بطريقة مغايرة. لتذكّر التبرّعات.
- قال نيكولايف وهو يسحب الفليّنة من عنق الزجاجة بواسطة لولب فتح:
 - نعم، يجب أن نتذكّر التبرّعات.
- كان لا بد من فهم هذا كلّه. ماذا اتّفقا في شأن العرض؟ أكّد المُلّا نفسه سيّد الموقف كاملاً، لكنّه لم يقل: «لا»! وعده نيكولايف بالأب فاسيلي، وتمسّك بوجود كاهن أرثوذكسيّ. تغصّن وجه الآخر وقال إنّهُ سيفكّر في الأمر، لكنّه لم يرفضه! وهذا يعني أنّ شيئاً سوف يحدث!
- ولكن كان الأمر مثيراً للاشمئزاز لدرجة كبيرة، عندما يعلّقون مبادرتك بخيط رفيع ورقيق، فقد ينهار كلّ شيء في أي لحظة.
- حسناً، نخب النجاح!
- تمكّن نيكولايف من رفع الكأس أولاً، ولا بأس في ذلك.
- ردّد موراتالي بغباء:
- نخب النجاح.

شرب نيكولايف ربع زجاجة كاملاً. هل استمرّ الضغط؟ حسناً، إذن...
وكان جيّداً تذكّر موضوع التبرّعات، بالطبع. من علامات هذا الصيف كانت جلسة اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ الخاصة بالاقتصاد، وهبوط الشابّ الألمانيّ روست بطائرته الشراعيّة في الساحة الحمراء التي عُزل وزير الدفاع سوكولوف على أثرها من منصبه مع مجموعة من رفاقه. وعندما كانوا يغادرون مسرّحين، كانت صورة المارشال لا تزال تلوح في الحديقة على

أنبوبين حديديين. وفي يوم الاثنين رأوها وقد انتزعت من الأرض ووُضعت هنا، على العشب، ووجه المارشال للأعلى فيها.

كانوا يعيشون في مخيم في ضواحي موسكو، ولكن في عطلة نهاية الأسبوع وجدوا أنفسهم مسرّحين، لكنهم كانوا مضطرين للعودة مساء الأحد.

ألقتك حافلة متأخرة فارغة في جوقة البعوض. على الجانب الآخر من الطريق، خلف الحقل، كانت الغابة مظلمة، في هذه الجهة من الطريق كانت الكتل الإسمنتية من سياج المخيم تومض في العتمة. عند عبور نقطة التفتيش، تسير بين أشجار الحور على طول طريق إسفلتيّ رُسمت حدوده بخطّ مقطّع باللونين الأحمر والأبيض، والآن تبدو بالأبيض والأسود عند الغسق. على اليسار، خلف أشجار الحور، كان العشب في ملعب كرة القدم قد تبلّل بالندى، وبلّل الندى مقاعد المدرّجات في الخلف. خلف المدرّجات، في المعسكر الرياضي، كان بعض السهاري لا يزالون يتدربون أحياناً.

كان الطريق في الأمام ينتهي عند مقرّ القيادة الغارق في أوراق شجر البتولا والهور اللزجة. بالمرور من أمامه والالتفاف حول أرض العرض العسكرية، تمشي على طول صفّ من الثكنات العسكريّة المطليّة باللون الأبيض، المكوّنة من طابق واحد والمسقوفة بألواح بيضاء.

أعلن نيكولايف بعد أن شرب كأساً وحن الوقت للغوص أكثر في

الحديث:

- أيّها العجوز، لا أعرف بماذا أو من! ليس بالإسلام بالطبع، لك أن تفكّر بي كما تشاء، ولكن علّمني كيف أعيش!

ابتسم موراتالي بسخرية، فقد كان يؤمن بأن الداعية ليس مستعدًا للتعليم في أيّ .

- لقد تعبت من الوعظ، وها أنا أشرب معك كي أرتاح...

سأل نيكولايف، ويبدو أنه قد لامس جانبًا حساسًا:

- لماذا لا تنقل زوجتك إلى هنا؟

- عن أيّ زوجة تتحدّث؟ إنّ لدي من المشاكل ما يكفي!

- ألا ترى أنه مع وجود الزوجة، مع وجود العائلة، تكون المشاكل أهون.

ابتسم موراتالي:

- أهون، لماذا إذن طَلّقت؟ كما قلت حينها: «الأفكار كلّها حول النساء»؟

أنت مغرم بالنساء، أليس كذلك، يا سيرغي؟

نظر نيكولايف إلى ساعته:

- دعك من الكلام. اليوم -على الأرجح- سيكون اللقاء مع الفتاة نفسها

التي اسمها تانيا. على الرغم من أنّنا لم نخطّط للقاء اليوم.

أحضر موراتالي صور عائلته، نظر نيكولايف إلى زوجته. كاد يقول: «الكلية

الحقيرة نفسها التي تشبه زوجتي السابقة»، ولكن قال بصوت عالٍ:

- ترانا متشابهان، أنا وأنت.

- أظنّ ذلك.

كان هذا صحيحًا. لم يكن هناك فرق كبير بينهما، إلّا أنّ موراتالي كان أكثر

استقامة من نيكولايف المنحرف.

سأل المُلّا:

- لماذا طَلَّقْتَ؟
- من الصعب القول (لم يكن نيكولايف يعرف في حقيقة الأمر. بدأ يُؤلَّف شيئاً ما، ثم شطبه بنفسه وأضاف): إذا أردتَ باختصار: أرخيت لها الزمام، فانطلقت وحدها.
- لا يجوز ذلك.
- الآن أعلم أنه لا يجوز، ولكن انظر إليك: أنت هنا في موسكو، وماذا تفعل زوجتك هناك؟ (عبس موراتالي شاعراً بالإنهانة، وسارع نيكولايف لتجاوز المنزلق) ولكن مع ذلك، كيف تعيش دون امرأة على الإطلاق: راهب أم قديس؟
- لست قلقاً بشأنهنّ الآن! أنا أقول: المشاكل.
- مع دار الشر؟
- لوح موراتالي بيده:
- ليتها مقتصرة عليها. ليست هي فقط! إضافة إلى ذلك، فأنا مُلّا، واعظ.
- ثم، هناك يوجد مفهوم الثبات الأخلاقي.
- سمعت.
- واقتبس موراتالي آية من القرآن: «كنتم خير أمة أخرجت للناس».
- إنَّها عن العرب، ولكنّها بشكل عام عن المسلمين الحقيقيين. الأمة التي تحمل القداسة، هل تفهم ما معنى ذلك؟ (بدا موراتالي كأنه يحمل كرة قدم غير مرئية بين يديه ويُري نيكولايف هذه القداسة فوق الطاولة، وفجأة رأى هذا) الناس الأرقى عملاً في الدنيا هم المصلّون، والأكثر

إلهامًا هم المؤمنون، وهم -في الحقيقة- يتميزون بالقداسة. أحاول هنا أن أحمل، إن لم يكن هذا «القداسة»، فعلى الأقل «النقاء الروحي». (قال مورالي ذلك بتواضع وضحك، ثم أضاف) كما ترى، فأنا ما زلت أتعلّم!

- ما تفعله صحيح! (سكب نيكولايف لكليهما المزيد من الفودكا) ما تفعله صحيح! يجب أن تشرح ذلك في حفل الافتتاح، ودع الصحافة تحاول أن تتبني هذا البيان! لهذا السبب أنت تحتاج إلى عرض تقديمي! (وضرب بقبضة يده كفّ يده الأخرى) أنا أتكلّم عن نوع من التفاعل الديني، إليك السبب: من أجل الدعوة المباشرة!

- لقد شربنا من أجل هذا.

يبدو أن نيكولايف قد عاد ليلتقط الفكرة بالفعل. وشعر أنّ الشيء الرئيسي -ربّما- قد حدث بالفعل في هذه المحادثة: لقد استجوبه، وأعطاه موراتالي ما يريد.

شاب تافه يسأل رجلاً حكيماً: كيف يمكن العيش دون امرأة؟ أجابه، بالنظافة والثبات الأخلاقي.

«مثل عاهرة!»، فكّر نيكولايف في نفسه. سيرى رجلاً شريفاً، وكما لو أنّه دهش: «كيف يكون ذلك؟ نعم، أنا لا أفهم، أنا لا أؤمن»، على الرغم من أنّه يعرف جيداً أنّ شخصاً فاسداً مثل هذا، ربّما يعرف أفضل من غيره كيف يمكن يكون شريفاً ويعرف مدى سهولة أن يكون كذلك. عموماً، لقد سكر نيكولايف.

مع ذلك، تحدّث فترة طويلة عن روسيا، عن المسيحيّة والإسلام، عن الفودكا والسلطة، ولكنّ ذلك كلّ لم يكن كما يجب، فقد افتقد الكلام لناظم ما. وقد شعر موراتالي بهذا وقال في نفسه: لقد تكلمت أنا قليلاً، وربّما حتّى قليلاً بشكل غير لائق، لكن نيكولايف، لم يعطني المجال للكلام. كان تصوّر سيرغي المسبق أنّ المُلّا أكثر أهميّة وحكمة منه. لكن هذا ليس انطباعاً فقط، فالأمر كذلك في الحقيقة.

من الردهة حيث كان الهاتف، كان نيكولايف لا يزال يتصل هنا وهناك. هل بدأ يفقد وعيه؟

- سيرغي، ألا يكفيك؟

لم يطلب موراتالي منه ذلك أوّل مرة، ولكن بالمناسبة، وقد بدا كأنّه يسأل نفسه: هل سيشرب سيرغي بالفعل لتر الفودكا كاملاً؟

- نعم هذا يكفي! (أعلن نيكولايف فجأةً وقد فاجأ نفسه) إنّها كأس الوداع الأخيرة، وسأذهب.

لوح بالكأس الأخيرة وكان متّجّهاً -بالفعل- إلى الرواق عندما ضرب رأسه شيء فجأةً:

- نعم! كيف تصلّي؟ أردت أن أسأل شيئاً! ماذا تطلقون على الصلاة؟ ركعات؟ أرني كيف أصلّي!

- سيرغي، أنت في حال غير مناسب، في يوم آخر يا سيرغي!

لكنّ نيكولايف جثا بالفعل على ركبتيه، وكان ظهره إلى المطبخ ووجهه إلى موراتالي. اعتمد بيديه على أرضيّة المطبخ محاولاً أن يلمسها بوجهته.

- لكنّ موراتالي أسرع إليه ورفعه ليقف على قدميه.
- سيرغي! هذا تجديد بالدين!
- انتظر! لا، اشرح لي كيف وماذا أفعل؟
- وانحنى نيكولايف مرة أخرى على الأرض. جذبه موراتالي بقوة جعلته يستعيد وعيه لحظةً:
- لا تجرؤ على فعل ذلك.
- قال نيكولايف:
- أوه! يا لك من قويّ.
- اخرج من هنا!
- وخرج المٌلا من المطبخ إلى الردهة، أعطى نيكولايف حقيته ومعطفه وقال:
- من فضلك. استعدّ للخروج.
- جلس نيكولايف على كرسيّ في المطبخ وأعلن:
- لن أخرج حتّى تريني كيف تصلّي!
- تراني أستطيع أن أستدعي لك الشرطة.
- عزيزي، ستحقّق الشرطة أوّلاً من جنسيّتك وتصريح إقامتك، لكنّك على حقّ، سأرحل. على الرغم من أنّي لست في حالة سكر شديد.
- ذهب نيكولايف، إلى الرواق مترنّحاً، ولم يتمكّن من العثور على حذائه.
- أحضر له موراتالي من الغرفة عدداً من أعداد صحيفة «نور» المسلمة في موسكو بعنوان بالخط الأخضر، و«قرآن» بالروسية بغلاف ورقيّ.

- هذا قرآن لك وجرائد، كل شيء موجود هنا: كيف تصلي، ومتى.
- مع ذلك، شيء مؤسف أنك تصرّفت معي على هذا النحو! لقد أهنتني!
ومع ذلك أنا أحبّك!
- وتقدّم نيكولايف نحو موراتالي ليعانقه، لكنّ الآخر دفعه خارج الشقّة
بفظاظة وإهانة، دفعه بقبضة يده في رقبته وبركبتيه ثمّ أغلق الباب.
- غبيّ! كان في إمكانه أن يقدّم لي القهوة لأشرب!
- طرق نيكولايف الباب، ثمّ ضحك وذهب إلى المصعد. «حسنًا أننا لم
نتعارك! هل يمكنني أن أصل إلى المنزل؟»، لم يكن يعي بالفعل أين هو، وماذا
يفعل.

-16-

الأب فاسيلي ينوي السفر إلى الهند.

قام نائب العميد من معهد آسيا وإفريقيا الذي كان موجودًا في أول اجتماع عنده في المنزل، بترتيب لقاء له مع طلاب من روسيا، وفيتنام، وسوريا والهند. حينها تعرّف الأب فاسيلي على الطلاب الفيتناميين الذين أصبحوا ينشدون -أحيانًا- في الاجتماعات التي يعقدها، الطالب الهندي «تشاران» وطالبة الدراسات العليا «رادها» التي دعتَه إلى الحضور إلى كالكوتا حيث كانت تعيش، وقد أخبرته أنها ستعود إلى كالكوتا في شهر تشرين الثاني وتريه المدينة.

حزم أمره واشترى رحلة سياحية لسبعة أيام. أفقرته هذه العملية، لكن عاجلاً أم آجلاً كانت النقود ستنفد على أي حال، أو بالأحرى، كان يجب أن يبدأ العيش على الصدقات.

اجتمعوا مرتين في مدرسة سيرغي فاليريفيتش، حتى إنهم اجتمعوا في دار السينما في كانون الأول، حضر الاجتماع أربعون شخصاً. وفي بداية هذا الاجتماع، وقفت -فجأة- سيّدة متعلّقة بشالها الرمادي المخملي ومعطفها المصنوع من الفرو البنيّ الصناعي وقالت إنها أصبحت بحال جيدة، وقد زال عنها المرض. لم يرتبك الأب فاسيلي:

- في الواقع، لا أقوم بإشفاء المرضى، ولو قمت بذلك لما كان هنا - كما ترون - أربعون شخصًا وحسب، بل ربّما لم يتمكنّ الناس لكثرة أعدادهم من الدخول إلى دار السينما. لكن شكرًا لك على ما قلّته.
- شكرًا لك، يا أبانا.
- ما اسمك؟ تفضّلي، اجلسي.
- وفي نهاية هذا الاجتماع، دسّت له بيد دافئة ورقة ماليّة دافئة، تناولها ووضعها في جيبه. راحت عجوز أخرى -وقد فتحت محفظتها- تبحث فيها عمدًا فترةً طويلة، وهي تقول:
- ستأخذها، يا أبانا، أليس كذلك؟
- أمرها الأب وهو يكرّز على أسنانه:
- ضعيها على الطاولة، تحت الدفتر.
- والتقطت عينه نظرة سيرغي فاليريفيتش المريبة التي تقول: «إذا كنت ستأخذها علانيّةً، فلماذا تحت الدفتر؟».
- لقد دسّوا تحت الدفتر أشياء أخرى. أعاد حساب المبلغ. كان صغيرًا جدًّا، ولكن قليلًا قليلًا، سيكون كافيًا، خاصّة أنّه يعيش بوضع متواضع!
- في الاجتماع الأوّل في دار السينما، كان يطرّ بالفعل فكرة جديدة: أصل الوعي الكونيّ.

بدا له أن للنضال ضدّ الليبراليّة وتوحيد أوراسيا حول نموذج إيجابيّ أساساتٍ قويّة، لكنّها غير كافية. كان أصل الإنسان يتطلّب شرحاً بروح أوراسيّ، وليس بروح أنجلو-أميركيّ.

من أجل فهم كيف نشأ الإنسان وفقاً لـ«داروين»، قرأ الأب فاسيلي كتابيّ: «أصل الأنواع» و«أصل الإنسان». ورأى الأب فاسيلي أن دارون - على الرغم من أن استنتاجه الرئيسيّ كان أن الإنسان تطوّر من القرد، وعلى الرغم من أنّه يؤكّد ذلك بكلّ ثقة - لم يكن لديه أيّ وضوح حول كيفيّة حدوث ذلك. بدت أعمال دارون ممتازةً بعدد الأمثلة الهائل من حياة النباتات، والحيوانات وغيرها من الكائنات الحيّة، لكنّها - في الجزء النظريّ منها - بدت للأب فاسيلي ضعيفة إلى حدّ ما، على الرغم من أنّها بُنيت بطريقة ماهرة للغاية. تتألّف أفكار داروين إلى حدّ كبير من تحفّظات واعتراف بانعدام اليقين، والاستعداد للتخلّي عن الكثير من الأفكار بما في ذلك فرضيّاته الرئيسيّة. وإذا ما قدّم أيّ شخص آخر - كما يقال - أدلّة كافية على وجهة نظر مختلفة، فإنّه سيوافقه طواعية... إلخ.

مثل هذا التواضع مقترنٌ بالحيويّة الكبيرة مع مجموعة متنوّعة لا تُصدّق من الأمثلة، حتّى المختارة منها بشكل خاصّ ومتناقض لإظهار حياد المؤلّف، لا يمكن إلّا أن يثير التعاطف. تمكّن داروين، بقليل من الكلام المحدّد، من إعطاء الانطباع بأنّ ما قيل كثير. مع ذلك، فهو لا يتوانى عن تكرار أنّه لا يناقش قضايا أصل الحياة والوعي على هذا النحو. فهذه هي

الأسئلة الرئيسية! نعم، وإن دارون لا يهتم بإيجاد حلول العديد من الخصوصيات. على سبيل المثال، لا يعرف إن كان الإنسان قد تطوّر من قرد كبير عن طريق تقلص جسده، أو -على العكس من ذلك- من قرد صغير، بعد أن زاد من قوّته. يعترف داروين أيضًا بأنه ليس هناك الكثير الذي يمكن أن يجيب به عن أسئلة نقاد نظريّته في الانتخاب الجنسيّ، النقاد الذين يدّعون أنّها تفسّر -فقط- تطوّر ذكاء القرد الطفيف، ولكن ليس ما يمثله الإنسان الحقيقيّ. في ختام كتاب «أصل الإنسان»، قال داروين بشكل عابر: «إنّ أكبر صعوبة تواجهنا عندما نصل إلى استنتاجنا حول أصل الإنسان هو المستوى العالي من القدرات العقلية البشرية والصفات الأخلاقية». أي أنّ كلّ شيء واضح باستثناء شيء واحد: «كيف أصبح الإنسان إنساناً؟».

قام إنجلز بتأليف نصّ حول الموضوع نفسه، مكرّراً بعض أفكار داروين بشكل كاريكاتوريّ إلى حدّ ما. تغيّر المناخ، وانحسرت الغابات وأجبرت القردة على النزول من الأشجار إلى الأرض. تحرّرت اليدان، فماذا سيفعلن؟ انشغلوا بالعمل، وهكذا حوّل العملُ القردَ إلى إنسان.

في العصر السوفييتي، كانت هذه النظرية -لسبب ما- تُسمّى «نظرية العمل»، على الرغم من أنّه سيكون من الأصحّ أن نسمّيها «النظرية المناخية». لا يبدو أنّ إنجلز قد لاحظ أنّ العمل -بالفعل- عملية إنسانية واعية وأنّ تأكيد فكرة أنّ العمل خلق الإنسان أمرٌ مثير للسخرية، تمامًا مثلما نقول -على سبيل المثال- إنّ هذا الإنسان هو من خلق عقله.

بشكل عام، كان الأب فاسيلي يرى أنّ الكتابة عن أصل الحياة والوعي تُعدّ عملاً غيبياً بين المفكرين. وهذا لا يُعدّ أمراً مثيراً للدهشة، لأنّ العالم بوصفه نوعاً هو انتصار للجبن، ولحلّ هذه القضايا توجد حاجة إلى الشجاعة والحمية والاندفاع وطرح آداب السلوك الفكرية جانباً. هذا هو السبب في أنّ مبدعي الأديان العظماء لديهم الكثير ليقولوه حول أصل الحياة أكثر من العلماء.

ألم يكن أحد العلماء المعاصرين، فلائيل كازناتشيف من نوفو سيبرسك، قد طرح أفكاراً بدت للأب فاسيلي فيها جرأة كافية حتى يقترب من الحل؟ حتى إنّ الأب فاسيلي كان يأمل أن يصبح هذا العالم أحد طلابه أو أتباعه، أو -من يدري- ربّما سيُدعى سلفه؟

كان كازناتشيف، الذي ابتكر نظرية «الموجة المنعزلة» أو نظرية «المجال» في أصل الإنسان -وفقاً للأب فاسيلي- على حقّ في أنّه كان يربط ظهور الإنسان بنوع من الهزة الروحية الكونية الكبرى، ونتيجةً لذلك ظهر الوعي على الأرض.

كان العقل الأوّل -بحسب كازناتشيف- سحريّاً، ووُجد على شكل «حقول» قبليّة. ومن هنا جاء اسم النظرية «المجال». وفقاً لهذه النظرية، فإنّ الأشخاص الأوائل تواصلوا بطريقة تخلو من الكلمات، على غرار التنويم المغناطيسيّ. أمّا تحوّل الترميز إلى التفكير العقلانيّ -كما يقال- حصل في وقت لاحق.

الشيء الرئيسي - وفقًا لـ «كازناتشيف» أنّ الوعي لم يتطور تدريجيًا، لكنّه ومضّ فجأةً، فقد بدأ نشاطه بشكل كارثي خلال التقلّبات الكونيّة نفسها. كان الأب فاسيلي متّفقًا معه في هذا الجانب، وبدا له أيضًا أنّه - بفضل بعض التغيّرات في النظريّات البصريّة - قد أشعل شعاعً كونيّ الجمود لدى الحيوان، وهكذا نشأت النظرة الإنسانيّة للعالم. من قرد تحوّل - فجأةً - إلى إنسان! كما لو أنّ (القرد) اعتدل مستقيمًا مع الكون، محيطًا به كاملاً بعقله وناظرًا في أعماقه. بدا هذا للأب فاسيلي مشابهاً لما مرّ به في تلك الليلة، عندما أدرك أنّه دُعيّ لإعطاء العالم دينًا حيًّا.

يجب على الإشراق الروحيّ نفسه، وفق الأب فاسيلي، أن يهزم القادة القرديين الذين أصبحوا أوّل بشرٍ قدماء. فما هو الأمر الأوّل الذي حدث هنا؟ هل هزّ الكون قردٌ ذلك الزمان هزًّا؟ أم - على العكس من ذلك - فقد وعيّه حركته بقوة استطاعت هزّ الكون نفسه؟ هذا ليس مهمًّا جدًّا.

هذا ما كان يتحدّث عنه الأب فاسيلي مع أتباعه في الوقت الحاليّ، والمثير للدهشة أن يتقبّل هؤلاء أفكارًا كهذه، على الرغم من أنّهم كانوا بسطاء. مع ذلك، كانت نظريّة «المجال» لعالم نوفوسيبيرسك قريبةً إلى قلبه. تحدّث الأب فاسيلي عنها في كلّ من الاجتماع الأوّل في دار السينما وفي الاجتماع الثاني، وتوصّل إلى نتيجة خاطب بها الحاضرين:

- الإخوة والأخوات! يبدو لي أنّه قد حان الوقت بالنسبة إلينا لإنشاء جماعة «كومونة». (ثمّ نقل نظراته ببطء إلى الحاضرين. جلس

الناس حيث يكون المكان أكثر ازدحامًا، وأحيانًا أقل ازدحامًا، وكان بعضهم -فقط- من دون معاطفهم الشتوية) لماذا نحتاج إلى جماعة متلاحمة مثل هذه؟ نعم، لمساعدة بعضنا بعضًا في الإيمان! شخص آخر سوف يكون قدوةً لك، يلاحظ أخطاءك ويتفوق عليك في الإيمان إذا لم تتفوق عليه. يمكن القول إنَّ الله سيكون في شخص آخر. من الصعب على المرء أن يثبت على الإيمان وحده، أمّا مع الآخرين يتحقّق ذلك بنجاح أكبر. ما رأيكم في هذا؟ أنت، على سبيل المثال، يا بيوتر أندريتش؟

وجّه الأب فاسيلي السؤال إلى ذلك المتقاعد الهش لأنّه كان قد تكلم معه بنفسه حول الموضوع نفسه سابقًا، فقال الأخير بصوت مرتفع:

- لسنا في حاجة إلى التفكير، لا بدّ من البدء بالعمل! لماذا نبقى في إطار الكلام؟

- كما ترون، أمل أن يكون الآخرون لديهم الرأي نفسه، مع ذلك، يجب أن أحذّر، فأنا حاليًا مسافر إلى الهند، لذلك سنؤجل إنشاء الـ«كومونة» مدّة شهر. لكن دعونا نناقش ونفكر في الموضوع الآن.

-17-

لم تكن الرحلات إلى كالكوتا، وعمومًا إلى الهند، من بين الرحلات الأكثر شعبية. كانت رحلات الطيران -بشكل أساسي- تنقل المسافرين من روسيا إلى أوروبا، ومن أجل التسوق كانت تنقلهم إلى الشرق الأوسط وتركيا ومصر، ولسبب ما إلى تايلاند. لكن هناك شركة طيران واحدة فقط، كانت قد نقلت مجموعة من الأشخاص -نحو عشرة أشخاص- إلى كالكوتا في شهر شباط.

عندما جاء الأب فاسيلي إلى مكتب شركة السفرات في شارع تفيرسكايا بالفعل للحصول على تذاكر السفر، رأى -فجأة- رجلًا غير قويّ البنية بستره رجال العصابات الجلدية السوداء واقفًا أمام طاولة مكتب بائعة التذاكر.

تحركت كتفا اللص بشكل يوحى بالتهديد، متكئًا على ركبته ومذكرًا بذراع القاطرة، ثم دفع رأسه الحليق إلى الأمام قليلًا نحو بائعة التذاكر، حتى إنها استدارت، وخلعت نظارتها وأغلقت عينيها بيديها الصغيرتين الممثلةتين، كما لو كانت على وشك البكاء.

- لقد قلت لك، سيخبرونك بكل شيء هناك.

وقف المجرم ذو الوجه الأحمر -فجأة- وخطا غاضبًا عدّة خطوات واسعة باتجاه الأب فاسيلي الذي تظاهر بقراءة الإعلانات على الحائط.

خرج المجرم متبوعاً بصديقه ذي النظارات الذي يشبه المثقف لولا ابتسامته السوداء.

كان واضحاً أنّ الرجلين ينتميان إلى عصابة، والأهمّ من ذلك أنّ كلاهما قد سافر إلى كالكوتا كما فعل الأب فاسيلي.

سأل الأب فاسيلي بائعة التذاكر:

- هل يتضمّن سعر التذكرة جولات في المدينة؟

قالت كاذبة:

- في الغالب يتضمّن، في السابق كان يتضمّن.

ثمّ طلب منها خصماً، إذ إنّّه لا يحتاج إلى جولات سياحية، ستولّى إحدى الصديقات أخذه في جولات في المدينة. ذهبت بائعة التذاكر إلى مكان ما، ثمّ عادت واعترفت - كما هو متوقّع - بأنّ الجولات السياحية لا تدخل ضمن سعر التذكرة، لذلك لن يكون هناك خصم له.

سأل ما الذي جاء به إلى هذه الشركة بالتحديد؟ بالفندق الذي يقدمونه ليس جيداً، ولا يقدمون سوى وجبة إفطار، وسيكون أفراد العصابة المجرمون ضمن المجموعة. حتّى خارج روسيا فاللصّ الروسي يسرق أبناء جلدته أيضاً.

لكنّ الأب فاسيلي فقير، لن يحصلوا منه على شيء، وهو لن يغنيهم. على أيّ حال أخذ التذاكر أخيراً.

لم تكن هناك مجموعة سفر، ولم يكن هناك قائد. وفي يوم السفر وصلت الفتاة التي باعته التذاكر في الشركة نفسها إلى المطار وسلّمت القوائم وبعض الأوراق الأخرى إلى رجل في منتصف العمر يدعى نيكولاي فيكتوروفيتش. في كالكوتا، كان عليه تسليم كلّ ذلك للسيد شارما الذي سيتولّى رعايتهم بعد ذلك.

استمع اللصّ ذو الوجه الأحمر إلى الكلام حائياً رأسه قليلاً نحو بائعة التذاكر، ثمّ راح يتجوّل بجسمه المليء بالبثور وعضلاته البارزة ملقياً نظرات مخيفة، وكان واضحاً أو ربّما غير واضح كثيراً أنّ جميع من نظروا إليه كانوا خائفين.

في طائرة ضيّقة -سفينة الفضاء الفاخرة التي كان يحلم بها في طفولته- كان مكان الأب فاسيلي في الوسط بين شخصين آخرين. على اليمين، عند نافذة الطائرة، جلست امرأة هندية حزينة بـسارٍ أسود رماديّ، تذكّر إلى حدّ بعيد «رادها»، من حيث العمر على الأقلّ. وعلى اليسار، جهة الممرّ، جلس نيكولاي فيكتوروفيتش نفسه. في أثناء الحوار قال إنّّه لا علاقة له بهذه المجموعة.

- نعم، أنا أيضاً، ليس لي أدنى علاقة، لكن ألا تعتقد أنّ معنا مجرمين

اثنين؟

هنا قطب حاجبيه.

- ما دام الشخص لم يرتكب أيّ شيء غير قانونيّ، فلا يمكن اتّهامه بشيء.

ولا يعرف كيف توقّف عن الكلام طوال الرحلة تقريباً. حلّقت الطائرة فترة طويلة، وهبطت مرّة واحدة هبوط ترانزيت. كان بعض الرجال والنساء يمشون ذهاباً وإياباً على متن الطائرة طوال الوقت، ويتجادلون بشدّة - بالروسية - حول شيء ما في المقدّمة، ولم يتبيّن الموضوع الذي يتحدّثون به بسبب ضجيج الطائرة.

لم يُظهر اللصّان اللذان كانا يجلسان خلفهم بعدّة صفوف نفسيهما في البداية، فقط حين اقترب وصول الطائرة إلى كالكوتا بدا أنّ الشخص ذو الوجه الأحمر قد ثمل، وكان يحاول الذهاب إلى مكان ما، حين أوقفه رجل العصاةة الثاني.

كان الأب فاسيلي يتوقّف أحياناً عن القلق بشأن هذا كلّ، وبشأن ما إذا كان لديه ما يكفي من المال والمعلّبات، وعندما كان يتذكّر ذلك كان القلق يعود إليه: «يا إلهي! فأنا مسافر إلى الهند!».

كان ينظر من الكوة إلى يمين المرأة الهندية على أمل أن يرى شيئاً من بين الفراغات بين الغيوم.

عندما هبطوا في كالكوتا، بدأت المرأة الهندية تُهيّئ نفسها بمظهرٍ ما جديدٍ ومستقلٍّ نوعاً ما.

في الخارج كان الجوَّ حارًّا ورطبًا، كما لو كان في دفيئة، كانت تفوح رائحة مستنقعية فيه، وكان العرق والرطوبة يتدفقان من جسد الأب فاسيلي. قالوا إنَّ هذا الوقت ليس الوقت الأكثر حرارة، وليس أكثر سخونة من الصيف في موسكو، لكنَّه لم يصدّق ذلك. والآن يجب خلع كلِّ شيء حتّى القميص والفانيلة، إذ كان من الواضح أنّه لا لزوم لها. وكانت جميع الألوان في المحيط -على الرغم من وجود السحب في السماء- واضحة، كما يحدث في دفيئة.

لقد وقفوا طويلاً عند نوافذ مراقبة جوازات السفر، وعندما لم يجد الأب فاسيلي ما يفعله، راح ينظر إلى الهنديّ في الزيِّ الخاكي، ذلك الذي كان يقف ليس بعيداً، ربّما كان شرطياً أو من حرس الحدود. تدرج بطن الرجل النحيل إلى الأمام وقد بدا صلباً، واسودَّ إبطاه من العرق وأصبح لون عمامته الكريميّ قاتمًا، خاصّة الشريط المتّصل بجهته. والأكثر إثارة للدهشة أنّ هذا الهنديّ يبدو أيضًا أنّه كان يعاني من الاختناق! لم يكن هناك ما يشير إلى أنّ السكّان المحليّين اعتادوا على هذا الطقس. من الواضح أنّهم أيضًا يعانون منه بالدرجة نفسها التي تعاني أنت منها!

في الوقت نفسه، بدا الليل يلقي سدوله. التقى بهم السيد شارما في المطار الذي كان يسطع بالإضاءة في الليل. كان الدليل رجلًا طويلًا يستدعي الاحترام، يرتدي ملابس وردية طويلة حتّى الركبتين بأزرارٍ، مثل الملابس

التي يرتديها بعض رجال السياسة في جنوب آسيا، وقبعة بيضاء مثل قبّعات نواب البرلمان.

بدا المطار نفسه للأب فاسيلي مزيّناً بطريقة حديثة ومكلفة إلى حدّ ما. لكن -هنا وهناك- كان الفقراء يتجولون متسوّلين، البالغون منهم والأطفال. ولم يفارق الأب فاسيلي الانطباع بأنّه كان على الشاطئ أو في الحمام، إذ كان هناك الكثير من الأجساد نصف عارية.

غُطّيت الحافلة الصغيرة القديمة أعلى مقصورة السائق بزينة حمراء تشبه نوعاً ما السروج التي توضع على ظهور الفيلة، وكان السائق متعرّقا أيضاً على ما يبدو. داخل الحافلة كان الجوّ رطباً، كما لو أنّها غُمِرت بالماء الساخن وفاحت منها رائحة المطّاط والنفايات الرطبة. بدأ الأب فاسيلي يدرك أنّ الروائح في هذا البلد الاستوائي ستكون أقوى ممّا كان يتوقّع. ركب في الحافلة عشرة سيّاح وانطلقوا، لكنهم لم يتمكّنوا من رؤية أيّ شيء في الظلام خارج النوافذ.

مروا من أمام لوحات إعلانيّة إلى جانب الطريق، بعضها ملطّخ، كما لو كانت قد غُطّست بالكامل في فضلات حيوانيّة، وخلفها كان يسود الظلام. كانت المصابيح في بعض الأحيان تتنزع من الظلام مشهداً لبستان من أشجار النخيل، أو رصيفاً مصطفاً عنده مجموعة من القوارب. وها هو الماء يتلأل أيضاً، ربّما كان هناك قنوات أو حقول أرز. لم يتوقّع الأب فاسيلي أن يرى أراضي منخفضة مثل هذه والكثير من الماء.

حمل الهواء الدافئ من النوافذ المفتوحة رائحة الطفيليات. كانت أصوات السيد شارما والنساء تعلو فوق زئير الحافلة، ثم ملّوا وقام السائق بتشغيل موسيقى هندية. كان الغناء يشبه العواء الحادّ.

في الظلام، من الصعب تحديد وجهتك، وكما فهم الأب فاسيلي، فإنّ المطار كان يقع على مسافة بعيدة من المدينة. لكنّهم الآن -على ما يبدو- قد دخلوا بالفعل إلى كالكوتا. كانت مباني المؤسّسات الضخمة تُقبع في العتمة، ثمّ أضاءت المصابيح بعض صفوف تلك البنايات، وبعض الستائر التي تبدو أنّها تغطّي محالّاً تجارية.

تتناوب الأضواء هنا: الأبيض البارد، الكريديّة، الكهربائيّة العادية والمصفّرة.

كانت الحافلة تهتزّ وهي تمرّ فوق الحفر في الطريق. اضطرّ السائق إلى كبح الحافلة وهو يرى حفرة، لكنّهم هَوَوْا فعلاً فيها، ثمّ خرجوا منها مُرهقين.

كانت المدينة هائلة، سارت فيها الحافلة مدّة نصف ساعة، وظهر أخيراً مركز المدينة، وظهرت الشوارع الإسفلتيّة الضيقة والمحلات التجارية. لكن، لا. يُستبدل المشهد -مرّة أخرى- بحيّ مرّبع من أكواخ مضاءة بشكل ضعيف. ثمّ لمعت سكة حديد واختفت في الظلام. على كلا الجانبين كان يوجد إمّا مكبّ نفايات أو حيّ عشوائي.

لامست مصابيحُ الحافلة الأماميةُ الجدار، ثم استدارت يسارًا إلى شارع آخر، وقد رأوا مباشرة على الرصيف أشخاصًا ينامون على طول هذا الجدار ملفوفين بخرق بالية، كأنهم جثث موتى. في تلك اللحظة ارتفع رأسٌ وومضت عينان: من القادم؟

كان الشارع يسمّى «طريق أنجومان»، واسم الفندق الذي سينزلون فيه «ويلسلي».

كانت الغرف مزدوجة، وكانت مجموعتهم مكوّنة من عشرة أشخاص منهم خمسة رجال، لكنّ أحدهم من جوكوفسكي بالقرب من موسكو، كانت معه زوجته. وهناك أيضًا رجلاً العصابة، وكان من الطبيعي أن ينزل الأب فاسيلي مع نيكولاي فيكتوروفيتش نفسه.

كانت الغرفة في الطابق الثالث من فندق مكوّن من ثلاثة طوابق، فيها مكيفات هواء وناموسيّات على الأسرة مثل ستائر الأسرة لدينا. قد يكونوا تأخّروا وفق العادات المحليّة، ولكن وفق عاداتهم في موسكو، فلم يتأخّروا. ألْقَوْا أشياءهم في الغرفة تقريبًا دون أن يتكلّموا ولو كلمة واحدة، ثم ذهبوا للتجول في كالكوتا. إنّها مدينة كبيرة وهائلة!

على نحوٍ ما، يمكننا تخمين الجهود التي تُنفق على شيء ما. وهنا شعرنا أنّه -من أجل بناء هذه المدينة من لا شيء- كانت هناك جهود لا تُصدّق، وقد بُذِلَت ملايين الأرواح من أجل بنائها.

كيف كان ذلك واضحًا؟ لكن الله فقط يعلم أين...

لقد ساروا جميعًا في شوارع تطول وتطول. اتجهوا غربًا، باتجاه نهر هوغلي الذي يمرّ من هنا، هذا أحد الفروع التي ينقسم إليها نهر الغانغ ويصبّ في البحر. كان لدى نيكولاي فيكتوروفيتش خريطة. لكن من غير المحتمل أن يصلوا إلى النهر، إنه بعيد.

طريق بينيابوكور وشارع ريبون شارعان طويلان، عليهما عمارات متنوّعة للغاية، أوروبية النمط في بعض الأماكن، وفي أماكن أخرى عبارة عن تجمّعات من الشرفات والأضواء.

ولم يكن الفقراء قد ناموا حتّى الآن، الأطفال منهم والبالغين، وكان هناك بعض الاختلاف عن موسكو، فالمتسوّلون كانوا أكثر غضبًا وإلحاحًا هنا!

لم يكونوا يتوسّلون، بل يطالبون ويصيحون، وكان هناك شعور بأنّهم يكرهوننا ويشتموننا بلغتهم!

وفجأة أدرك الأب فاسيلي أنّهم -في موسكو- يتسوّلون لأنّهم يريدون التقليل من الجوع، ولكن هنا لأنّهم -ببساطة- يموتون بطريقة أو بأخرى! فهؤلاء المتسوّلون ليس لديهم على الإطلاق أيّ وسيلة أخرى لكسب الرزق من أجل أن يعيشوا، لذلك لا ينامون، ويتشبّثون حتّى الموت بالأجانب!

لم يتوقَّع الأب فاسيلي ولا نيكولاي فيكتوروفيتش أنَّهما لا يمكنهما التملُّص من ذلك. ومع ذلك، لم يتصدَّق الأب فاسيلي بشيء، في حين قام نيكولاي فيكتوروفيتش بذلك وحده.

– (أي شيء، أي شيء) «Some Thing، Some Thing»

ولم يكن هناك مجال للكلام أو النظر حولك، فقط في إمكانك أن تلقي نظرة على المكان الذي يوجد فيه عدد أقل من المتسوّلين، وتلتفت إلى شارع ما وتسرع، أو حتّى تهرب عدوّاً تقريباً. لا يمكنك الهرب في هذا الجو الذي يشبه أجواء الحمام! نعم، ولم نحسب حساباً لذلك.

ومع ذلك، وصلوا إلى الشارع الرئيسي -تشورينغي- إنّه شارع واسع، منير وفيه حركة كبيرة، لكنّه غريب، فالمنازل موجودة على جانب واحد منه فقط، وعلى الجانب الآخر يوجد متنزه أو أرض قاحلة فيها أشجار غير مهذبّة وبعض النخيل والفروع الجافّة التي تلوح في الهواء.

أضاءت الكشّافات النصب التذكاريّ لـ«غاندي»: رجل نحيل، هزيل ومنهك، يتحرّك بقوة إلى الأمام متعلّباً على بعض المعوقات.

عند العودة سلكوا طريقاً آخر، وكان هذا يعني أنّهم اضطرّوا إلى المرور من وسط مجموعات أخرى من المتسوّلين المشعّثين. لم يستوعب الأب فاسيلي شيئاً على الإطلاق.

اكتشف الأب فاسيلي أنّ نيكولاي فيكتوروفيتش يعمل في معهد موسكو لوقاية النباتات وجاء إلى هنا في رحلة عمل إلى زملاء المهنة. لم يكشف له الأب فاسيلي أيّ شيء عن الدين الجديد، فقط قال إنه يريد دراسة التقاليد الدينيّة الهنديّة هنا.

لقد اكتشف أنّ كالكوتا مدينة غير مناسبة لهذه الغاية، لكنّه -للأسف- اكتشف ذلك متأخراً، وكان الآوان قد فات لتغيير أيّ شيء، فهذه ليست مدينة هنديّة، فقد أسسها الإنجليز. التقليد الهنديّ الرئيسيّ هو الاستحمام في نهر الغانغ، لكنّ نهر الغانغ لا يمرّ من هنا. لكنّه -مع ذلك- موجود هنا في كالكوتا. إضافةً إلى أنّ رادها تسكن هنا.

-18-

في اليوم التالي ذهب الأب فاسيلي للتجول في المدينة وحده. في الصباح، قام أفضل عامل نظافة في العالم بتلميع الشوارع ببراعة، كان الناس يهرعون إلى العمل بنشاط، وحتى المسؤولين كانوا يطلبون الصدقات بلطف مع بعض الكرامة الجديدة كما لو أنّهم يقدمون أعمال الخير. قدّم الأب فاسيلي قطعة نقدية لعجوز حافي القدمين بلحية ضخمة وذؤابات شعر طويلة، قام العجوز بضغط قطعة العملة على جبينه بحركة استعراضية من أصابع يده، وانحنى متجمّداً في انحناءته، منتظراً أن يتوارى المعطي عن الأنظار.

لكنّها كانت جنّة! قطرات الندى كانت متشرة في كلّ مكان، وكانت أقواس أشجار النخيل بأوراقها الإبرية متفتحة مثل أشعة الشمس. كانت المنازل الأخرى، كما توقع الأب فاسيلي أن يراها في مكانٍ ما في إيطاليا، من ثلاثة طوابق أو حتى طابقين، ولكنّها مرتفعة، وفي الأعلى يوجد درابزين أبيض مخضّر قليلاً مع أصص كلاسيكية. وعلى الزاوية المشطوفة من هذا المبنى فوق النافذة المستديرة، وُضع إكليل من الجصّ أيضاً بطريقة أرستقراطية لا تشبه الذوق المحليّ الأخرق، هنا تشعر بالصرامة الأوروبية! وهذه اللحى المطرّية الخضراء، كما لو كانت ترفع قيمة المبنى، فهذا ليس منزلاً، بل إنّ قصر إيطاليّ!

وفي بعض الأماكن كانت مصاريع النوافذ الخارجية أوروبية: خشبية
بفتحات أفقية ضيقة، الواحدة فوق الأخرى.

لكنك ترى هذا وأنت تنظر إلى الأعلى، وبمجرد أن تنظر إلى الأسفل تجد
كل شيء هنديًا: القمامة والأوساخ.

يحوّل الندى القمامة إلى جواهر، لكنه سرعان ما يتبخر لتعود القمامة إلى
جوهرها، فترى الورق المبلى، وقشور الموز وأنصاف ثمار جوز الهند.

وكان هناك الكثير من القمامة، لدرجة أن الأب فاسيلي ظن لحظةً - بشكل
غير إرادي - أن الهند كلها مكبّ نفايات ضخمة واحد. إنها أكثر غرابة حتى من
البلد الذي جاء منه.

لكنه ذهب خصيصًا إلى الأحياء الفقيرة في كالكوتا. لم تعد تشو أورينغا
تجذبه إليها. ربما سيكون هناك كل شيء استعماري، وكان في حاجة إلى الهند
الهندية! ولم يذهب جنوب الفندق، فهناك الأحياء الغنية، حيث تسكن رادها
التي سيقابلها غدًا وفق الموعد. انتقل اليوم إلى الشمال.

بالطبع، لم يستطع إنفاق الوقت على الخارطة التي معه، وقد نسخ شيئًا من
عند نيكولاي فيكتوروفيتش، لكن الشوارع التي يمشي فيها الآن لم تظهر
بطريقة ما في خطته. نعم، فلتخف، الله معها.

كان النهار يغلي: المحلات تعمل، والسيارات تهدر، وعربات الريلكا التي
تجرّها الدراجات الهوائية تجوب الشوارع، والسائقون يدوسون البدالات
بسرعة.

المشير للدهشة أنّ أكوام القمامة كانت تتراكم في الشوارع التي كانت تعجّ بالحركة، وكان الأطفال والبالغون يسارعون إلى نبشها وتفتيشها. لذا، في منتصف الشارع الذي كان يسير فيه الأب فاسيلي في الظلّ، كانت هناك تلال من القمامة، ثمّ تحوّلت بحدّة إلى اليمين قاطعةً مسار حركة المرور، وحيث كانت وسائل النقل تمرّ عبرها، تشكّل نوعاً من التلال أو المرتفعات شبه الترابيّة.

ولكنّهم كانوا يفتّشون حتّى في تلك التلال المتنفخة! أمسك طفل بخرطوم مطاطيّ أخضر وسحبه مباشرة من الأرض من تحت العجلات، ثمّ راح يلفّه. كبج سائق ذو لحيّة رماديّة وعمامةٍ عجالاتٍ سيارته، نظر من نافذتها وقال صائحاً: «اغرب من هنا، كما لو أنّه لا يوجد قمامة غير هذه؟» وحقّاً... انقطع الجدار على اليمين الذي كان يسير بجانبه الأب فاسيلي فجأةً، ورأى أنّ القمامة التي كانت تقطع الطريق كانت تزداد على اليمين إلى أن شكّلت سلسلة كاملة من تلال النفايات! يا لها من نفايات ضخمة تمتدّ إلى الأفق مشكّلةً غيوماً رطبة تحجب الشمس!

رائحة القاذورات تنتشر، ولم يكن في الإمكان الهرب منها أينما أدّرت وجهك!

توقّف الأب فاسيلي خوفاً من المفاجآت. هنا وهناك، يفتّش الناس في هذا المكبّ الذي يمتدّ داخل الضباب، وكان هناك شعور بأنّ هذا هو كوكبهم، وبأنّهم لا يعرفون أيّ حياة أخرى!

إنّ التناقض غير الطبيعيّ في هذا الوجود هزم الوجود نفسه على الفور، لكنّ الفكر الآن يلتقط التفاصيل.

وقف كلب يشبه الضبع مباشرةً أمام الأب فاسيلي وراح ينظر إليه غاضباً، لكن مكان البقع التي تميّز جلد الضبع، كان جلده مغطى بالتقرّحات.

ألقي رجل هنديّ -كأنّه رجل أسود- بيدٍ واحدة، نظرةً ازدراء على الأب فاسيلي، كأنّها ضربة مطرقة، وكان يجلس القرفصاء أمام موقد حطب يُصدر دخاناً. على الجانب الآخر من النار، كانت هناك امرأة راکعة، تفعل شيئاً بوعاء مثبت فوق النار. فجأة صرخ الهنديّ فيها وركلها بقدمه وهو يقفز من مكانه.

– Some thing! Some thing. (أيّ شيء)

مدّ فتى عارٍ يده طالباً الصدقة، شدّ بنطال الأب فاسيلي وأمسك بذراعه. أطلّت فتاة بعينين واسعتين من وراء كومة القمامة، وخطت بقدميها الصغيرتين بحذر حتّى لا تتأذى، ثمّ سارعت نحوه أيضاً، مادّةً يدها من بعيد بطلب الصدقة.

توقّف، وعلى الفور أحاطوا به، وكان لا يجوز التوقّف هنا! دفع الأب فاسيلي حقيّته ذات اللونين الأسود والأبيض خلف ظهره وابتعد بحزم باحثاً بعينه عن مخرج من ذلك المكان إلى الجانب الآخر من الشارع. ولكن كان هذا نوعاً من الهروب الأوروبي الموفّق: الابتعاد دون ملاحظة هذا الصديد. لكنّه كان قد أتى إلى هنا للتوّ ليرى الواقع!

ورأى أنّ المرء هنا يعاني -أكثر ما يعاني- من الرائحة، ولكن ليس هذا وحسب، فقد كانت هناك حرائق كثيرة في المكبّ، ربّما كان الناس يعدّون هنا

طعامًا لهم من الفضلات التي يجدونها، حتّى الأطفال كانوا يغنون شيئًا في علبة صفيح من علب المعلّبات، ولكنّهم تركوها عندما رأوا الأب فاسيلي، لم يكثرثوا لما كانوا يغنون وهو ينسكب وسارعوا إليه. أمّا هو فقد جبن وأسرع هاربًا أيضًا.

وإلى اليسار، كان شارع عاديّ يعجّ بالحركة: عربات شاحنة، وسيارات ركّاب وغيرها، حتّى باهظة الثمن منها والجديدة كانت تسير في الشارع. إلى اليمين، في مكبّ النفايات، لاحظ الأب فاسيلي بعض التلال أو منازل النمل الأبيض. لا، كانت هذه مساكن بشرية من القمامة الرطبة يصل ارتفاع الواحد منها ارتفاع كوخ الكلب! رآهم كيف يندسّون داخلها! وأكوخ أخرى ارتفعت إلى مستوى الصدر، كان من الممكن الجلوس فيها، وليس فقط التمدّد فيها وحسب. هذه هي الأحياء الفقيرة، ونحن نتكلّم عن المرآب! يُعدّ المرآب قصرًا بالمقارنة مع ما نراه.

خطر في بال الأب فاسيلي فجأة: لا، إنّ ما رآه هنا يشبه المعاناة التي عرفها من أوصاف «الغولاغ»^{*}، فالهند كلّها غولاغ واحد ضخّم! في الواقع، إنّ ما يدمرّ في هذا البلد ذي المليار نسمة، وفي سنوات معدودة، يعادل ما دمره الغولاغ السوفييتي في جميع عقودِه! وإنّ العالم، بصفة عامّة، لا يلاحظ سوى نتائج الأشياء، فهو لا يرى في الهند سوى تزايد عدد سكانها

• معسكرات الاعتقال في العهد الستاليني.

بمقدار عشرة ملايين كل عام، لكننا ننسى أن نتيجة الزيادة هذه لا تحدث كما لو كانت في البلدان المزدهرة، هنا يولد ناس كثير، في الوقت نفسه يموت ناس أكثر. في كل عام، تقتل هذه المعصرة الاستوائية الضخمة خمسة وعشرين مليون إنسان، ليس أقل، وليسوا فقط من كبار السن!

نعم، إن الأب فاسيلي -بفضل بعض المعجزات الرهيبة، وليس خلاف ذلك- وقع في أفطع مكان على الأرض، في جوف المعاناة. وقد فهم الآن شيئاً لا جدال فيه على الإطلاق: حيثما يوجد العذاب، يوجد مركز العالم، هناك توجد الحقيقة العليا. وهي ليست في الصين، حيث لا يوجد فيها تلك الوفيات والولادات المتداخلة العملاقة مع وجود هذا الضياع الاستوائي، فهي هنا -في الهند- تدمج في نفسها العرقين الأبيض والأسود.

وسرعان ما وجد نفسه في كالكوتا الحضرية المختلفة تماماً.

في الشوارع الضيقة التي لا يمكن للمرء إلا أن يمشي فيها ببطء بسبب الازدحام، اهتز الشارع وسمع هدير، زحف الـ«ترام» وتوقف فترة طويلة لينزل الركاب ويواصلوا سيرهم على الأقدام. لحسن الحظ، كانت الأبواب مفتوحة، أو ربّما لم تُغلق على الإطلاق.

لم تكن أرضية هذه القاطرات ترتفع كثيراً فوق سطح الأرض، وكانت ضيقة، وجدرانها مستقيمة وعالية جداً، والجدار المسطح يتقوّس -فجأة- بشكل حادّ، ثم يعود ليتحوّل إلى سقف مسطح، وهذا يمثل نمطاً أوروبياً، إنجليزيّاً بالطبع.

كانت السيارات تسير على طول السكّة أمام عربات الـ«ترام» وخلفها، وكان من المستحيل تجاوز عربات الـ«ترام» لأنّ المساحة بينها وبين بسطات المتاجر كانت مشغولة بحشود المتسوّقين الذين يقايضون ويشترّون.

كانت هناك بسطات أمام المنازل، بينما كانت المتاجر نفسها تمثّل أحياناً الباب المفتوح والمرئيّ عبر الطابق الأوّل من المنزل كاملاً: ادخل واشتر. في بعض الأحيان كان المتجر أيضاً ورشة عمل، حيث تُصنّع السلع المعروضة للبيع. على سبيل المثال، الطباعة على الملابس.

كان الصخب محتدماً في كلّ مكان. وهنا، إذا أردت أن تملأ نوعاً واحداً من البسطات، فإنّك تحتاج إلى حيّ كامل في المدينة أو أكثر. والآن حاول الأب فاسيلي أن يمشي مسرعاً، لكنّه لم يستطع الابتعاد عن الهدير وصرير المعادن الصادر عن تلك الأشياء المتوهّجة على الجانب الآخر من الشارع التي تلمع هنا في الظلّ أيضاً؛ أشياء ضخمة، بأقطار تزيد على المتر، أشياء تشبه التروس أو الأطباق الكبيرة، الأحواض اللامعة، الأباريق الكبيرة والصغيرة، القدور المستندة إلى مناصب ثلاثيّة، الشمعدانات وأدوات الزينة المعدنيّة.

ثمّ انبعثت رائحة جلود، وامتدّت صفوف من الأحذية، كان بينها -بشكل خاصّ - الكثير من الصنادل المتنوّعة، وكذلك نعال مع مقدّمات مثنيّة للأعلى مطرّزة ومذهّبة كأنّها أُعدّت لسلطان، والحقائب الكبيرة منها والصغيرة، المتواضعة والفاخرة للغاية حتّى بالنسبة إلى الشرق نفسه.

ثمّ صفوف من الملابس الأوروبيّة، ثمّ -مرّة أخرى - أشياء هنديّة: أزرار، أشرطة وشخص يحمل سلّة على رأسه ويشقّ طريقه وسط الزحام، يبيع

مأكولات، أشار إلى الأب فاسيلي بأصبعه: هل تريد؟ لوح الآخر بيده قرب صدره بإشارة الشكر: «لا، لا»، ومضى في طريقه.

وفي الأعلى، من خلال الفجوة بين المنازل، كانت تظهر -بدلاً من السماء- أبخرة متوهجة.

المنازل المكوّنة من طابقين ومن ثلاثة طوابق خاصّة، يقترب بعضها من بعض تماماً، وعندما تكون مكوّنة من أكثر من ثلاثة طوابق، فإنّها تعود لبتبعاد بعضها عن بعض كلّ في اتجاه.

تراكم الشرفات، وتبدو الخشبيّة منها متهاكة فلا تفهم كيف لا تنهار في هذا المناخ.

ما بعد المنزل ذي الجسور العديدة التي تشبه جسور السفن والصواري الخشبيّة، يواجهك منزل بسيط وأصمّ، مثل تحصين عسكريّ، مع مصاريع مغلقة، ثمّ مرّة أخرى منزل يشبه قرص العسل.

ربّما كان المتسوّقون -ببساطة- غير راضين عن سعر البضائع ونوعيّتها؟ ولم يكن البائعون راضين لأنّهم لم يبيعوا الكثير كما كانوا يرغبون؟

لاحظ الأب فاسيلي -فجأة- أنّ الحشد كلّ تقريباً من الذكور، يبدو أنّهم هنا يفضّلون إبقاء النساء في المنزل. لذلك يعانون من الضغط والتعاسة؟ ففي الحانات أو في المباريات الرياضيّة -على سبيل المثال- لا تسبّب قلّة النساء الكآبة.

سار الأب فاسيلي فترةً طويلة وراء الـ«ترام» الذي -بعد ذلك- أسرع أو اختفى في شارع جانبي ولم يتمكّن الأب فاسيلي من ملاحظة ذلك. لقد وقف على أطراف أصابع قدميه، نظر إلى الأمام وشهق: يا آبائي!

كانت الرؤوس السوداء الماضية في الضباب لا تُحصى. يبدو أنّ الشارع إلى الأمام يتّسع بلا حدود ويتدفّق فيه بحر من البشر. وشعر أنّ الشيء نفسه سيكون في الشوارع المجاورة وفي كلّ مكان.

الأمر الأول الذي كان عليه أن يعرفه -بشكل مجرّد- هو أن موسكو مكرّرة توجد هنا، أما الأمر الثاني فهو رؤية المتجوّلين المتزاحمين الذين يعون أنّهم كثر، وأنّ أكثرهم لا يمكنهم أن يعيشوا وأنّ ينجوا.

ربّما كان ذلك ما استدعى الشعور بالتعاسة لديه! ولا يعرف ما حدث الآن مع أكثر منعطفات الفكر والشعور تنوّعا، فقد نهضت في روح الأب فاسيلي فكرة دينه الجديد! وحده الدين الجديد قادر على مساعدتهم!

أراد مناشدة هذا الشعب وإعلان الدين الجديد هنا.

ولكن في الشوارع التجاريّة سيكون الأمر مضحكاً، لأنّ الناس منخرطين جدّاً في التجارة، حتّى التسوّل هنا كان أقلّ. ثم رأى مسجداً.

من الشوارع التجاريّة هذه، ظلّ يتّجه إلى اليمين حتّى اصطدم بسيّاح أصمّ، وللالتفاف حوله، كان من الضروريّ الاتجاه إلى اليمين، أي مرّة أخرى: الاتجاه نحو المكبّ، على الرغم من أنّه أصبح بعيداً.

لكنّه وجد نفسه الآن في مكان هادئ غير مزدحم.

غاصت سكة الحديد الضيقة الصدئة في الغابات الاستوائية. أمامه، إلى اليسار في البعيد، برزت مجموعة من الناس بالقرب من صنوبر ماء عمومي. لقد شاهد هذا بالفعل هنا في كالكوتا، الناس يغتسلون في الشارع مباشرة. كانوا يغتسلون في مكبّ النفايات، حيث يحصلون على المياه من البرك والقنوات. وهنا كان شخص ما يستحمّ أيضًا، ويبدو أنّ النساء يغتسلن في بركة صغيرة في ظلّ الأشجار.

تحركّ نحوهم بعد تردّد. في الواقع، بدا من غير اللائق حشر نفسه بينهم. ولكن إذا كان هذا الصنوبر للجميع، أليس له أيضًا؟ كان يريد فقط أن يملأ قارورته البلاستيكية، فقد كان قد شرب الماء الذي معه كلّها. وها هو يقترب.

فتى ذو شعر أجدع يجلس القرفصاء وقد افترّت ابتسامته عن أسنان ناصعة البياض عندما رأى الأب فاسيلي يمرّ من أمامه. شابّ هنديّ آخر يرتدي قميصًا ملوّنًا ضيقًا خارج الحزام، ملأ دلوًا من البلاستيك ماءً من الصنوبر، ثمّ سكبّه في خزّان محمول على عجلات.

أخرج الأب فاسيلي قارورته، فكّ الفلينة ووقف هناك قريبًا منهم يفكر كيف يمكن أن يروه: رجلًا أوروبيًا ملتحيًا يرتدي قميصًا ورديًا فاتحًا بأكمام قصيرة وقبّعة من القماش ورديّة مع غطاء رأس من القماش!

حتّى إنّ لم يدرك على الفور أنّ الصنوبر قد حرّر بالفعل، حتّى يقترب. أخيرًا، ملأ الزجاجة ماءً من الصنوبر، ثمّ ثبتّ الغطاء.

انتقل إلى الشارع الرئيسي بخطوات حازمة. كادت حافلة جديدة متلائة تلامس الإسفلت وهي تتأرجح من اليسار إلى اليمين مُصدرةً هديرًا مزعجًا مع بعض الجهد الشاقّ الهائل، وكانت قد غصّت بالركّاب حتّى ملؤوا آخر فجوة صغيرة فيها. مرّت الحافلة من أمامه نافثةً موجةً من الدخان العادم الأزرق، وكانت السيارات الصغيرة تهرب منها يمينًا ويسارًا. جعلت حرارة الإسفلت البنية ذات الثلاثين طبقًا على الجهة المقابلة تُرى كأنّها تتأرجح، أو شيء من هذا القبيل، وكذلك صار الفولاذ الذي يغطّي المباني الضخمة يتلألأ في الضباب الدخانيّ. هذه هي الهند الجديدة!

رَأَى الْأَبُ فَاسِيلِي رَجُلًا عَجُوزًا يَحْمِلُ كُوبًا لِلتَّسْوَلِ؛ فَتَّجَّهُ إِلَيْهِ. كَانَ الرَّجُلُ غَاضِبًا لِلْغَايَةِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَوْحٌ بِالْكُوبِ لِيَضْرِبَ بِهِ الْأَبَ فَاسِيلِي، ثُمَّ قَامَ بِضَمِّهِ إِلَى صَدْرِهِ طَالِبًا الصَّدَقَةَ:

— بایس، بایس!

– No! ‘No

تحرك الأب فاسيلي جانبًا، لكنه كان قد أُحيطَ بمسؤولين مثل النحل. إن لم تستمرّ بالسير، فإنّك ستعثرُ بخليّةٍ شريرةٍ بشكل خاصّ.

راح صبيّ يزق مثل بندقيّة رشّاشة، مانعًا الأب فاسيلي من المرور:

- No ماما، No ،بابا No ماما، No بابا Some thing! ،Some thing!

مدّت امرأة عجوز لها وجه داكن -بحزنٍ- وعاءً للتسوّل. ومن قرب الجدار، زحف إلى هنا شخص بلا يدين أو ساقين، كان يمسك كوب التسوّل بأسنانه. لم يفهم الأب فاسيلي كيف ظهر ذلك الشخص! استدار، تاركًا المارّة يتأرجحون، ركض في الاتجاه الذي جاء منه والتفّ إلى أوّل شارع، ثم انتقل - بعد أن استعرض خطّته المرسومة - إلى النهر. ترى هل يتعمّدون حقيقةً في نهر هو غلي؟

خرج فاقداً صوابه من التيه لمسافات طويلة ومنهكاً من القيظ، إلى الساحة التي فور أن رآها أدرك أنّ هذا هو ما كان يبحث عنه، لكنّه كان خائفاً. يمكنه هنا أن يصرخ ويتكلّم بأيّ شيء. كانت الساحة كأنّها سوق أو بيت نمل. ولكن إلى اليمين، بعيداً، ارتفع هرم معبد هندوسي، كما لو كان مؤلّفاً من آلهة دمار شيطانيّة. بالمناسبة، لم يكن في الإمكان رؤية الأشياء بشكل واضح من هذا المكان.

دفع الأب فاسيلي حقييته على ظهره، مسح على لحيته ثمّ تقدّم بحزم إلى الأمام.

على الفور نادى بائعٌ بصوتٍ عالٍ من الصفوف على اليسار، مشيراً إلى برتقال وموز وشيء آخر مثل الخيار المخطّط، لكنّ الأب فاسيلي هزّ رأسه بشكل يكاد يكون غير ملحوظ في إشارة منه إلى عدم رغبته في الشراء، فلم يكن هذا هو ما يهّمه أو يحتاجه.

كان في الأمام رجل يجلس ووجهه مطلّي باللون الأبيض وألوان أخرى، مصلبًا ساقيه واحدة فوق أخرى، ويضع كتابًا كبيرًا مفتوحًا في حضنه. وفجأة سكب الكثير من الازدراء في روح الأب فاسيلي ما جعله يتعد بسرعة. واصطدم على الفور بعينين متفحّصتين لهنديّ آخر، لا يبدو أنّه ذو رتبة روحية دنيوية، بناءً على الثوب الأبيض المزهر المفتوح على صدره القاتم.

استلقى هذا الهنديّ المسنّ متكئًا على كوعه، ممسكًا بغليون فيه سيجارة مشتعلة، مغمض العينين، ليس من الدخان أو الضحك. وتحت وقع هذه النظرات، تذكّر الأب فاسيلي كم كان متعبًا، وتذكّر كلّ الأشياء الصعبة التي واجهها اليوم. في الواقع، لن يكون مشواره المهمّ سخيفًا إلّا في حالة واحدة فقط: إذا قام الآن بالفعل بشيء غير مسبوق ومذهل. وأجبر نفسه على عدم حني رأسه، وعلى المضيّ قدمًا بمقدار محسوب، وبحزم.

لكن هناك صبيّ تمسّك به في هذه اللحظة متوسّلًا الصدقات دون أن يتركه. لم يكن الأب فاسيلي في حاجة إلى أن يتعاملوا معه بصفة سائح غنيّ على الإطلاق، خاصّة أنّه كان يقترب بالفعل من المعبد. وفجأة نزل إلى الطريق رجلٌ أسود داكن، عجوز عارٍ حتّى وسطه، يربط قطعة قماش صغيرة على خصره، وكان ذا لحية رمادية متعرجة وشعر كثيف على رأسه، وعينين جاحظتين. لوح بيده اليمنى للصبيّ كي يتعد، وباليسرى

أخذ أحد الجرسين الصغيرين المعلقين على صدره، رفعه أمام الشمس فنألق، ثم قرعه.

في الوقت نفسه، أمسك بيد الأب فاسيلي وسحبه إلى سجادة باللون الأحمر والأبيض، لكن الأخير وقف متصلبًا، رافضًا التحرك، متذكّرًا مهمته الخاصة التي جاء من أجلها.

- إشفاء، قراءة الكف، عرافة!

صاح الرجل العجوز باللغة الإنجليزِيَّة، لكنّه -بعد ذلك- أكمل بالبنغاليَّة أكثر فأكثر، وبرزت عيناه الغائمتان كعيني سكير، لكن الأب فاسيلي لم يشتّم منه رائحة كحول. قرع العجوز الجرس مرّة أخرى قرب أذن الأب فاسيلي بشكل مُصمّ.

فكر الأب فاسيلي في أنّ هذا الرجل العجوز يمكن أن يساعده -بطريقة ما- في إعلان الدين الجديد هنا، وهذا ما كان يبحث عنه.

كان على الأب فاسيلي أن يلعب شيئًا، وقد لعب بالفعل:

- What do you want? I don't understand?

تكلم بصوت عالٍ ضامًا كتفيه وباسطًا ذراعيه، أو بالأحرى، اليد التي لم يمسك بها العجوز. تظاهر بأن الرجل العجوز يؤلمه للغاية ويشدّه بقوة؛ فراح يتملّص منه، ممّا حدى بالأخير أن يتركه.

راح الأب فاسيلي يهدّئه:

- I'll sit, I'll sit, but can you tell me, where is the rever Hongly?

فتح حقيته وأخرج الخطة التي كانت معه. دهش الرجل العجوز لغبائه لدرجة أنه لم يجد حتى أي شيء يقوله. أدار يد الأب فاسيلي بكفّ يده، وضربها بالجرس.

- Palm reading, devenishing!

أخيراً، أجلس الأب فاسيلي على السجادة، وبصعوبة استطاع أن يلوي له ذراعيه وساقيه.

لكن الأب نسي أن يخلع حذائه. تطلب الأمر رفعه من جديد وإرغامه على خلعه، وإجلاسه مرة أخرى.

راح الأشخاص المحيطون يمزحون متوقعين أن يحدث شيء من المرح مع هذا الأوروبي، كانت قواطع العراف العلوية متقدّمة بشكل واضح. جعلت هذه الأسنان البارزة وجهه ماكراً وساذجاً في الوقت نفسه.

وأدار يد الأب فاسيلي مرة أخرى براحة يده، أجرى عدّة تمريرات وتحدّث باستعراض باللغة البنغاليّة. سحب الأب فاسيلي يده:

- Wait a minute, you sead hilling. Bu I can alsow hill you! أنا أستطيع أن أشفيك!

قال العجوز مستغرباً:

- أنت تشفيني؟ But palm reading?
- OK, but one problem: I have no monny.

لوح العجوز بيده:

- Ten pince.

- But I have no ten pince.

قلّص العرّاف المبلغ إلى خمسة بينسات، ربّما كان في إمكانه تخفيضه أكثر، ربّما لمع في عينيه بريق: حسنًا، ماذا يجب أن تفعل؟ للحصول على أموال سخيفة، كان على استعداد لتمرير الخبرة كلّها التي اكتسبها طيلة حياته، الخبرة غير المستقرّة، ولكن مثل حياة أيّ واحد منّا، حياة لا تُقدّر بثمن. لكنّ الأب فاسيلي ضغط حسابه الخاصّ، ولم يترك للأخرايّ خيار. نهض وارتدى حذاءه، عدّل قامته على عجل. أخذ نفسًا عميقًا وأعلن بصوتٍ عالٍ:

- I'm from Russia، I'm from Moscow!

ثمّ ترجم لنفسه «أنا روسيّ، من موسكو». تدفّق شيء ما دافئ في صدره في تلك اللحظة، وأدرك أنّهم سوف يفهمونه، ويصدّقونه.

We must have I bring you new religen! يجب يكون لدينا إله واحد! one god! أوروبا وآسيا - إله واحد! Earope and Asia one God، حينها لن تكون هناك حروب، ولا جرائم، سنعيش حياة طيّبة، طيّبة!

ربّما يكون الأمر فقط أنّهم اعتادوا هنا على أنواع غربيي الأَطوار جميعها، لكن هناك عشرة أشخاص إلى خمسة عشر شخصًا راحوا يستمعون إليه بانتباه، وانضمّ آخرون مفتونين بجسمه المهيّب. كان يلعن نفسه كثيرًا بلا رحمة:

• الكلام هنا مختلط ما بين الإنجليزي والروسي. وآثرت ترجمة العبارات الروسية فقط، والإبقاء على العبارات الإنجليزية كما هي. [المترجم]

«حسنًا، كيف لم تحضّر على الأقلّ خطابًا صغيرًا باللغة الإنجليزيّة؟». مع ذلك، يبدو أنّهم لا يعرفون الإنجليزيّة هنا بشكل عام، على الرغم من أنّ هناك فتىّ يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا تقريبًا قام بالترجمة لاثنين أو ثلاثة أشخاص وقد انحنوا له مقدّرين. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن الأب فاسيلي يجيد اللغة الإنجليزيّة، وقد ارتبك في تلك اللحظة وهو يحاول توضيح سبب كون الليبراليّة سيّئة بالنسبة إلى أوراسيا.

ثمّ قرع الرجل العجوز جرسه مرّة أخرى، لكن لماذا هذه المرّة؟ رفع الأب فاسيلي يديه للأعلى وعلى الجانبيين بكفّين مفتوحتين عن بعد، كما لو كان قد ضغط على المستمعين.

- أبارككم! (I bliss you!)

و.. أسرع مبتعدًا.

كلّ شيء فيه غنى -بطريقة أو بأخرى- بصوت رقيق، كما لو كان خائفًا. مهما كان، إلّا أنّه بشرّ وأعلن عن أفكاره.

عند الخروج بشكل غير مباشر من دائرة المستمعين، كاد يدوس على بضائع امرأة كانت تبيع هناك، كان رأسها ملفوفًا بالأبيض، وقد مدّت يديها بحالة دفاع. وكانت يداها متحرّرتين. كانت تبيع سلطعونات مجفّفة، وأفاعي، وقلادات من الأسنان.

اتخذ الأب فاسيلي طريقه إلى اليمين. مرّة أخرى تقريبًا كاد يكسر إبريق بائع آخر يقف على الرصيف بجوار سجّادة. ركّز الأب فاسيلي، وتمكّن من العبور

من بين الحلاقين في الشوارع والأشياء المعروضة للبيع على الإسفلت، خارجاً إلى مكان واسع وفارغ.

نظر حوله، كان العجوز قارئ الكفّ يتكلّم وسط الحشد الذي أحاط به، وكان الجميع ينظرون إلى الأب فاسيلي الذي لوح لهم بيده مرّة أخرى وابتعد. تصارع لديه الشعور بالخزي مع السرور الحارّ بسبب النجاح. تضاءل الشعور بالخزي تدريجياً وتعزّزت لديه القناعة بأنّه نجح.

لقد صدّق الأب فاسيلي الآن كما لم يكن من قبل: توجد هنا حاجة إلى دين جديد، وهم ينتظرونه!

وجد طريقاً إلى نهر هوغلي ورأى الناس هناك يغتسلون.

على الجانب الآخر للنهر، الذي يصل اتساعه إلى حوالي المئتي متر، إن لم يكن ثلاثمائة، كانت توجد مباني معامل، مستودعات ومراسي. يبدو أنّه على هذا الجانب أيضاً توجد أدراج ينزلون بواسطتها إلى الماء، ولكن لم يكن في الإمكان رؤية ذلك.

كان النهر يتدفّق من اليمين إلى اليسار بسرعة كبيرة، ولا توجد مقارنة مع الأنهار الروسية البطيئة، باستثناء فترة الفيضانات لدينا، إذ يحدث مثل هذا التيار. اندفع ماء النهر البنيّ مع فورة ذات صوتٍ يشبه تقريباً الصفير هناك، إذ يصبح على تماس مع شيء ما بالقرب من الشاطئ ويصدر رغوة فقاعيّة.

كان القارب ذو المحرّك يصارع للوصول إلى أعلى النهر، متعلّباً على التيار، وكان اجتياز المياه يصعب على القوارب التقليديّة ذات المقدّمات المقوّسة والأشعة.

إلى يمين المكان الذي اقترب منه الأب فاسيلي، رست القوارب -لسببٍ ما- محمّلةً بالقشّ عند الرصيف.

اقتربت المنازل من المياه حتّى كادت تلامسها، وقد نزلت هياكلها من أحد طرفيها في الماء. تلك الهياكل التي ظنّ أنّها حمّامات فرديّة.

جلب الاغتسال الكثير من الناس بشكل ملحوظ. تقود درجات حجريّة إلى النهر. قليلاً إلى يمين المكان الذي كان يقف فيه الأب فاسيلي، دخلت امرأة نهر هوغلي حتّى خصرها، وكان الساري مبلّلاً، ممّا يعني أنّها غطست بالماء بالفعل.

لم يرَ وجهها، لكن يبدو أنّها كانت تصليّ، إذ إنّها كانت قد قرّبت كفّيها المشبكتين إلى جبينها.

إلى اليسار، دخل رجل الماء حتّى صدره تقريباً وانحنى نحو الضفّة الأخرى، أو بالأحرى نحو النهر. ثمّ بعد أن ملأ إبريقاً ماءً، راح يسكبه على رأسه من خلال عنقه الدقيق.

وكان الشباب يتخبّطون كثيراً، يسبحون ويصرخون. على الشاطئ الذي يقف عليه الأب فاسيلي، كان الأطفال يحاصرونه، أعطاهم آخر قطعة نقدية وفكّر: كيف سيخلع ثيابه؟ فهم سيختطفون على الفور حقييته، ومحفظته.

دخل الهنود النهر بثيابهم، ولكن هذا يعني فقط أنّهم لم يحملوا معهم أيّ شيء يمكن أن يتلفه الماء.

بشكل عام، كان الشعور الديني هنا واضحًا. اقتربت رائحة دخان البلسم من جهة اليمين، مع مذاق غير طيب: هل يتم إحراق الجثث؟ سمع صوت فرقعات الحطب، الذي كان من النوع الزيتي.

بالقرب من الشاطئ جلس رجل عجوز ذو شعر ثلجي مغلقاً عينيه وهو يتمايل قليلاً ويداه مطويتان على شكل قارب صغير عبر بطنه.

بالقرب، كان هناك إبريق معدني مثل إبريق الشاي، وكان رجل عجوز يحمي نفسه من الشمس بطبقٍ مجدولٍ من الخوص على شكل فطيرة ومثبت على عصا، مثل المظلات التي تشبه الفطر على شواطئنا. كان هناك الكثير من هؤلاء الناس، ولم يكن واضحًا إن كانت تلك المظلات عامة أم خاصة.

كما لاحظ الأب فاسيلي نوعًا من المقصورات. ألا يمكن أن تكون هذه غرف لتغيير الملابس؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك، فربما تكون مدفوعة الأجر، وهو لا يرغب في الدفع.

خلع ملابسه وحشا كل شيء في سرواله، ربط ساقَي السروال وشدّ عليه الحزام. كان قد ارتدى مسبقًا سروال سباحة، فشدّ العقدة تحت إبطه ودخل المياه الباردة الممتعة التي تغطيها الرغوة التي تشبه الهدب.

كان الجسمُ المعذبُ بالحرّ متعطّشًا إلى الاستحمام، والعرقُ الذي يجفّ - مشكلاً قشرةً - من شأنه أن يسدّ المسام لولا نزيف الموجات الساخنة الجديدة منه.

لكن الأب فاسيلي ظنّ أنّ الوقوف في الماء ووضع العقدة فوق رأسه سيكون موقفًا غريبًا، لكنّه عاد ليضعها أمام الرجل العجوز. ألا يمكنه أن يحرسها؟

فتح الرجل عينيه الواسعتين اللامعتين، الأوروبيّتين نوعًا ما، غير السعيدتين، على اتساعهما. قال شيئًا كثيرًا، رفض وأغلق عينيه مرّة أخرى. إلّا أنّ الأب فاسيلي لكز كوع شاب هنديّ عريض المنكبين له شارب أسود، كما أوحى بشيء فيه إدانة، ولوح بيده بذراع مرتخية. دسّ الأب فاسيلي العقدة بقوة خلف لوح حجريّ.

- ها أنا أطلب منك ومنه أيضًا، أن تراقب العقدة! (Please look after it!).

وأضاف مهدّدًا الصّبيّة الذين يدورون في المكان دون أن يسمّعوا شيئًا: «وأنتم أيّها الرفاق لا تقتربوا منها!»، واتجه إلى النهر. اتجهت نحوه المرأة الهنديّة التي كانت تصلّي، وكان ساريها المبلّل قد التصق بجسدها الجميل مبرّزًا مفاته. نزل الأب فاسيلي في الماء على الدرجات شاعرًا بها بأقدامه العارية، وتقدّم حتّى خصره، ثمّ تقدّم حتّى الصدر... ثمّ غطس، وقد اختطفه النهر البنيّ.

-19-

أجل مارتن جولته في الغرب الأوسط غير مرّة، ربّما لأنّ شيئاً ما عنده لم يعد مستقرّاً، أو لأنّ العلاقات بين منظّمة «السفراء المسيحيّون» وقيادة بعض الكنائس -نفسها- لم تعد على ما يرام.

ربّما تلقّى ملاحظة حادّة للغاية تفيد بأنّه كان يثير الفزع. «إذا هلك عمل المسيح في روسيا، فإنّ الولايات المتّحدة لن تستطيع البقاء»، هذا ما كان يقول، ولكن هنا -بالتحديد- لم يتمكّن من إثبات ذلك لأيّ أحد. كيف يمكن أن تفعل ذلك دون الحديث حول ما سبّبه له الأب فاسيلي من معاناة؟ ولم تكن لديه رغبة في الثرثرة في هذا الموضوع.

جاء الشتاء أخيراً، وانطلق بنشاط. ففي صباح أحد أيام السبت تحرّك بالسيارة على طول الطريق الخامس والخمسين جنوباً، وكانت المحطّة الأولى: سانت لويس.

تحوّلت خطوط الطريق الجافّة في هذا اليوم الصقيعيّ إلى اللون الرماديّ المصفرّ بين التلال البيضاء. تسبّبت الرياح الجانيّة في هبوب الثلج على الطريق، لكنّ الرياح الشديدة هنا حملت الثلج بعيداً.

برز العشب المتجمّد من مكانٍ ما تحت الثلج، كأنّه معدن غطّته طبقة من الصقيع في بعض الأماكن، ولم تُخفِ الغابات المحتوية على مساحاتٍ فارغةٍ من الأشجار المشاهد البعيدة.

تجمّعت هنا وهناك، على التلة، المباني والأشجار حول بيت المزرعة، وكان ذلك يذكر بمزارع البلطيق.

وها هو أفق لا يُصدّق ينفّتح أمامه! صعد الطريق عبر خيط رفيع جدًا إلى المرتفع التالي بعد الوادي. لم يكن هذا المكان يحمل أيّ سمة مشتركة مع أوروبا.

فوجئ مارتن عندما وصل إلى هنا أوّل مرّة، بأنّ الطرق تتكوّن من مسربين فقط في كلّ اتجاه. بدا ذلك كافيًا، وعليك أن تسرع.

هناك توجد مناطق خدمات، بكلمة فجّة: مرحاض. يمكنك أن تصل إلى أحدها كلّ أربعين دقيقة تقريبًا. وفيها أيضًا بهو، إذا جاز التعبير، فهو عبارة عن محطة فيها خرائط مجانية لطرق الولاية وآلات أوتوماتيكية تباع أنواعًا كثيرة من السلع، ويوجد فيها أيضًا مروج عشبية وممرّات.

يتأمل سائقو السيارات الأميركيّون المكان مثلما تتأمله أنت، ويدلّكون أقدامهم. من يجد نفسه صدفه في هذه الاستراحة، ربّما أوّل وآخر مرّة في حياته، سيشعر أنّه مالكها.

سرعان ما أطفأ الشعور بالأخوة الأميركيّة مارتن، في أثناء القيادة على الطريق في الولايات المتّحدة. ربّما كان الأمر أكثر أهميّة بالنسبة إليه من المواطنة وكلّ ما يتعلّق بها. أخوة سائقي السيارات، أخوة المستهلكين هي عتبة منخفضة جدًا في الولايات المتّحدة؛ إذ لا تلاحظ كيف تجد نفسك - بالفعل - في الداخل، وكيف تصبح أميركيًا!

اشتعل في نفسه مرّة أخرى الشعور بأنّه أميركيّ عندما عزم على جرّ الأعشاب في الأرض التابعة لمنزله.

في نهاية شهر أيار، عندما تشتدّ الحرارة بإحكام وتصبح الأشجار معتمّة بسبب كثافتها، تحتاج جرّازات العشب في المدن والبلدات الأميركية.

كان مارتن يسمع ضجيج الجرّازات هذا في وسط المدينة حيث كان يعمل، وعندما كان يركن سيارته مساءً في المرآب ويذهب إلى المنزل. في ذلك الوقت كانوا قد اشتروا منزلًا في إنديانابوليس، وسرعان ما أصبح واضحًا أنّهم أخطأوا في ذلك، فباعوا المنزل قبل أن يكملوا العام من العيش فيه، وقد بدا في البداية أنّهم سيسكنوا فيه فترة طويلة جدًا. هناك وهنا كان يرى كيف يجزّ الجيران مروج العشب.

هذا فتى -تلميذ- يرتدي قبعة حمراء، أدار مقدّمها إلى الخلف، يسحب على عجل جرّازة العشب التي تقذف من فيها نثار العشب المجزوز. بدا أنّه مُجبر على هذا العمل، فلدى المراهق أشياء أخرى عاجلة ومهمّة ليعملها! لكنّه لن يفلت. لم يكن والداه موجودين، ولا أثر لهما، لكن من الواضح أنّهما أجبراه على ذلك، ربّما أوّل مرّة في حياته.

وهذا رجل مسنّ يتبع الجرّازة ببطء وقد أمال رأسه تمامًا كما لو كان يحاول تذكّر شيء ما ولا يستطيع، كما لو أنّ إزعاجات فصول الربيع الماضية كلّها قد حطّت عليه مرّة واحدة.

خرج مارتن أيضًا إلى فناءه الواقع في زاوية تربط شارعين طويلين كما لو كانا يمتدّان بخضرة إلى ما لا نهاية. غطّت حرارة النهار أذنيه كما لو كان

بقطنٍ ساخن، والتصق قميصه الرياضي بجسمه من العرق. وكان العشب الكثيف القاتم والطويل جدًّا -الذي بدا كأنه صناعي- يرتدّ تحت الأحذية الرياضية كأنه نوابض زبركيّة. وهذا يعني أنّه آن أوان جزّه.

وهنا طغى لديه شعور بأنّه مثل الجميع، أميركيّ! لقد حلم بالهجرة، صدّق ذلك ولم يصدّق، لكن الآن تحقّق الحلم، إنّهُ مواطن من مواطني هذه القوّة العالميّة العظمى!

استقلّ مارتن سيارته وتوجّه إلى نقطة تأجير المعدّات الزراعيّة، حيث كان من المفترض أن تكون الجزّازات. تُرى كم سيكلف استئجارها يومًا واحدًا؟ وأيّ واحدة يجب عليه استئجارها: تلك التي تُدفع دفعًا؟ أم الأعلى ثمنًا التي تُقاد مثل السيارة؟

حينما وصل إلى المركز وخرج من السيارة، أدرك أنّ الناس لا يجزّون -جميعهم- المروج بأنفسهم!

إضافة إلى أنّ العشب عندما يكون فوق مستوى معيّن من الطول، فإنّه من غير المعتاد أن يقوم بجزّه الأفراد أنفسهم، بل يستدعون أشخاصًا يدعون «جزّازي العشب»!

أمّا هو -مارتن بونديس- فقد كان ينتمي إلى تلك الطبقة من الأميركيين غير البسيطين، وهو لاجئ سياسي، وربّما لا يملك الحقّ في جزّ العشب بنفسه.

بعد أن وطأ الأرض الخرسانيّة لموقف السيارات الملتهبة من حرارة الشمس، عاد ليجلس مرّة أخرى في السيارة الباردة المكيّفة.

نعم، كل شيء صحيح: يجب أن تكون هناك خدمات مثل هذه وشركات خاصة بها؛ تتصل وتستدعي العامل المختص. وليكن راتبك كله ديونًا. مع ذلك، تصرف هكذا. لقد جزوا له العشب في اليوم التالي، بينما كان في العمل، ولم يكن ذلك مكلفًا للغاية.

لذلك لم يجرّ مرجته في أميركا مرّة واحدة. وبطبيعة الحال، لم يفعل ذلك هنا في شيكاغو، إذ لم يكن لديه وقت على الإطلاق.

بطبيعة الحال أيضًا، فقد فهم المفارقة الساخرة، إذ لم يسمح له ماضيه السوفيتي بذلك، على الرغم من أنّ الاتحاد السوفيتي اشتهر بميله للشمولية حتى في جز العشب!

راح يفكر في موضوع الهجرة من جديد. لقد فكر في ذلك كثيرًا من قبل. وفكر فيه أيضًا اليوم، في الطريق إلى سانت لويس. يبدو أنّ تفكيره اليوم كان أكثر توترًا من المعتاد بشكل خاص.

لقد كانت رحلاته جميعها مميزة، فكلّ يوم فيها لا يشبه الآخر.

يفصل شيكاغو عن سانت لويس نحو ثلاثمائة ميل، أو خمس ساعات في السيارة. في منتصف الطريق، في سبرينغفيلد، تناول وجبة خفيفة ثم توقف مرّة أخرى لتمديد رجله.

كان يخطّط لأن يبقى في سانت لويس مدّة أربعة أيام، ثم يغادر -بعد ذلك- إلى كنساس سيتي، ومن هناك إلى أوماها، ليركن السيارة هناك ويسافر في الطائرة إلى دنفر، وكولورادو وإلى المدن الكبيرة والصغيرة في شمال وجنوب داكوتا ومينيسوتا.

لحسن الحظّ، فإنّ في عشرات آلاف المدن الصغيرة -أحياناً- مطارات. ثمّ عندما يعود إلى أوماها، سيزور مرّة أخرى بسيارته دي موين وأيوا سيتي، ويتوقّف في محطّات في أيوا وإلينوي، ثمّ سيكون في المنزل.

كانت هذه دائرة صغيرة قريبة، وكان مارتن يعرف الرحلات الأكثر توفيراً. بعد أن جاء غورباتشوف، لم تعد لديه مشاكل في الموافقة على الرحلات؛ سُمح له بالاستيلاء على الأجزاء الأكثر جدوى من أميركا المؤمنة. وهؤلاء لا يتطابقون دائماً مع الأحياء الغنيّة ببساطة. على سبيل المثال، لم يجذبه كِلا الساحلين المزدهرين. قلّما يتبرّع الناس لصالح الدين كلّما كانوا أكثر حداثةً وشبعاً. لكنّه أحبّ هذه المساحات شبه البريّة من كنساس، نبراسكا، كولورادو والنواحي الزراعيّة قليلة السكّان، إذ إنّ القسّ ناريّ الخطاب يعرف -رغم ذلك- كيف يجمع ما يكفي من المال من أجل إذاعة صوتها يدويّ كأنّه صدمات كهربائيّة، أو مجلّة مسيحيّة لامعة، تجعل الشعر يقف. نعم، كما أنّه يقدّم للمنظّمة التبشيريّة شيئاً ما. بدت ولاية كولورادو الجبليّة القاسية بأكملها -لـ«مارتن»- منبراً كهنوتياً مرتفعاً يُدين من فوقه خطيبٌ ما -ليلاً ونهاراً، دون انقطاع- أميركا والعالم كلّه.

لقد خطّط لعقد اجتماعات مهمّة في كولورادو، ولكن في البداية كانت سانت لويس تنتظره، حيث كان من المفترض أن يُجري حواراً نقديّاً مع الدكتور بيرري، رئيس واحدة من أكبر الكنائس الأميركيّة، تقع إدارتها الروحيّة في عاصمة ولاية ميسوري.

تزامنت محاولة مارتن جزّ العشب في إنديانابوليس تقريباً مع رحلاته إلى الكنائس الإقليميّة لجمع تبرّعات المئة دولار. لقد كانت درجة عالية من امتصاص شيء من الثراء الأميركي، ولم يندم على أيّ شيء في ذلك الوقت، على الرغم من أنّه يدرك الآن أفضل من أيّ وقت مضى أنّ أميركا -قبل كلّ شيء- عبارة عن أموال هائلة.

لقد كان هذا تأثير السياسيّ أو رجل الأعمال أو حتّى الواعظ التلفزيونيّ الشهير المعروف في ماكدونالدز من مكتبه على العالم كلّه. عادة ما تشغل الإدارة الروحيّة للكنيسة الأميركية الكبيرة مبنى كبيراً متعدّد الطوابق؛ ومكتب رئيسها يشبه مكتب رئيس شركة عابرة للقارّات. مع ذلك، كان الدكتور بيرري أحد رؤساء الكنيسة الأقوياء، على الأغلب من خلال مركزه الوظيفيّ، وليس من خلال شخصيّته.

كان رجلاً يرتدي نظّارة، وله كتلتان من شعر مجعّد أسود تبرزان على جانبي صلعته. تكشف ابتسامة عن أسنان لم تكن منتظمة تماماً، وربّما لذلك السبب كانت تبدو -قليلاً- ابتسامةً تحمل شعوراً بالذنب.

كان الدكتور بيرري حالة كلاسيكيّة لقائد لا يكون تأثيره من خلال بعض الرميات الجريئة، ولكن من خلال الهضم العنيد لما يحقّقه بالفعل والتحرّك في المكان نفسه، وهو ما دعا إلى تكوين انطباع عن عظمة كنيسته بشكل غير مفهوم.

لم يكن لـ«مارتن» أن يتوقّع أيّ مساعدة منه لمنظّمة «السفراء المسيحيّون»، لكنّ أولفين بيرري كان -بالفعل- قد أعلن فجأةً، في أوّل لقاء

لهما قبل سنوات عديدة، أنه مع اتخاذ إجراءات حاسمة في المعسكر الاشتراكي السابق. كان العديد من رعايا كنيسته مع هذا الطرح، وهو أيضًا - بوصفه رئيسًا - لا يستطيع إلا أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار.

«كم ذلك مؤلم!» فكّر مارتن حينها، إذا كان شخص شديد الحذر مثل الدكتور بيرى مع هذا الطرح!

قبل عام، كان مارتن قد التقى به مرّة ثانية، والتقى بواسطته مع آخرين. أعلن بصخب في ذلك الوقت عن مؤتمر بروتستنتي كبير في سانت لويس، انتهت المراسم الرسميّة وحن وقت المراسم غير الرسميّة. وقد دعا أولفين ثلاثة من رجال الأعمال إلى منزله، كان قد استقطبهم من أجل التبرّعات، ودعا مارتن لاستشارتهم. حينها تنامت الشائعات حول إزالة برامج «السفراء المسيحيّون» التلفزيونيّة من الهواء، وكانت العديد من المشاريع الجديدة ما تزال تلوح أمام مارتن.

لقد تحدّثوا عنها في أثناء وقت الغداء، حتّى إنّ الحديث كان بعد الغداء حميمًا أكثر، إذ يقدّمون -وفقًا للتقاليد الأميركيّة الجيدة- كلّ شيء مع النبيذ المُحلّى، ويسترخون في غرفة المعيشة على الكنبات والأرائك.

انفصلت النساء في غرفة أخرى، وغادر أولفين أيضًا إجراء اتصال. دفع أحد رجال الأعمال في مجال الأغذية -وهو شابّ يعمل رئيسًا في شركة كبيرة لبيع المنتجات- دفع مارتن فجأةً إلى الحديث، لكن -كما يحدث عادةً- فقد تطوّر الحديث بشكل حادّ.

برز أنفه بقوة مثل القندس، وهو أكثر شيء ملحوظ في وجهه، وقد احمرّ الآن بسبب الكحول، وكانت عيناه الكبيرتان جدًّا لا تخفيان تعابيرهما. كان هناك شعور بأنّ لديه قدرة على السحر، بل والإغواء، حتّى إنّ هذا يُقرأ في نظراته الباسمة: «نعم، أنا أحبّ نفسي أكثر من أيّ شخص آخر في العالم، أو لستُ على حقّ؟».

«حسنًا، لقد تحدّث جيدًا عن الخدمة التبشيريّة في روسيا»، قال ملتفتًا إلى مارتن بشيء من السخرية، ثمّ أكمل: «لكن قل لي، هل ستحتاج إلى تدخّل عسكريّ؟ ألا تراه ممكنًا؟».

نظر إلى مارتن مبتسمًا قليلًا. كان هناك شعور بخطر قادم منه، أو بالأحرى: (خدعة قدرة)، ولم يعرف مارتن بماذا يجيب. سبقه رجل أعمال آخر أشيب الشعر والشاربين. تتمم قائلاً: «التدخّل العسكريّ عمل خطير ولعين، لقد جرّبوه سنة 1918 ولم ينجح».

ضمّ رجل الأعمال التغذويّ كتفيه، وقال: «عندما تعمل، لا بدّ أن تكون هناك إخفاقات، لكنني أسأل القسّ بصفته قادمًا من هناك. هل يجب أن ننتظر حتّى يقوم أعداؤنا السابقون بتحديث أنفسهم ويصبحوا وقحين مرّة أخرى؟».

تتنحى مارتن: «إذا حدث هذا، عندها نقرّر».

جرع رجل الأعمال التغذويّ النبيذ المحلّى (ليكيور) ووضع الكأس على الطاولة: «أنا أسأل، هل هذا المنعطف ممكن؟».

تمتم الرجل الأشيب مرّة أخرى: «التدخّل عمل لعين غير موثوق به»، وأجاب مارتن بحزم:

- هذه هي فكرة عمل «السفراء المسيحيّون» من أجل استغلال الوقت الحاضر، وتذكير أعدائنا السابقين بالمسيح، وتذكير أنفسنا في الوقت نفسه.

رفع رجل الأعمال التغذويّ كتفيه مستاءً وقال بتهوّر:

- أريد فقط أن أقول إنّ هناك قرارات غير سارّة، وهي تلك القرارات التي علينا اتخاذها. في رأيي، فإنّ شأننا فقط مع قرارات مثل هذه. لكنّه لم يصرّح بشكل مباشر بأنّه كان مع التدخّل، إذ ما من داعٍ لتسمية الأشياء بأسمائها، لقد كان ذلك واضحًا. أمّا مارتن فقد كان مع الضغط السياسيّ فقط، ولم يكن بذلك الموقف منافقًا. كان ذلك قبل عام. فما الموقف حاليًّا؟

والآن لم يعد متأكّدًا تمامًا. في بعض الأحيان، كانت نوبات تهيج تجتاح قناعاته: لا يمكن حلّ أيّ شيء من دون قوّة! ترى، هل جاء المسيح بالسلام أم بالسيف؟

في روسيا، مُنِع «السفراء المسيحيّون» من الوصول إلى التلفزيون، ولكنّ ألا يهم هذا أميركا المسيحيّة؟ ف«السفراء المسيحيّون» يمثّلونها - بالتحديد - ولا يمثّلون أنفسهم.

وكم كان تصرّف أولفين بيرى جباناً! كان يكفيه معرفة أنّ مارتن كان يمرّ بمشاكل في التلفزيون، وقد تبخّرت رغبته في التبشير بنشاط. والمبالغ التي قُدّمت وعودٌ جازمة بدفعها، أُجّلت الآن تحت ذرائع مختلفة.

كم كانت تزعج مارتن هذه الحساسيّة الكاذبة الزائفة! ولمواجهة هذا حقّاً، كانت لديه الرغبة في أن يحطّم كلّ شيء بضربة جريئة.

دع الطائرات تحلق في السماء، ولتُفتح حِزْمُ الأوامر على السفن الحربيّة، وستتغيّر النعمة على الفور في القنوات التلفزيونية ومحطّات الراديو جميعها، ولدى الكهنة في منابر الكنيسة. سيكون ذلك في البداية عرضاً للقوّة، وحينئذٍ -مَن يدري؟- ربّما سيكون كافياً؟ ولكن حتّى بالنسبة إلى عرض القوّة، بدا العديد من القادة الأميركيّين غير مستعدّين الآن.

لا، إنّ مارتن يختار طريق النضال، وليحدّر مَن يحاول منعه! سيخبر أولفين عن هذا غداً، ليس بوقاحة -بالطبع-، ولكن بما يكفي لجعله يفهم. هكذا فكّر مارتن في هذه الرحلة، ساعة بساعة. وأخيراً، كان يقترب من سانت لويس.

كثّر عدد مباني المدينة في المحيط، وازدادت المسارب في الشارع. كانت مدينة إيست سانت لويس تواجهنا على الضفّة اليسرى من الميسيسبي. لكن في الجزء الرئيسي من المدينة تألّقت ناطحات السحاب المتجمّدة على اليمين، وقد اتجه مارتن إليه.

كان الدخان يتصاعد من البقع السوداء المنتشرة على الميسيسيبي المغطى بالثلج. مع ذلك، لم يكن هناك مجال للنظر إليه بسبب حركة المرور الكثيفة جدًا على الجسر.

في سانت لويس، تمكّن مارتن -على عجل- من النزول في فندق، وتناول الغداء مع المدير التنفيذي لمنظمة مسيحية. وفي المساء سوف يقدم موعظة في كنيسة سانت بول.

للوصول إلى فندق هوارد جونسون، حيث كان ينزل دائمًا، كان من الضروري الانتقال فورًا بعد الجسر من الشارع الخامس والخمسين إلى الشارع الرابع والستين، وهو ما فعله. بعد ذلك، كاد يضيع المكان الذي كان عليه الالتفاف منه إلى الشارع المؤدّي إلى الفندق.

مع ذلك، التفّ. والآن، كان من الضروريّ تعديل السرعة. تذكّر أنّه قد وصل بالفعل من الطريق السريع الواصل بين المدن إلى شوارع المدينة المليئة بإشارات المرور.

مع ذلك، عندما اشتعل الضوء الأصفر عند التقاطع التالي، قرّر مارتن أن في إمكانه التجاوز سريعًا؛ فضغط على دواسة البنزين.

بدا كما لو أنّه كان يطارد سيارة «مازدا» بيضاء، على الرغم من أنّه من جهة اليمين، وكانت السيارات العرضية قد انطلقت مُصدّرة هديرًا.

فجأة، خلف التقاطع مباشرةً، خرجت شاحنة من الطريق الجانبي مخالفةً -على ما يبدو- جميع القواعد. بدأ كلّ السائقين أمام مارتن

يكبحون سياراتهم، كما اشتعلت أنوار الـ«مازدا» الخلفيّة الحمراء، ضغط مارتن على فرامله بقوة كلّها.

مع ذلك، كاد يصطدم بسيارة الـ«مازدا»، ولكن كان من المستحيل الالتفاف نحو اليسار، إذ كانت هناك قاعدة خرسانيّة على الخطّ الذي يقسم الشارع، حينها استدار في اللحظة الأخيرة نحو اليمين ومرّ دون أن يمسّ مؤخّرة سيارة الـ«مازدا» المتوقّفة.

ضغط رأسه بين كتفيه مغمضاً عينيه لأنّ المكابح أصدرت صريراً من ناحية اليمين.

لكنّ الله لطف، إذ إنّ السيارات كلّها من جهة اليمين توقّفت ولم تلمسه. أدرك مارتن بوضوح أنّ ذلك كان ردّ الربّ على أفكاره عن الحرب! مع ذلك، في الأمام من ناحية اليمين، سمع صوت اصطدام الحديد بالحديد قليلاً، كما سمع رنين الزجاج المكسور، ولكنّ هذا، على ما يبدو، لم يحدث معه؟

اتضح أنّ سيارة مارتن الـ«شيفروليه» الطويلة وسيارة الـ«مازدا» البيضاء أغلقتا الطريق نحو اليمين أمام الجميع، ولكن في أقصى المسرب الأيسر، تمكّنت سيارة من الفرملة، ودارت بعناية حول مؤخّرة سيارة مارتن، ثمّ بدأ آخرون في التسرّب خلفها. في المسرب الأوسط، لم يتباطأ سائق سيارة الـ«فورد» الأرجوانية وحسب، ولكنه أخذ سيارته إلى اليمين قليلاً حتّى لا يصدم سيارة مارتن باهظة الثمن، فاصطدم بسيارة فورد فضيّة أخرى على المسرب الأيمن الأقصى.

بدأ مارتن يرتجف. خرج من سيارة الـ«فورد» الأرجوانية رجل بشارب يشبه سنابل القمح، ويشبه صهره ستن، ويرتدي سترة باللونين الأسود والرمادي، وراح يطلق التهديدات. ومن سيارة الـ«فورد» الفضية، قفز رجل أسود انحسر الشعر عن زاويتي رأسه، وكان يرتدي بدلة وربطة عنق عليها نقاط خضراء تشبه البازلّاء.

خرج مارتن من سيارته أيضًا مرتجفًا بشدة، ليس من البرد.

نظر الاثنان إليه بكراهية، خاصّة الرجل الأسود.

- تعال هنا، أيّها الرجل، تعال وانظر.

- الشاحنة! (صاح مارتن بشكل ضعيف مشيرًا إلى الأمام).

- لا، أيّها الرجل، ليست الشاحنة! (قال الرجل الأسود عابسًا) ليست

الشاحنة! الحقيقة أنّك قطعت الإشارة الحمراء!

- ولكن لماذا انحرفت أنت؟ (تحول مارتن إلى الرجل ذي الشارب

الذي يشبه السنابل).

- لكن لماذا توجد إشارة ضوئية؟ نحن تحرّكنا مع الإشارة الخضراء.

- اقترب هنا، أيّها الرجل، انظر!

أمسك الرجل الأسود مارتن من كمّته، تفلّت الأخير منه، ثمّ جذبه من الصدريّ، وبدأ يلوي ذراعه.

انطلقت جوقة أصوات جماعية:

- هي، هي، أيّها الرجل، لا تغضب. لا تغضب.

هذه الجوقة المتناغمة تعني الرأي العام باللغة الإنجليزية. أفلت الرجل الأسود مارتن لاعناً، فذهب الأخير إلى سيارته، أخرج منها معطفه وارتداه. لكن ارتجافه لم يكن بسبب البرد. ففكرة أنّ الربّ كان قد ردّ على رغبته في الحرب قد سحقته أكثر فأكثر. ما حدث حوله في كلّ مكان، غيّر العالم كلّّه بالنسبة إليه، لكن هل يمكن أن تكشف لنا إرادة الله أيّ تأثير آخر؟

عينا شخص رماديّتان راحتا تتأملان وجه مارتن عن كثب.

- هل أنت بخير؟ أنا طيب.

«نعم، نعم، أنا بخير» جمع مارتن أصابعه أمام ذقنه وقال بصوت عالٍ: «الشكر لك يا رب لأنّك تركتنا أحياء سليمين»، وأوضح للجمهور الذي احتشد قائلاً: «أنا قسّ، رئيس منظمة «السفراء المسيحيّون»، وأنا على استعداد لتحمل المسؤولية كاملةً بموجب القانون، إذا كنت قد خالفت شيئاً ما!».

ذهب ليرى ماذا حدث لسيارتي الـ«فورد». كان مصباح الـ«فورد» الفضية قد كسر قليلاً.

تحولّ الرجل الأسود نحو الرجل ذي الشارب الذي يشبه السنابل:

- أنت مدين لي! من فضلك، اسمك وعنوانك. سيّصل بك محاميّ، أمّا أنا فسأذهب، ليس لديّ وقت!

من جديد تعالت أصوات الحشد:

- إي، إي، أيّها الرجل، اقترّب. الآن سيوضحون الأمر، اقترّب. وراحوا يتبادلون الآراء:

- الخسارة بحدود مئة دولار.
- نعم؟ على الأغلب ألف دولار.
- على أيِّ حال، شيء تافه.
- على أيِّ حال كان مارتن يستمع وكأنَّ الكلام يأتي من بعيد.
- «سائق الشاحنة هو المسؤول!» أكَّـد ذلك سائق الـ«مازدا»، وآخر كان يقود سيارته أمام الـ«مازدا»، حتَّى إنَّه تمكَّن من تدوين رقم الشاحنة التي هربت.
- ازدادت أصوات أبواق السيارات وأصبحت لا تُحتمَل، والآن راحت تومض أضواء سيارات شرطة المرور الحمراء والزرقاء.
- بعد ذلك بساعتين أو أكثر قليلاً، كان مارتن يقف بالفعل تحت الـ«دُش» الساخن في غرفته في فندق هوارد جونسونز.
- سُوِّيت الأمور الشكليَّة بسرعة تقريباً، ولم يُضطرَّ أحد إلى دفع أيِّ شيء على الإطلاق. الجميع، كما هو متوقَّع، لديهم تأمين، ويجب على الجميع تسوية أمورهم مع شركات التأمين.
- فقط كان على مارتن إلغاء الغداء مع المدير التنفيذي، لكن يبقى لديه الوقت لأداء خطبته في الكنيسة.
- مع ذلك، كلَّما مرَّ الوقت أصبح العذاب والخزي أعمق وأكثر إيلاماً، فبغض النظر عن أنَّ اللوم أُلقي على سائق الشاحنة، لكنَّ مارتن كان المسؤول عن كلِّ شيء!

نعم، عند كل تقاطع تقريباً هناك شخص ينطلق في اللحظة الأخيرة، ولكن هل كان مارتن من هذا النوع من الأشخاص حقاً؟ لكنّه كان يعتقد أنّه كان أحد أولئك الذين يكبحون سياراتهم قبل الآخرين.

يحدث أن تُخاطر، وتمرّ المخاطرة، لكن بعد ذلك ستظلّ متوتّراً وخائفاً من الخطر الحقيقي الذي كان. لكنّ هذا لم يحدث في هذه الحالة، أو بالأحرى، لم يحدث بتلك التفاصيل تماماً.

كلّ هذه الأفكار بقيت على مستوى التعامل مع الشرطة، وعلى المستوى اليوميّ، والأهمّ من ذلك أنّ مارتن كان يشعر أنّ ما حدث كان له مستوى مختلف.

وكلّما مرّ الوقت أكثر أصبح ما أراد الله أن يوصله من خلال هذا الصدام أكثر فهماً، إلّا أنّه أكثر غموضاً في الوقت نفسه. ذلك يحدث عادةً في تجلّيات إرادة الله.

فهم مارتن المعنى العام لما حدث: الربّ يقرّر كلّ شيء. إنّهُ وحده من يقرّر كلّ شيء، في الحرب والسلام والحياة والموت.

بعد مرور فترة من الزمن، كان مارتن يجلس في غرفة المذبح في كنيسة القديس بولس. وبينما كان الـ«أورغن» يهدر في الكنيسة والراعيان يشدون، كان مارتن يفكّر في أنّ عليه أن يتوقّف عن إلقاء المواعظ تماماً.

كان مصدوماً للغاية - هو الذي كان مؤمناً جداً بالله - بأنّ يعدّ حدثاً مهماً حدثاً فارغاً!

طوى ورقة الخطبة المطبوعة، ثمّ فتحها ولم يكن يعرف ما إذا كان سيحاول تغييرها، وبشكل عام، ماذا كان عليه أن يفعل. وضع الأوراق جانباً، ورفع أصابعه إلى وجهه مغلقاً عينيه وراح يصلي. لكنّه عندما صعد لاحقاً إلى منبر الكنيسة العالي، كان لا يزال لا يعرف ماذا سيفعل.

نادراً ما يتجمّع الناس في القاعة الفسيحة، ولكن في ليلة السبت ربّما تجمع فيها عدد لا بأس به. قدّمه رئيس الكنيسة، وتحدّث مارتن على الفور عن حادث الطريق، أعلن توبته عن خطيئة قلّة الصبر ثمّ بدأ يقرأ خطبته الجاهزة مقرّراً عدم تغيير أيّ شيء سوى الاستنتاجات.

كان قد حضّر خطبة هجومية جدّاً، ربطها، بالطبع، بتاريخ التقويم الكنسيّ، وأيضاً بقصّة الأيام الأخيرة ليسوع المسيح. لقد أتى بهذه الأفكار بالفعل من التاريخ البعيد جدّاً، تُرى، هذا ليس عيد الفصح! ومع ذلك، اعتبر الأيام القليلة بعد دخول القدس الأكثر أهميّة في تاريخ العالم كلّّه، والتذكير بها ليس -بأيّ حال من الأحوال- فائضاً عن الحاجة.

يقترّب ابن ملك السماء من المدينة سيّراً على الأقدام؛ لم يكن لديه -إن جاز التعبير- ما يحمله. ويرسل تلاميذه لسرقة حمار. «وإذا سألك أحدهم: لماذا أنت تفكّ رباطه؟»، قل له هكذا: «إن الربّ بحاجة له».

يدخل أورشليم على حمار مُصادَر، وقد رصفوا له الطريق بسعف النخيل، هكذا يمجّدون الربّ. غضب الفريسيون: "يجب عليه أن ينهّاهم. لكنّه يجيب: إذا نهّيتهم، ستصرخ الحجارة. وقد قرّر بالفعل الصراع حتّى النهاية، وهو الآن يستخدم كلّ مناسبة لتقريب هذه النهاية. «الآن حُكِم على هذا العالم. الآن سيُطرد أمير هذا العالم». يذهب إلى المعبد ويطرد التجار، ثمّ يعلن في هذا المعبد الذي هو أقدس مكان عند اليهود، ديناً آخر دون موارد. بالطبع، أرادت السلطات الكنسيّة إيقافه، لكن حتّى الآن لا يمكنها ذلك، إذ التّف الكثير من الناس -بالفعل- حوله.

في هذه الأثناء، لم يفهم بعض تلامذته أنّه ذهب للعب كلّ أوراقه، ويعتقدون أنّ أمامهم -إذا جاز التعبير- سنوات طويلة من العمل الخلاق، لكنّه لم يترك لهم ولا لنفسه سنوات، بل أياماً. دخل القدس يوم الأحد، قبض عليه بالفعل يوم الخميس، وصُلب يوم الجمعة، ومات. يبدو أنّ كلّ شيء قد بُتّر، على الرغم من أنّه قد بدأ للتوّ. كانوا في القاعة جالسين لا تصدر عنهم أيّ نأمة، وكان مارتن يتحدث بشعورٍ عالٍ.

• حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأول الميلادي داخل المجتمع اليهودي في فلسطين.

وتابع: «أردت أن أستنتج من هذا، أنه يجب علينا أن نعيش يومنا كأنه يومنا الأخير، لأنّ العالم قد وصل إلى الحدّ الأقصى، ولا يمكن أن يستمرّ على هذا النحو بعد الآن، أعتقد أنّنا -نحن المؤمنين- جميعاً نتفق في ذلك». صمت قليلاً، وتابع:

«لكنّ الحادث على الطريق أظهر لي أين كنت مخطئاً. نعم، يجب أن نأخذ مثلاً من يسوع، لكنّ المخلص كان ابن الله، ونحن لسنا كذلك. ربّنا لا تجعلنا نقع في خطيئة الزهو، ولا تقبل أعمالنا المبنية على المصلحة على أنّها بوحى من الله. الحادث الذي حدث لي تذكيراً لطيف جداً من الربّ بأنّه لا ينبغي عليك المبالغة في تقييم قوّتك، لكنّه يستطيع تذكيرك بشكل مخيف بلا رحمة! ويجب أن نتحقّق دائماً: ما الذي يدفعنا لفعل هذا الشيء أو ذاك؟ عندها فقط نستطيع أن نتأكّد أنّنا نفعل ما نفعل بإرادته. وهذا ينطبق أيضاً على البلدان الاشتراكية السابقة المهمّة جداً -كما تعلمون- بالنسبة إلى «السفراء المسيحيّون»، وليس لهم فقط. ليس فقط الضغط الوقح يُعدّ أمراً غير مقبول في هذا المجال، ولكن حتّى الغطرسة. يجب أن نذكّر أنفسنا بأنّنا -في أميركا، بغضّ النظر عن بعد تلك البلدان عن المسيحية- ممثلون أيضاً بالقروح، وذلك يكفي لمنع أنفسنا من تعليم العالم كلّه بشكل قاطع! يجب أن نساعد تلك البلدان، ليس لأنّنا الأفضل، ولكن لأنّنا في حاجة إلى أن نرّبّي في أنفسنا التواضع المسيحيّ. يجب علينا أولاً أن نعدّل من أنفسنا، ولكي نساعد أنفسنا في ذلك، سنساعد الآخرين. آمين. المجد لله!».

غادر مارتن المنبر، ودوّى الـ«أورغن». مع ذلك، لم يكن النشيد الذي انطلق فور إنهائه لخطبته يتوافق تمامًا مع التحوّل الذي أبداه الآن في الخطبة، بل كان يتوافق مع نسخته الأولى الهجومية.

في الكلمة الختامية، وصف رئيس الدير خطبة مارتن بـ«العميقة»، وقال إنّها أعجبته كما أعجبت الجميع على الأرجح.

صباح يوم الأحد، قرأ مارتن ما يصل إلى ثلاث خطب كاملة، لأنّه كان عليه أن يقدّم ثلاث صلوات مع المناولة في أكبر كنيسة بروتستنتية هنا. وكانت هناك مأدبة غداء مبكرة للمتأخّرين وحفل في الملحق الكنسيّ للشباب مع القيثارات الكهربائية.

وفي كلّ مرة كان يدعو إلى التواضع وضبط النفس. قرّر أنّه سيخطب أيضًا في الجولة بأكملها، ويتحدّث عن الحادث المروريّ ليوصل فكرته النهائية: أنّ إرادة الله هي التي تحدّد كلّ شيء.

في الحقيقة، إنّ الشكّ عاد يراوده بالفعل يوم الأحد، وعاد يسأل: هل كان الحادث صغيرًا للغاية؟ هل تعتقد أنّ الحادث يكلف خمسمائة دولار؟

لكن، لو عاد كلّ شيء بطريقة أخرى، يمكن أن تنهي خطيئة مارتن حياته نفسه وحياة الآخرين.

لم يكن الحادث نفسه هو المهمّ، بل النتيجة التي كان يحاول إيصالها من خلال التحدّث عنه. لا تهتمّ بأنّ أفعالك قد تبدو غير طبيعية لشخص ما، متواضعة ومحدودة. لا تقلق في شأن هذا، لكن -فقط- كن متصالحًا مع نفسك وكن مع تحقيق إرادة الله دائمًا، وإرادة يسوع المسيح!

-20-

اتضح على الخريطة أنّ طريق مانوهاربوكور، حيث كانت رادها تسكن، يبعد كثيراً عن فندق الأب فاسيلي بما يقرب من ستة أميال، أو ما يقرب من ساعتين.

واتضح أنّ الحيّ كان الأغنى، وكانت البيوت قصوراً متجاورة مثيرة للإعجاب أكثر من البيت الأبيض في أميركا. هذا ما رآه، وفي بعض الأماكن كانت الأشجار تتألق خلف جدران باذخة. تُرى، ماذا يمكن أن يكون وراء تلك الجدران؟

كان المنزل السادس والثمانون على طول طريق مانوهاربوكور محاطاً أيضاً بسور مرتفع من الطوب الأحمر. عندما وصل الأب فاسيلي إلى البوابة المعدنية، تأملها كما كان يفعل طوال الطريق. بالأمس، دخل رجلاً العصابات اللذان وصلا معهم من روسيا إلى غرفتهم الفندقية وسألا عن سبب قدومه ومن هم معارفه.

ضغط على الزرّ الضيّق الموجود في سماعة الاتصال الداخلي، وسأل صوتاً ذكرى شياً ما باللغة البنغاليّة. عرّف بنفسه باللغة الإنجليزيّة؛ فُتحت طاقة صغيرة في البوابة، ثمّ فُتح الباب، وأدخله بوابٌ بعمامة حمراء وشارب كبير وناعم.

قاده إلى المنزل خادماً بعمامة حمراء أيضاً، لكنّه أصغر سنّاً، عبر حديقة تشبه جنّة عدن، مع أوراق نخيل مستديرة تشبه عجالات العربات التي تجرها الحيوانات.

كان المنزل رائعاً، وردياً ومؤلفاً من ثلاثة طوابق مع شرفات في كلّ طابق وأبراج جانبية تعلوها أشياء تشبه الخوذ العسكريّة الروسيّة القديمة. كما أنّ لوبي الطابق الأوّل كان يُطلّ على الجانب الآخر من المنزل، على الحديقة، مواجهاً للشمس. أدرك الأب فاسيلي أنّ رادها هي التي سوف تأتي إليه.

في موسكو، كان قد تولّد دفءٌ في العلاقة بينهما، والآن احتضنها بطريقة كهنوتيّة. حرّرت نفسها وقادته إلى الغرفة المجاورة بطريقة متحفّظة. كانت ترتدي الساري باللونين الأسود والورديّ. على العموم، رأى أنّها سعيدة بوجوده، لكنّها ضبطت نفسها، أوّلاً: لأنّه كان لديها خطيب، وثانياً: لأنّها كانت ستقدّمه إلى والديها.

وسرعان ما اصطحبته في رحلة في سيارتها الـ«تويوتا» الجديدة. كان الأب فاسيلي -بالطبع- مهتماً بالمعابد الهندية الكثيرة هنا، وأكبرها كان معبد كالي. لكنّهما قرّرا الذهاب إلى بلدة سري رامبور القريبة، حيث يقيم المعلّم الشهير سري رامانادات، المسمّى «الإله الحيّ». في الحقيقة، على الرغم من الأهميّة التي أخذها أمناء المعلّم -ليس المعلّم نفسه- على عاتقهم، فلم يكن اللقاء معه ممكناً إلّا من خلال ترتيب مسبق فقط عبر

الهاتف، لكنّ رادها قرّرت أن تأتي فجأةً، فربّما يستقبلهما. لكن لا، هناك معابد أخرى مثيرة للاهتمام بالقرب من سري رامبور.

لقد ذهبنا، على العموم. ولفّت رادها انتباهه إلى أنّ الخروج من المدينة سيستغرق وقتًا أطول من الوصول إلى سري رامبور بعد ذلك، وهذا ما حدث. أمضينا ساعة في ازدحام مروريّ واحد. كان الكثير من الناس يلتزمون بقواعد السير هنا، ولكنّ بعضًا منهم كان يخالفها بشكل عام، وبالتالي كانت التقاطعات مكانًا للهستيريا الجماعيّة.

أخيرًا، لوحت في استقبالهما أوراق الموز الخضراء العريضة التي تشبه الأعلام، ثمّ اندمجت الأشجار مشكّلةً خميلة، وفجأةً انفصلت الخميّلة. والآن، على مقربة من الطريق، كانت ممتلكات في أطراف القرية الهنديّة تظهر. اختلطت الثيران، النساء والأطفال بعضهم مع بعض، ولمعت أسقف جديدة من القشّ، وتألّقت الشمس في بركة موحلة، ثمّ من جديد كانت أشجار نخيل جوز الهند تغطّي كلّ شيء.

المشير للدهشة أنّ غيومًا عاديّة تكوّمت هنا في السماء. لقد كانت مألوفة لدرجة أنّك -عندما تنظر إليها- تتوقّع أن ترى أشجار البتولا على سبيل المثال، وفجأةً تاه الطريق في غابات النخيل المتشابكة.

كان الأب فاسيلي يقنع نفسه بأنّ المدينة كانت ضخمة، لكن تُرى هل غادروها؟ فهذه محطة سكة حديد، تلال من الفحم ومعمل ذو مدخنة غمره السخام... وهكذا. فهو لم ير الهند الريفية الحقيقيّة.

أخيرًا، عبّرَ سري رامبور، وهي بلدة تبرز في وسطها كنيسة مسيحية بيضاء عليها تاريخ «1802» فوق باب أسود. بعد خمس عشرة دقيقة، بدأت إشارات سري راماناتا أشرام -بالإنجليزية وبعض اللغات الهندية- تتحوّل إلى اللون الأزرق بالقرب من الطريق.

استدارت رادها إلى اليسار وسارت قليلًا على طول طريق إسفلتي، ثم توقّفت في موقف سيارات، حيث كانت هناك فقط حافلة صغيرة حمراء تلمع تحت أشعة الشمس. وخرج من البرودة الاصطناعية داخل السيارة إلى مقلاة الطقس هذا.

قادهما زقاقٌ غطّته الأشجار الكثيفة المتشابكة -وقد أزهرت باللونين الأحمر والبرتقاليّ الساطع- إلى الأشرام، سأل الأب فاسيلي: «ما هذا؟»، ولسبب ما كانت رادها محرّجة. اتضح أنّ الزهور الحمراء تسمّى «كريشنا تشوري»، أي «شعر كريشنا»، والبرتقالية «رادها تشوري»، «شعر رادها»، كاسمها. كانت رادها حبيبة الإله كريشنا. كان على الفتاة -مرّةً أخرى- أن تخفي حرجها وهي توضح ذلك، إذ تحدّثت عن المعلم:

- تذكرتُ أيضًا: يحظر في هذه الحديقة -بالطبع- كسرُ الأغصان وقطفُ الزهور، حتّى إنّه يُطلَب أخذُ الفاكهة بعناية، فالنباتات تشعر بالألم.

نعم، يبدو أنّهما ذاهبان إلى رجلٍ متسامحٍ بشكل غير عاديّ. «Bhagavan»، أي «إله»، كما دعاه أتباعه. ولم يكن يخاطب الناس فقط بصيغة الاحترام: «أنتم»، بل كان يخاطب الحيوانات أيضًا بالصيغة نفسها.

تحدثت رادها عن هذا في الطريق. تقتصر ممتلكات المعلم جميعها على عكاز، قذح وقمط حول خصره. يعيش باستمرار، ويأكل وينام في الغرفة نفسها التي يستقبل فيها الضيوف.

في الأمام ظهر الأشرام. كان مبنى مؤلفاً من طابق واحد بسقف جملون واسع يلقي بظلاله على الشرفة مع سياج خشبي يحيط به. إلى يمين المدخل المسودّ، كان هناك شخص ما يجلس على الشرفة، مدلياً ساقيه العاريتين من خلال السور.

عندما اقتربا، ظهر رجل عجوز طويل القامة في المدخل بغطاء رأس طويل وفم متعرج مضموم، استجوبهما، بعد ذلك ترجمت رادها للأب فاسيلي ما دار من حوار، إذ تبين أنّ البهاغوان يجلس حالياً مع زوّار ويتحدث إليهم، وليس معروفاً ما إذا كان قادراً أن يستقبلهما، لكنهم سيخبروه أنّ كاهناً روسياً وابنة رجل أعمال في كالكوفا موجودان هنا.

بينما دخلا مكاناً يشبه رواق المعبد، له جدران خشبية عارية وصفان من الأعمدة التي تسند السقف، جلس هناك هنديان مستغرقان بالتأمل، واتخذ الأب فاسيلي ورادها مكانيهما إلى جانب الرجلين.

كانت المروحة المتدلية من تحت السقف تحرك هواءً خانقاً، وأحضر صبيّ كتيباتٍ لامعةً عن بهاوان.

عندها -فقط- أدرك الأب فاسيلي ما كان يحدث بالفعل. هذا الرجل -سري رامانادات- أعلن نفسه إلهً، وتحقق له ذلك عندما وافق الآخرون على ذلك! لكن الأب فاسيلي أيضاً يعدّ نفسه إلهً! ممّا يعني أنّ لقاء الآلهة

سيحدث الآن! بدا كمن ارتكب جريمةً، إذ نسي رسالته، وتحول إلى سائح وتحدث مع رادها حول الأماكن السياحية وحول أطروحتها الجامعية. طرقت المطارق في رأسه، سيكون من الأفضل أن يغادر وأن لا يقابل هذا المعلم.

لكن السكرتير العجوز كان يقف أمامه بالفعل: البهاغوان ينتظر. طلب الأب فاسيلي خمس دقائق لإكمال قراءة الكتيب. وعلى الرغم من سخط الرجل العجوز وقلق رادها، فقد أكمل الأب فاسيلي القراءة بعناد. في الواقع كان يقرر ما يجب فعله. ربّما سيرى المعلم، لكنّه سيتظاهر بأنّه أحمق، باحث لا يعرف شيئاً، دعه يكشف الأمر إن استطاع.

وها هو بعد أن صمد مدّة ثلاث دقائق، نهض عن الحصيرة بتواضع متعمّد وأعلن بصوت غبيّ أنّه جاهز.

دخلوا (كان الأب فاسيلي يعرج) إلى المكان التالي الأكثر اتساعاً الذي كان يحتوي أيضاً على صفتين من الأعمدة، حيث يجلس في الزاوية اليمنى المتطرّفة أمام نصف دزينة من الزوّار، بقماطه القماشيّ، وشعره الرماديّ الذي يغطّي رأسه ولحيته الفضّية القصيرة. على الفور، لاحظ الأب فاسيلي نظرة سري رامانادات، كما لو أنّها كانت متعلّقة فيه ولم تعد تبعد عنه. كان الأمر كما لو أنّه يتمّ سحب العنان باستمرار، على الرغم من أنّ الشخص الذي ليست لديه قوّة ملاحظة، لا يمكنه أن يشعر بما وراء حركات المعلم وابتساماته التي تبدو في الظاهر حرّة.

دعا البهاغوان أولئك الذين دخلوا للجلوس مع الآخرين، وسأل من خلال رادها: ما الذي جاء بالضيف الروسي إلى هنا؟

سار بشكل منحني وجلس كذلك، كانت كتفه اليمنى مائلة أكثر من الكتف اليسرى. نظر إليه المعلم والآخرون بحيرة.

«إنهم يدعونك إله، هل هذا صحيح؟» قام الأب فاسيلي بتقليد صوت الماعز، ويبدو أن ذلك لم يعجب الجميع، لكن المعلم أجاب بهدوء:

«إنهم يسمّونني أسماءً متعدّدة، وليس لي أيّ سلطة على ما يقولون. أنا فقط شعرت في شبابي بأنني جزء من الله، أدركت أنه يوجد في العالم شيء واحد فقط - حقيقة عليا واحدة. إنها داخلنا وخارجنا، هذا هو الله. «أنا» نحن وإياك وهم، والله حقيقة...» أشار المعلم إلى الأب فاسيلي وأضاف:

«إنّه في كلّ واحد منّا، بما في ذلك - بالطبع - فيك أنت».

«أين هو الله الذي في داخلي؟» نظر الأب فاسيلي وقد فتح يديه «لنفترض أنني لا أراه؟».

قال المعلم عابسًا: «لكنك كاهن ممارس؟ هكذا أخبروني».

حسم الأب فاسيلي أمره وقال: «حسنًا، إليك ما يهمني. أعتقد أن بعض المعلمين الدينيين يخدعون. يطلبون من الشخص ذكر مشكلته بصوت عالٍ، ولكن الإشارة إلى شيء بكلمة يعني بالفعل امتلاك نصف حلّها. نعلم جميعًا دون أن نعي ما نريد، وكل ما نحتاجه هو أن يثبت شيء ما في مكانه. لهذا، يتجهون في روسيا إلى الأيقونة، ولكن أليس من العار أن تكون أيقونة

حيّة؟ فكل إجاباتك لنا مجرد انعكاس لما نقوله نحن لك. لم أسمع محادثتك مع الآخرين، ولكنني -لسبب ما- متأكد أنّ هذا هو...».

اختفت ابتسامة المعلم وظهر شيء مؤلم ومظلم في مظهره.

ترجمت رادها: «في السابق، عندما كنت أصغر سنًا، كانت تشعّ مني بصمت قوّة غير مرئية. جاء الناس وحصلوا على جزء منها، لكنّ العديد منهم كانوا يطرحون الأسئلة، كان عليّ أن أجيب. الأمر نفسه يحصل الآن. الزوّار أمثالك الذين لا يرغبون في قول ما يثير اهتمامهم نادرون. لكن، نظرًا لعدم وجود أسئلة أخرى... فسأنهي الاجتماع».

بدا أنّ المعلم قد كبر وأصبح فوقهم. ثمّ بدأ آخرون يسألونه عن شيء ما، والآخرون -قالت رادها- من راجستان. تحدّث أحدهم أيضًا من خلال مترجم. تحدّثت رادها مع البهاغوان فترةً طويلةً وأخبرته عن شيء ما، ثمّ التفتت إلى الأب فاسيلي.

- أخبرته أنّك أسست دينًا جديدًا، وهو يطلب منك أن تحدّثه عن ذلك.

- لماذا فعلتِ هذا؟ لا، لن أقول أيّ شيء، أخبريه أنّ هذا غير مناسب. بعد سماع الترجمة، نظر البهاغوان بعناية إلى الأب فاسيلي ثمّ أغلق عينيه. ثمّ أطبق صمت على المكان، ولم يُسمع صوت سوى صوت صريف المروحة البطيئة فوق الرؤوس وطينين الذباب في الشمس خارج النافذة المغطّة بالشاش.

فتح المعلم جفنيه، نظر مرّة أخرى إلى الأب فاسيلي ولفّ يديه على شكل قارب أمام بطنه، بدأ ينحني بدقّة. فهم الجميع أنّ الاجتماع قد انتهى بالتأكيد، وبدأوا في النهوض. كما قام الأب فاسيلي، وفور أن اقترب من الباب توقّف فجأةً.

ما الذي اقترفه؟ في الحقيقة، بدا بصمته كأنّه قد سمح بانتصار حقيقة المعلم، وبذلك يكون قد خان دينه الجديد! توقّف حقيقته عن الوجود فترةً من الوقت، وحلّت محلّها تعاليم هذا البهاغوان!

كان هناك ضجيج يصمّ الأذان في رأس الأب فاسيلي، وقف وهو يشدّ قبضة يده وسط القاعة غاضبًا لا يعرف على مَنْ، أمّا المعلم فقد التقطت عيناه نظرات الأب، وبدا أنّه فهم كلّ شيء. بدأ ينحني بشكل أكثر دقّة، مقربًا يديه المطويّتين إلى جبهته.

غادر الأب فاسيلي بسرعة.

كيف استطاع؟ إنّهُ يعتقد أنّ حياته مكرّسة للتبشير بالدين الجديد، وهو لا يفعل ذلك! ماذا لو دعمه البهاغوان وهؤلاء الناس من راجستان؟ هم أيضًا رجال دين، مَنْ يدري؟ ربّما ساعدوه أيضًا!

توقّف الأب فاسيلي في رواق الأشرام دون أن يعرف ماذا يفعل. هل يعود ليقول ما لم يقله؟ ولكن هذا غير ممكن بالفعل. هل يتوجّه إلى الراجستانيّين؟

هزّته رادها من يده:

- ما بك أيها الأب فاسيلي؟

انتعل حذاءه، وخرج من الأشرام:

- كل شيء على ما يرام.

ما لم يقله سحقه - بالفعل - جسديًا. نظر إلى الراجستانيين الذين خرجوا أيضًا إلى الممرات التي تقطع الحديقة في اتجاهات متعددة. الطريق الذي جاؤوا منه لم يكن الوحيد: تخرج الطرق من المعبد الخشبي مثل أشعة الشمس. رأى الأب فاسيلي أن أحد تلك الطرق يتجه نحو مظلة للاستراحة.

ولكن -فكر بصوت- لو أنه تكلم، لكان الوضع أكثر إيلامًا! فقد كان من الغباء توقع أن يوافق المعلم في آرائه. من المؤكد أنه كان سيجادله أو يظهر -بطريقة ما- أن التبشير بدين أجنبي في معبده تجديف.

لذا، توصل الأب فاسيلي إلى أن يعلن أن البهاغوان نبي زائف، كما هو كذلك، في جميع الاحتمالات، ولا أحد غير ذلك.

فماذا كان في إمكانه أن يدحضه؟ لكن لماذا بقي صامتًا؟ فلا شيء يهّمه، حتى لو قال كل من حوله إنه مجنون.

بالفعل، كان لديه شعور الآن أنه سيفقد صوابه لأنه لم يعبر عن أفكاره. أضف إلى ذلك أن الجو حار جدًا.

تأخرت رادها في الأشرام للتبرّع. والآن، بما أن السكرتير رافقها باهتمام، كان يمكن أن يفهم أنها كتبت شيكًا بمبلغ كبير. عرض السكرتير عليهما تناول الغداء مجانًا في مطعم الأشرام، وقد وافق الأب فاسيلي.

كان الطعام عبارة عن أرز مع البهارات. سكب كلُّ منهما لنفسه من طبق كبير مشترك بملعقة خاصّة للسكب.

سأل الأب فاسيلي رادها عندما اقتربا من السيارة:

- ألم تندهشي لأنني لم أكل شيئاً عن الدين الجديد؟

- فوجئت قليلاً. لكنني أفهم لماذا كان هذا.

ونظرت إليه بعناية كما نظر المعلم إليه قبل قليل. قال لها وهي تفتح باب السيارة التي انعكست على زجاجها أشجار النخيل التي تحيط بالموقف:

- لكنني - في الواقع - أنوي التحدّث كثيرًا هنا، في الهند.

لكن أين، وكيف؟ كان لدى الأب فاسيلي رقم هاتف أستاذ علم أديان في كالكوّتا، وقد اتصل به أمس، وكان في إمكانه ترتيب اجتماع، ولا بدّ من عمل ذلك.

في سري رامبور، أخذته رادها إلى معبد شيفا الذي كان يجلس أمامه العديد من التجّار وغيرهم من الأشخاص المتديّنين. في الداخل كان يسود الظلام، وكان الجوّ حارًّا كما هو في الشارع. زكمت الأنوف روائح عطريّة من التدخين.

سار الأب فاسيلي مرخيًّا ذراعيه، خائفًا من الركض في اتجاه الأعمدة السمكية التي بدت أنّها تضيق الطريق وسط المعبد. كانت فوق الأعمدة قباب ما، لم يكن في الإمكان تبيّنها في الظلام.

وأمامهم سطع تمثال معدنيّ للإله شيفا متعدّد الأيدي، وكانت الأيدي مضاءة بشدّة بالشموع التي تلتصق به. وقف الأب فاسيلي ورادها أمام

التمثال، ثم ظهر شابٌ هنديٌّ ممتلئٌ عاريًا حتّى الخصر، يرتدي سروالًا قصيرًا باللون الفيروزيّ. وضع صينيّة لامعة، وضعت رادها النقود فيها، وسعل الأب فاسيلي بتواضع.

حينها أخذ الكاهن المال وخرج بإكليين من الزهور الصفراء، طوّق بأحدهما رقبة رادها، والآخر -دون أن يسأل عن أيّ شيء- طوّق به عنق الأب فاسيلي. وهكذا غادرا المعبد، مع إكلييل حول رقبة كلّ منهما. لماذا؟ ما معنى هذا كلّ؟ حاولت رادها أن تشرح له بالطبع، لكنّه لم يكن مهتمًّا للخوض في الموضوع، فقد كان متعبًا جدًّا بالفعل. إذ كانت الشمس تميل إلى المغيب.

في السيارة -كما لو كان الشيطان قد دفعه- طلب أن تأخذه إلى أحد معابد كريشنا، إن كان هناك واحد في مكان ما قريب. كانت لديه رغبة في فهم حرج رادها في ما يتعلّق بـ«كريشنا».

كان هناك معبد مثل هذا في كالكوتا، لكن عندما تمكّنوا -بصعوبة- من الوصول إليه عبر السفر الليليّ، كانت الشمس القرمزيّة بالفعل قد لامست قبة المعبد الحجريّة.

في الداخل، كانت الشمس المارّة من خلال النوافذ الصغيرة على اليسار، تسكب أشعة ليلكيّة على التماثيل الحجريّة الخشنة على الجدار المقابل.

قادهم براهمان محلّيّ استأجرته رادها -في البداية- إلى الخارج، حيث عرض لهم لوحات طينيّة تزيّن الواجهة. وكانت الشمس قد غرقت بالفعل في الضباب الأزرق.

مع ذلك، بعد أن عادوا إلى الداخل، كانا ما زالَا يميّزان تحت أشعة الشمس الأخيرة الأشكال المنحوتة في الحجر لـ «كريشنا» و «رادها» بصدور كروية كبيرة، لقد كانت نوعاً من الإباحية البدائية.

أخبرهما البراهمان -بعينيه اللامعتين- بقصة إغواء كريشنا لزوجته رادها الغريبة. أخيراً، خرجا وكان ظلام الليل قد حلّ بالفعل، وأضيئت النوافذ.

أدرك الأب فاسيلي أنّه كان قد أرهق فتاته كثيراً، فقد كان عليها أن تنقله طوال اليوم. من الأفضل لهما أن يفترقا الآن. وها قد أوقفها.

- رادها، شكراً لك كثيراً على هذه الجولة. لكن لا حاجة إلى أن توصليني. سأذهب وحدي.

- كيف؟ إنّك لن تجد...!

لكنّها فهمت لماذا تصرّف على ذلك النحو، وقد رأى ذلك في عينيها رغم الظلام.

-21-

صباح اليوم التالي، ذهب الأب فاسيلي إلى فرع كالكوتا للجنة الهنديّة للعلاقات الثقافية. هناك -ظهرًا- حصل على تصريح أخذه إلى مكتبة كالكوتا لقراءة الأدب الدينيّ المحليّ باللغة الإنجليزيّة.

كتب مثل هذه كانت موجودة في المكتبة. قرأ، ثمّ قرّر أن يأخذ عناوين رئيسيّة من أجل محادثة الغد مع علماء الدين. ما لم يقله في الاجتماع مع المعلّم فاضّ في داخله، وفجأة تدفّق! وما كان عليه إلّا أن يلاحق نفسه في تسجيل الأفكار.

لا يشجّع النظام الليبراليّ المهووسين -الوحدانيّين، الذين تُعدّ أعمالهم عمليّات قتل جماعيّ، وهي تؤدّي حتمًا إلى الحروب أيضًا، بما في ذلك الحروب العالميّة.

ويجب على كلّ إنسان أمين على وجه الأرض أن يقبل بالحقيقة الرئيسيّة التي لا شكّ فيها، كأساسٍ لنظرته إلى العالم. فالليبراليّة -وفق رأيه- هي النظام الأكثر دمويّة والأكثر كراهية وتدميرًا من بين جميع النظم المعروفة للناس.

لن تقتصر حتميّة نشوب الحرب العالميّة الثالثة التي سيشعلها الليبراليّون إذا لم يتمّ إيقافهم، ولكن إذا بقي شيء على قيد الحياة بعد ذلك على الأرض، فسوف ينظّم الليبراليّون حربًا عالميّة أخرى، ثمّ أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية، حتى تُدمّر البشريّة كلّها، أو في النهاية، حتى تُقتلّع الليبراليّة الأنجلو - أميركيّة.

إنَّ إثبات أنَّ الليبراليين هم الذين يشعلون الحروب، تُعدّ فكرة مبسّطة، إذ من الصعب إثبات ذلك من نواحٍ أخرى، لأنَّ الحرب -بحكم تعريفها- أكثر الأعمال البشريّة تزييفاً، يُنظرُ إليها دائماً من وجهات نظر متضادّة لا يمكن التوفيق بينها، وعادةً ما تكسب في النقاش وجهةً نظر الطرف المنتصر في الحرب.

نظراً لأنَّ البلدان الناطقة بالإنجليزية -التي تطلق على نفسها أكثر الدول ديمقراطيّة- خرجت، من بين آخرين، منتصرةً من حربيين عالميّتين، فمن الطبيعيّ أن وجهة نظرها بشأن الحرب أكثر انتشاراً في عالم اليوم. وجهة النظر هذه تؤول إلى واحدة من أكثر الأطروحات زيفاً في تاريخ العالم، وهي الزعم أنَّ الدول الديمقراطية لا تتقاتل في ما بينها، وأنَّ النظام الليبراليّ نظام مسالم.

ولكن ألم تصطدم إنجلترا وألمانيا في الحرب العالميّة الأولى؟ إذ كان البلدان متساويين في الديمقراطية، ولديهما برلمانات منتخبة بحريّة! في الواقع، في ألمانيا، وكذلك في إنجلترا، لم تتمكّن الحكومة من العمل دون موافقة البرلمان؛ وكان لديهما نظام جيد الأداء للانتخابات الوطنيّة والمحليّة. كانت هناك حرّيات في الصحافة والاجتماعات والتجمّعات والمظاهرات، وحرّيّة بناء الأحزاب، والأحزاب الراسخة لديها أعضاء، ونوادٍ وحسابات ماليّة، وصحافة حزبيّة، ومؤتمرات وما إلى ذلك. ولماذا لا يدعم هذا النظام الديمقراطيّ استخدام القوّة العسكريّة في الخارج ما دام هذا هو رأي الأُمّة العام؟

ولكن تأكيداً أنّ الأمم الديمقراطية لا تحارب -على أيّ حال- كذبةً مأكرة للغاية. فإذا ما أعلنت دولتان الحرب في ما بينهما، يمكن للمرء أن يقول دائماً إنّ إحدهما -ولو قليلاً، أو حتى لو أقلّ بمقدار قطرة- لا تزال أقلّ ديمقراطية. وسيظهر أنّ الحرب هي المسؤولة عن تلك القطرة التي حالت دون وصول هذه الدولة إلى الديمقراطية «الحقيقية». على سبيل المثال، في الصراع بين إنجلترا والأرجنتين حول جزر فوكلاند (مالفيناس)، على مَنْ يقع اللوم؟ من وجهة نظر إنجلترا، يقع اللوم بالطبع على الأرجنتين، إذ إنّها ليست ديمقراطية. في الحقيقة، ليست الأرجنتين ملكيّة (بخلاف إنجلترا)، وقد أجرت انتخابات رئاسيّة بشكل منتظم، وهي على أي حال ليست... وهكذا تجري الأمور دائماً، إذ إن هناك تبرير دائم: لكن تقاليد الديمقراطية في إنجلترا أطول...

لا يمكن للنظام الليبراليّ أن يوجد دون حروب لأنّه يعتمد على النمط التاريخيّ البرجوازيّ. وربّما، الحقيقة الثانية الرئيسيّة التي يجب أن تتذكّرها شعوب الأرض جميعها كما يتذكّرون الصلاة، هي أنّ البرجوازيّة -بوصفها نمطاً- أكثر المخلوقات وحشيّةً وشرّاً ودمويّةً عرفها التاريخ البشريّ.

لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك، لأنّ أساس سيكولوجيا البرجوازيّ هو ريادة الأعمال، وبعبارة أخرى: التدمير والوحشية. مرّة أخرى، لا يقع اللوم على الناس أنفسهم، بل على النمط الثقافيّ الذي تفرضه التقاليد الليبراليّة. نشأ هذا النمط الثقافيّ الأكثر شيوعاً اليوم في العصور الوسطى المتأخّرة في إنجلترا من حروب أهليّة طويلة الأمد مع البطانة الدينيّة.

أعلن الملك استقلال الكنيسة الأنجليكانية عن روما الكاثوليكية، لكن بعد وفاته، توجت ابنته الكاثوليكية على العرش. كانت الأخلاق في إنجلترا في ذلك الوقت صارمة، ولم يتم التخلص من منتصري الأمس من السلطة وحسب، لكنهم قضى عليهم. استمرت المشاكل لعقود: عمليات إعدام، مصادرة ممتلكات وهروب في كل اتجاه في القارة، وفي لحظة مواتية، تعود جماعات فوضوية إلى إنجلترا متعطشة إلى الانتقام. هذه هي القلاقل التي نشأت عن النمط الثقافي البرجوازي الإنجليزي، والناس الذين تربوا على هذا النمط لا يرون معنى حياتهم في التغلب على هذه الآفة، بل في تأييدها.

عادة ما يُسمى هذا النمط الثقافي «النمط المتسامح»، لكن في الواقع، فإن الأشخاص الذين يتشكلون بالطريقة هذه لا يجيدون شيئاً سوى إخفاء مشاعرهم إلى وقت محدد. مع ذلك، بمجرد أن يكون متأكداً في أي جانب تقف القوة، يُظهر هذا الشخص كراهيته إلى أقصى حد، وكلما كان الوضع أكثر فجوراً وتعسفاً، أخفى كراهيته إلى أبعد حد ممكن.

أصبح هذا النمط الثقافي البرجوازي سائداً على الكوكب بأكمله خلال التاريخ المعاصر والحديث، وبالتالي لا بد من إلغاء جميع «القيم» التي وضعها ما يُسمى «الزمن الحديث».

هكذا اعتقد الأب فاسيلي. بادئ ذي بدء، يجب التخلص من العلوم والتكنولوجيا الأوروبية الجديدة، والمؤسسات الاجتماعية جميعها، و«الإنجازات» الاقتصادية جميعها أيضاً، وبالطبع: «النقود» بالمفهوم المفروض اليوم على العالم كله. ولا بد من تحطيم الثقافة بأكملها، وأخلاق العصر البرجوازي، ومدونة الحضارة بأكملها التي أُنشئت في

الغرب، ابتداءً من القرن الخامس عشر. ليس للبشرية مخرج آخر. خلاف ذلك سنشهد حروباً عالمية وموتاً نووياً يقودنا إليه المتحضرون الليبراليون دون رؤية أو سماع أي شيء من حولهم.

على سبيل المثال، لا يمكن أن تكون الأطروحة المحببة لهؤلاء الإيديولوجيين وهي «الاكتشاف» الرئيس للعصر الحديث حول فساد الطبيعة البشرية بلا معنى بالنسبة إلى العالم بأسره. إذا كان الشخص فاسداً إلى هذه الدرجة، فهل يمكنه تجنب الخطأ، بما في ذلك الخطأ القاتل؟ يجب الليبرالي بثقة: «لا، لا يستطيع»، وماذا يمكن أن يكون هذا الجواب إذا لم يكن الاقتراب من حرب نووية؟

ما دمت تحب إلقاء اللوم على الآخرين، غالباً ما يكشف عن الرذائل المخفية الخاصة بك، يسمي علماء النفس العملية «الإسقاط». لقد قيل عن الليبراليين الكثير، وقيل إن الهراوة التي يضربون بها أعداءهم على ما يتهمونهم به، غالباً ما تكشف سرهم. عادةً ما يتهمون معارضيتهم بالشمولية، في حين أنهم -أنفسهم- الأكثر شمولية ورسوخاً فيها، شمولية النقود. قيل في هذا الكثير. الاقتصاد السياسي الإنجليزي هو النظام الأكثر شمولية والأكثر انتشاراً، وهو النظام الذي يضغط حقاً على نفس كل إنسان وكل وجهة نظر لديه.

والسمة المميزة لهذا النظام هي أنه -بإعلان نفسه مفتوحاً ومتسامحاً- يحظر بالفعل على الناس إدراك أي شيء لا علاقة له بكسب المال. كما لو أن وحشاً أصمّاً يتسلل إلى روسيا والهند وأوراسيا كلها. ما نوع الحديث الذي يمكن أن يُجرى معه؟ إن جوهر العصر الحديث أنه طور كوداً

حضاريًا خاصًا، لغةً يستحيل التواصل بها، والتأثير يكون من جانب واحد فقط «من هناك إلى هنا» حتّى يتدفق المال، على العكس، «من هنا إلى هناك». يمكن فقط الاستعداد للحرب ثمّ «استيعاب» نتائجها، إذا جاز التعبير، تقاسم الغنائم.

وسائل الاتصال التي يمكن أن تعمل ليس فقط «من هناك إلى هنا»، ولكن أيضًا بالعكس، جميعها مرفوضة من قبل الليبرالي، إذ تُعطى الأفضليّة دائمًا لشيء جديد تمامًا، للشيء الذي لم يُستخدم من قبل أيّ شخص بعد. بالتالي، فهو بالتأكيد لن يعمل في كلا الاتجاهين. الإعلانات مثال جيد هنا لا يمكنك أن تجادل كثيرًا في شأنها. ولكن بقيّة أدوات «الثقافة» الليبراليّة أيضًا لها تأثير مثل الإعلان تمامًا، على سبيل المثال: السينما، وسائل الإعلام، «الفنّ» و«النظريات العلميّة والاجتماعيّة». فكلّ شيء يحدّده الاستخدام الماهر للأموال وفقًا لخطة عمل استثماريّة معيّنة. للحصول على نتيجة مثل هذه (أي الربح)، تحتاج إلى تقديم الكثير للأستاذة الجامعيّين وللجامعات ودور النشر، وغير ذلك ممّا يُدعى «الدعم الفكريّ».

فكر الأب فاسيلي: «ربّما كان في هذا مبالغة، لكن -للأسف- هذه هي الحقيقة عارية».

أصبحت روسيا في القرن الخامس عشر قائدة العالم حقيقةً لا خيالًا، وفي السنة السابعة عشرة من القرن العشرين حاولت تغيير مسار الأحداث التي فرضتها البرجوازيّة. لكنّ مصيبة روسيا وبقيّة العالم كانت أنّها اتخذت

الماركسيّة - وهي عقيدة كانت في حدّ ذاتها مصابة بروح العصر الحديث والعديد من الأحكام الغربية المسبقة - أداةً للتحرير هذا.

يبدو أنّ المذهب الماركسيّ مثاليّ ورساليّ في الجوهر، فقد أعلنت الماركسيّة - لسبب ما - أنّها نظريّة علميّة، وكانت هذه نقطة ضعفها. فالبشريّة - على العموم - ليست في حاجة إلى العلم، فإنّه يؤدّي فقط إلى الموت لا إلى شيء آخر! يحوّل العلم كلّ شيء إلى تكتيكات ونظريّات تافهة يمكن إثباتها، ويربّي على الجبن: «ألا نأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار؟ ألا نحسب حساباً لهذا الأمر؟ كيف سيحدث هذا؟ وكيف سيتحوّل ذاك؟»، في حين أنّ خلاص البشريّة وجوهر الحياة يكمنان في التغلّب على حواجز الخوف كلّها، من خلال القوّة الروحيّة التي تقلب الحسابات كلّها. في وقت لاحق، إذا ما أرادوا، فعليهم أن يدرجوا النظريّات العلميّة تحت هذه القوّة، قوّة الأمر الواقع.

لقد هزم العلم - حرفيّاً - عالم اليوم، مثل المرض أو الورم السرطانيّ الذي يشوّه الحياة ويخرّبها. يدوس العلم اليوم قارّات الأرض جميعها، ويزدرد الثقافات كلّها، بغضّ النظر إن كانت تبدو تقليديّة، وبغضّ النظر عن مقاومتها له. التقاليد وحدها لن تنقذ أوراسيا، بل ستحفظ فقط بإشراقة الدين الجديد المتألّقة التي تثير الحماس!

ظلّ الأب فاسيلي يكتب الملاحظات هذه طوال اليوم، حتّى حان وقت إغلاق المكتبة. وكان على يقين من أنّ الهنود سيوافقونه ويدعمون أفكاره هذه.

-22-

في يوم مشمس ومشرق، كان موراتالي ينتظر مقابلةً مع سفير جمهورية أوزبكستان في موسكو.

كان الافتتاح ممتازًا، إذ لم يكن موراتالي يظن أن نيكولايف سيجلب الكثير من الصحفيين. لقد حضرت محطّتا RTR، NTV، وصوّرتا لصالح برنامجي «مساء الخير يا موسكو»، و«المئذنة»، وقامت محطة NTV بتصوير برنامج الافتتاح بأكمله وقامت بتصوير المركز أيضًا.

ولم يعتمد موراتالي على افتتاح مثل هذا وحسب، فقد كان يدرك جيدًا أنه اختلف مع نيكولايف وتخاصما تمامًا، في الفترة الأخيرة. بعد أن أخرج ذلك السكير من شقته، بادر موراتالي نفسه بالاتصال به والاعتذار له. شعر نيكولايف بإهانة عظيمة، على الرغم من أنه لم يعترف بذلك. لقد سكر فعلاً، فهو الملام. دار بينهما حوار قصير اقتصر على سؤال: «كيف هي الصحف والقرآن؟»، وجواب أنه لا يكاد يقرأها، فليس لديه الوقت الكافي. كان ذلك الحوار كلّ المحادثة. ومن جديد حدّر نيكولايف الملام أن لا يمزح في موضوع دار النشر.

اختفى مدّة شهرين ثمّ اتصل به. ومرةً أخرى دعاه كما لو كان طبيعيًا قائلاً: «هيا، هيا، نريد افتتاحًا بشكل عاجل، وضروري». كانت الأمور بين

موراتالي وجورابايف في ذلك الحين سيئة للغاية، وتوقف جاره في المكتب -المخرج أوستا هالبوتايف- عن مراقبته، فهو يكاد لا يحييه.

التقط موراتالي الفكرة، وسرعان ما نظم ونيكولايف كل شيء، حتى إن الأخير وعد بإحضار رئيس مكتب الشؤون الدينية في الرئاسة الروسية موتورين معه. لم يحضره، لكن كان هناك عددٌ كافٍ من الضيوف ذوي المقامات، ولم تكن الصحافة محبطة. وصل السفير، ومدير الصندوق السعودي وضيوف عرب أيضًا. وقد قُدم السفير على شاشة التلفزيون، وتحدث جورابايف أمام الـ«ميكروفونات» أيضًا، لكنه قُوطع من كل مكان. كما تحدث من رجال الدين الأرثوذكس: الأب الصموت «فيودور» والأب «فاسيلي» غريب الأطوار الذي تحدث بشكل غير متسق حول الاتحاد الأرثوذكسي الإسلامي.

كما أن الصحف التي كتبت حول حفل الافتتاح تناولت فكرة التقارب الإسلامي الأرثوذكسي أيضًا.

صُدم موراتالي من جورابايف، فقد طالب المركز بدفع الإيجار مباشرة في أثناء الفعالية. نعم، وعده موراتالي بشيء ما ولم يف به، لكن كان ذلك مستحيلًا أمام الغرباء. على أي حال، لم يعد العم يمّر كثيرًا، ثم إن مضايقاته للمركز الذي يؤدي أعمالًا سامية مثل هذه، بدت للكثيرين مثيرة للسخرية، إضافة إلى أن المبالغ المطلوبة كانت تافهة.

هذا كله -بالطبع- كان كذبًا، فقد نسي موراتالي حاليًا التفكير في الرحيل. بعد حفل الافتتاح، وصل عدد أعضاء الجماعة إلى خمسين شخصًا! في المقابل، فإنّ شركة العمّ جورابايف سترحل من هنا، مقابل أن تدفع دار الإفتاء شيئًا ما على الأقلّ له مقابل خروجه!

عزم موراتالي السفر إلى طشقند. مع ذلك، كان من المهمّ أن لا يفسد جورابايف الأمر برمّته، لقد أساء إلى نفسه كثيرًا في هذا الشهر الحرج الأخير، وكان موراتالي ينوي الحديث حول هذا الأمر مع السفير. انتقل السفير من مكتبه إلى غرفة الاستقبال فاتحًا ذراعيه كما لو كان يريد المعانقة، وقاد المُلّا إلى الداخل وأجلسه. أثناء الاستماع بعناية، كان يقطب حاجبيه الأسودين اللامعين الكثيفين.

لقد كان رجلًا قويًا، ذا صوت جهوريّ وغلّيز وشعر رماديّ -تمامًا- يغطّي رأسه، مثل موجة تنير أحيانًا وجهه غير الجذّاب. أخذ على الفور جانب موراتالي في ما يتعلّق بخلافه مع جورابايف، حتّى إنّّه اتصل بالآخر على الفور. قال وهو يغمز موراتالي: «نحن فخورون بالملّا، وأنا أعلم أنّهم يقدّرونه تقديرًا عاليًا في الجمهوريّة». يبدو أنّ جورابايف لم يكن يعترض على الكلام، إلّا أنّه اعترض بعض الشيء وتكلّم طويلًا.

وضع السفير سماعة الهاتف وفتح يديه موحيا لـ«موراتالي» أنّ التركيز على موضوعه قد حصل: «حسنًا، افعل ما تريد، سافر إلى طشقند». وسافر موراتالي إلى طشقند بالفعل.

في طشقند، كانت الشمس قد بدأت تنشر لهيبتها بالفعل، على الرغم من أنّ الأشجار كانت لا تزال تقف عاريةً. بدا أنّ أغصانها تصعد إلى السماء، وكان شيء ما مرئياً تقريباً وبهيجاً، يرتفع من الأرض نحو الشمس.

التقى بـ«نورية» والأطفال الذين ابتعد عنهم ما يزيد على ستة أشهر، التقاهم -بالطبع- بحرارة. كان الابن الأصغر قد تعلّم المشي بالفعل، لكنّه لم يتعلّم الكلام بعد، على الرغم من أنّه لم يحتجّ إلى طويل انتظار بعد ذلك. وقد بدا الغداء المحضّر من موجودات المنزل لـ«موراتالي» عيداً. إلّا أنّ المشوار الذي حدث بعد ذلك مع العائلة بأكملها في المدينة، لم يشكّل بالنسبة إلى الزوجة الوحيدة «نورية» احتفاءً واضحاً بالانسجام. بدت كما لو أنّها كانت معتادة على ذلك، إذ كانت -حتّى بدونه- مرتاحة. نعم، كان قد نسي طبعها. وقد ذكرته به، فهي تتباطأ بالردّ على أيّ سؤال متعمّدة، مع حركات تشي بالتوتّر.

لقد نسي موراتالي منذ فترة طويلة كلماته التي قالها إحدى مرّة حول أنّ العلاقة الجسديّة الحميمة مطلوبة فقط من أجل الإنجاب، أمّا هي فقد ذكرته الآن بذلك. عندما أناموا الأطفال، اقترب منها ليعانقها، لكنّها دفعته بعيداً.

- ما هذا؟ إنّنا في حاجة إلى طفل ثالث، أليس كذلك؟

- ليس الآن.

- لماذا؟

- أها.. هذا ليس الوقت المناسب. الأفضل أن تحدّثني عن موسكو.
- نهض عن الأريكة التي جلسا عليها، وانتقل إلى الكنبّة المقابلة.
- لكنني تكلمتُ كثيرًا عن ذلك. كان صراعًا مرهقًا! في اللحظة التي يبدو لك أنّك تتقرّب فيها إلى الله، إلّا أنّك ترى بعد ذلك أنّك - طوال الوقت، على العكس من ذلك - كنت تبتعد عنه. الفساد في موسكو مذهل. وأنت، أخبريني بمزيد من التفاصيل، كيف كانت أيامك هنا؟ كيف تدبّرت أمورك؟
- كنت مشغولة بالأطفال لا أكثر.
- وكيف كانت علاقتك مع عائلة قاسيموف؟
- لماذا تسأل؟
- إنهم أصدقاؤك.
- نعم، أزورهم، وقد زاروني. أصبح بقداش الآن كبيرًا.
- ونطقت اسم المُلّا قاسيموف بلطف، لدرجة أنّ الذلّ هرس روح موراتالي. كان يبدو له في بعض الأحيان أنّ نوريّة كانت تتصرّف علانيةً بالفعل كأنّها زوجة قاسيموف الثانية، لكنّه أمسك نفسه.
- حقيقةً أنّ قاسيموف أصبح كبيرًا، شعرت به جيدًا وأنا في موسكو، إذ تمكّن بنجاح من حرمانني من المال.
- قالت بصوت بريء:
- إن أردت، يمكن أن أكلّمه.

- لا، شكرًا، أنا نفسي سأكلمه بطريقة أو بأخرى. سيرى قاسيموف نفسه في المستقبل أول شخص في الإسلام الأوزبكي، وأنا لا أستبعد أنه سيكون قادرًا على تحقيق شيء مثل هذا إذا لم يوقفه الآخرون. (شدّد موراتالي على هذه الكلمة، وألقى على زوجته نظرة ذات معنى).

- هل تعني نفسك؟
- لكنني لم أقل ذلك. أنا لا أحبّ الشاء على نفسي. يمكنني أيضًا أن أثني على بعض القادة والمنظمات الإسلامية. نعم، يجب أن أثني على مركزنا، بالمناسبة، فهو سيعمل بشكل أفضل دوني. دهشت نوريّة:

- ماذا تقصد؟
- سأطلب منك أن تطلبي إعادتي من موسكو. أعلن موراتالي ذلك شاعرًا بطينين في أذنيه، يحدث ذلك له عندما يُقدّم على قرارات مصيريّة حقًا.

في الواقع، فقد تعلّم أن يتّخذ قرارات مهمّة منذ فترة طويلة دون أن يعلن ذلك مباشرة، إنّه يتحقّق أولاً، يفكّر طويلًا ويقلّب التفكير، ثمّ يعلن عن ذلك فقط عندما يصل إلى القرار. والآن كان يتحدث بصوت عالٍ حول ذلك، ويتمنّى -من كلّ قلبه- لو استطاع أن يعود بطريقة ما إلى الورا، ويرفض. لكنّه -من خلال القشعريرة المحمومة التي اجتاحتها- فهم بالفعل

أنّه لن تكون هناك عودة، وأنّ هذا كان أحد تلك الإلهامات التي يمكن أن يقال إنّ الله - سبحانه وتعالى - ألهمه إيّاها، ولا شيء خلاف ذلك.

قال:

- فعلتُ الشيء الرئيسيّ، لقد فتحت المركز، وهذا يتطلّب نوعاً من الجنون، أنا نفسي لم أصدّق ما حدث. تقريباً بدون مال وبدون مساعدة من طشقند، لكنّ الفكرة تحقّقت! والآن لا يمكن لأحد إغلاق المركز، لكنني أشعر أنّي لا أنفع للعمل المستقيم. فأنا ملحد الأمس نفسه، يمكن أن يجزّني فجور موسكو. فليرسلوا شخصاً أكثر خبرة، ربّما اثنين أو ثلاثة، نعم، لا علاقة للأمر حتّى بالتجربة، لكنّ موسكو - كما اتضح - مكافأةٌ لحقيقة أنّي - كما ترين - تحولت إلى الإسلام وأصبحتُ ملّا. لكن أيّ مكافأة نحتاجها غير الخلود بعد الموت؟ تلك الحياة التي يمنحنا إيّاها الخالق. بشكل عام، سأطلب منهم أن يعيدوني إلى طشقند. وليرسلوني من هنا إلى حيث ما يريدون. فليرسلوني إلى أكطاش. ولتكن أكطاش. أمل أن تأتي معي، هل ستركني أذهب وحدي؟

- ولكن مهلاً، لقد فاجأتني! فقد قلت شيئاً مختلفاً تماماً في الآونة الأخيرة! عليك على الأقل أن تلتقي الناس والمفتي. كاد يكمل لها: «ألتقي قاسيموف؟».

لم تكن نوريّة محتارة وحسب، بل كانت مكتئبة أيضًا. لقد رأى ذلك شامتًا. كان لسانها يلحق شفتيها بعصبية، ولم تتمكن نظراتها من أن تتوقّف على أيّ شيء، فقد تحطّم عالمها إلى شظايا. «كنتِ ترغبين بالسفر إلى موسكو؟ لا، ستذهبين معي إلى أكطاش».

مع ذلك، ظلّت تجادله وتحاول إقناعه بعدم التسرع، لكنّه ضغط عليها كثيرًا. أهمّ التصرفات يمكن أن تكون قبيحة ومؤلمة، ويمكن أن تبدو جنونية، لكنّها ستبقى تعني شيئًا!

لم يدخل رأسها ادّعاؤه بأنّ هناك صوتًا من السماء أوحى له. لم يهدّي روحها المضطربة حتّى النهاية. إذ كانت -من غير هذا الادّعاء- منهزمة، والآن لم تعد قادرة على خوض جدال حول الموضوع.

حينئذٍ انقطع الحديث، ونهضا معًا لأداء الصلاة.

حاول موراتالي أن يركّز في الكلمات العربيّة التي ينطقها، لكنّ هذا القرار ما زال يشدّه، يذكره بنفسه ويفسد عليه صلاته. كم كان ليّنًا مع زوجته! لقد كان قلقًا طوال الوقت، فهل ستقبل كلماته؟ هل ستوافق أم لا؟ أو -على العكس من ذلك- ربّما كان عليه أن يقلق، ألم تستحوذ على سلطات كثيرة في العائلة. وما الذي يهمّ حقًا في هذه الأمور كلّها؟ هل لديه ما يكفي من القوّة ليحيى وفق تعاليم الله! أمّا نورية فستجيب عن خطاياها بنفسها، ولا يُستبعد أن تكون إجاباتها مخيفة!

بعد الصلاة، أمرها بإيجاز أن تهيّئ له مكانًا مستقلًا، غرفة كبيرة.

- سواء كانت هناك حاجة إلى الإنجاب أم لا، فأنا متعب وسوف أنام وحدي.

راقبها بصمت وهي تتحرك وتميل نحوه بجسدها كاملاً. هكذا تتصرف المرأة الخائفة.

لم يعد يشك في أنها ستوافق على التقرب منه، على الأقل من أجل الأطفال. سيكون لديهم طفل ثالث ورابع. «تريدان الذهاب إلى موسكو؟ لا، سوف تأتين معي».

عندما أعدت السرير وخرجت إلى غرفة النوم، أغلق الباب دون أن يشكرها ودون أن يمسي عليها، وأطفأ النور.

يجب التخلص من هذا الغباء الأوروبي: غرفة نوم الزوجية! تخص النساء، إنها النصف النسوي.

لم يستطع النوم فترة طويلة، ليس فقط بسبب نورية، على الرغم من أنه - بسببها أيضاً - لم يستطع أن ينسى مدى صدمتها بقراره. لكنه لم يستطع النوم، بشكل رئيسي، بسبب تفكيره في اللقاء القادم في دار الإفتاء.

-23-

أرسل موراتالي في وقت سابق صحف موسكو إلى طشقند مع تقارير حول حفل الافتتاح وأشرطة فيديو مع تسجيلات البرامج التلفزيونية وتصويره الخاص للصلاة في المركز. على ما يبدو أعجبت دار الإفتاء بذلك، لدرجة أنه عندما اتصل بهم لترتيب اللقاء تردد اسمه هناك برهة اقتربت من الخوف. «المُلا موراتالي حاجي رحيموف!».

وعندما جاء إلى مكتب المفتي في الوقت المحدد، كان الجميع يعرفونه بوضوح، حتى أولئك الذين لم يكن يعرفهم.

استمعوا إلى التقرير، باستثناء المفتي الأعلى واثنين من نوابه (أحدهما المُلا قاسيموف، والثاني المُلا شربوت)، وكذلك جعفروف، من الإدارة الرئاسية. كان نائباً المفتي من نمط قوي الإرادة وثقيلي الظل، إلا أن المُلا شربوت فقط كان يبدو مرهقاً، وكان على رأسه الكثير من الشعر الأشيب. كان المُلا قاسيموف أكثر حدة، يشبه الزنبرك كثيراً، مع ابتسامة قاسية دائمة وشفتين متقوستين للأسفل.

بدأ المفتي -وهو رجل أبوي ذو لحية فضية- الاجتماع بمديح صاخب، لدرجة أن موراتالي حاول إيقافه، لكن لم يكن هنالك مجال لذلك!

قال المفتي بحفاوة:

- اتصل بنا سفير جمهورية أوزبكستان في موسكو، ولا يسعنا إلا أن نشاطره الفخر بافتتاح مركزنا الإسلامي الأوزبكي في موسكو،

خاصّةً أنّ ذلك حدث بناءً على تعليماتنا لمبعوثينا إلى هناك. إنّ المركز مهمٌّ أيضًا للجمهوريّة مثل السفارة والتبادل التجاري! حاول موراتالي مرّة أخرى تخفيف المديح، لكنّ الرجل العجوز لوح بيده مكملًا الكلام:

- إنّ الله يحبّ المتواضعين. لكن، وقد امتلكتُ تجربةً في الحياة، يمكنني أن أتوقّع أنّ ما بدأ بقوة سيستمرّ بقوة. مع ذلك، نودّ أن نسمع منك تفاصيل عن دين الله سبحانه في موسكو.

اعتقد موراتالي أنّ ما قاله المفتي ربّما لم يكن موجّهًا له فقط، بل للثلاثة الآخرين أيضًا. إضافةً إلى أنّ الأمر كان -من جهة أخرى- أشدّ وضوحًا، إذ قرّر موراتالي أن لا يقلّل من إنجازات المركز، لكنهم ذهلوا في منتصف الحديث حينما قال:

- أطلب منكم أن تستدعوني من موسكو. أنا شخصيًا أو من حقًا بالمركز والجماعة والناس الذين التّفوا حوله. لكن لديّ شعور بأنّني مُدعٍ قليلًا. فأنا -في الحقيقة- توصلتُ للإيمان منذ فترة ليست ببعيدة، لا أعرف حياة أوزبكستان الإسلاميّة بشكل جيد، فكيف بي أن أحمل القيم التي لا أكاد أعرفها؟ لذلك أعتقد أنّني في حاجة إلى العودة إلى الخدمة في الجمهوريّة، في أيّ مكان، بما في ذلك - بالطبع - ما أخبرتموني عنه الربيع الماضي.

أعلن ذلك. ومرة أخرى كان هناك شيء يدوي في أذنيه مثل ما حدث بالأمس، وقد اخترقته القشعريرة.

ومثلما بدت نوريّة بالأمس مشوّشة ومكتئبة، كانوا كلّهم اليوم مكتئبين. تتمم المفتي:

- انتظر، أنا لا أفهمك. هل ترفض العمل في موسكو؟
- نعم، أرى أنّ من الضروريّ أن تستبدلوا بي شخصاً أكثر خبرة منّي، وربما أكثر من شخص. سمعت نداءً من الله عزّ وجلّ (رفع موراتالي يده) بأنني يجب أن أتخلّى عن أضواء المدينة وضوضائها، من أجل العمل الشاقّ غير المرئيّ!

بالطبع، لم يستطع أيّ منهم الاعتراض على هذا العذر! على الرغم من أنّهم حاولوا أن يجادلوه، إلّا أنّهم لا يمكنهم إلّا أن ينحنوا للقرارات التي اتخذها موراتالي من بين القرارات التي لم تناقش. لكنّ المفتي -رغم ذلك- لم يستسلم:

- مع كلّ الاحترام الواجب لك (لاحظ موراتالي أنّه كان يتحدّث معه ليس بوصفه الأكبر) ولكن على العكس تمامًا، مع كلّ الاحترام الواجب أيّها المُلّا، ما زلت أعتقد أنّه لا يجوز لك مغادرة موسكو. بادئ ذي بدء، أنت لست مدّعياً، شيء مضحك أن نسمع هذا، أنت رسولنا! في ما يتعلّق بالخبرة القليلة، اختلف معك أيضًا، فنحن -في موسكو- في حاجةٍ إلى شخص عصريّ ومثقف. حول ماذا

- سيحدثهم المُلّا الذي لم يرَ في حياته أيّ شيء سوى المسجد الأوزبكي؟ ثم تقول الاستبدال! هذا ما يمكن القيام به بعد مرور بعض الوقت، وإلا فإنّ كلّ شيء سوف ينهار. يجب أن تعمل هناك مدّة عام على الأقلّ، حتّى نهاية الصيف، ثمّ سنرى. حتّى ذلك الحين، لا أريد أن أسمع أيّ شيء عن مغادرتك موسكو.
- سأل قاسيموف الذي تمكّن -أخيرًا- من استعادة ابتسامته الصارمة:
- مع ذلك أين تودّ العمل بعد موسكو؟
- قال المفتي ملتفتًا إليه:
- ما من داعٍ حتّى للكلام حول هذا الأمر! شيء آخر هو احتياجات المركز الماليّة وغيرها.
- تدخل جعفروف:
- أو لعلّ المُلّا رحيموف يحتاج فقط إلى مساعدين؟
- تنحى المُلّا شربوت:
- نعم، أنا أيضًا كنت أرغب في اقتراح ذلك.
- أكّد المفتي:
- يجب أن نناقش كلّ هذا، فمن أجل هذا نحن هنا.
- ثمّ استدار نحو موراتالي وأضاف:
- مُلّا قاسيموف! لدينا الآن أمين صندوق، هل تعلم؟
- قال موراتالي عابسًا:

- أنا أعرف جيداً. للأسف، إنّ المركز يمكن أن يختنق من دون مال!

قال قاسيموف واعدًا:

- سنحلّ كلّ شيء، عزيزي المُلّا، سنحلّ كلّ شيء.

لكنّ موراتالي رأى في كشرته أنّ المركز لن يتلقّى أيّ أموال. على الأقل

ما دام موراتالي موجودًا في موسكو.

طلب المفتي من موراتالي التحدّث عن مركز موسكو بأكبر قدر ممكن

من السخاء، وأجرى المُلّا مقابلات مع الصحف الأوزبكيّة والإذاعة

والتلفزيون، ثمّ سافر إلى مدن الجمهوريّة للهدف نفسه: جمع التبرّعات من

المؤمنين للمركز. ومن بين المدن الأخرى، شدّته رحلته -بالطبع- إلى

سمرقند وبخارى القديمتين.

لقد كان في وطنه في أوزبكستان! وبالتدريج بدأ يفكر في أنّ هذا الربيع

الصعب، ربّما كان الأسعد في حياته.

-24-

خفتت ضجة حفل افتتاح مركز موراتالي، وتولّى نيكولايف مؤتمر بونديس، لكنّ الأمور لم تسرّ بشكل سلس هنا. توقّف بونديس ببساطة عن الاستجابة لرسائله.

اتصل نيكولايف بمنظمة «المسيحية المفتوحة»، أكّدوا أنّهم يعدّون للمؤتمر، وأنّه سيُعقد في مقرّهم في أوائل نيسان بعد عيد الفصح البروتستنتي وقبل عيد الفصح بالتوقيت الأرثوذكسيّ. اتصل بمساعدة بونديس «أنجيلا يانوفيا» فسألته عمّا يهّمه بشكل خاصّ.

- حسنًا، أنا أعمل في لجنة الشؤون الدينيّة.

قالت بصوت خافت:

- نحن نفعل كلّ شيء وفقًا للقانون. وليس هناك ما يدعو إلى القلق.

- وإذا ما أردت المشاركة في المؤتمر، لنقل ضيفًا؟

فكرت قليلًا:

- لسوء الحظّ، أنا لا أرسل الدعوات، تقوم اللجنة المنظّمة بذلك،

لكنّني سأنقل لهم اهتمامك بالمؤتمر، والأفضل أن تذهب إليهم

بنفسك.

وكما لو أنّ شيئًا خنقه، قال:

- ماذا تقولين؟ كأنني لا أعيش في بلدي! إنهم يستعدّون لعقد مؤتمرٍ ما، ولكن ليس لدى حكومة موسكو الحقّ في معرفة ذلك، هل يُعقل ذلك؟

- سيّد نيكولايف، لكننا لسنا ملزّمين بطلب الإذن منك، نحن الآن في بلد حرّ. من فضلك، إذا كان هناك شيء يهمّك على وجه التحديد، سأجيبك.

صرخ فيها:

- وأنتم لا تبالغوا في تقدير حرّيتكم! لا يزال في إمكاني أن أسبّب لك بعض المشاكل الكبيرة!

وأغلق سمّاعة الهاتف بقوة، ثمّ نهض من خلف طاولة المكتب.

فوجئت إزفيتشيكوفا التي كانت في ذلك الوقت موجودة في مكتبه:

- أوه! ما بك؟

- إنهم يتصرّفون كما لو كانوا في مكان فارغ! كما لو أنّنا لسنا موجودين!

وهل يمكنه فعلاً إعاقتهم بطريقة أو بأخرى؟ شعر نيكولايف أنّه يتعرّض للابتزاز. توقّفوا - فجأةً - عن الخوف منه. اتصل بـ «موتورين» الذي دعم استيائه:

- تعال، تعال إلى هنا غداً، سيكون لدينا اجتماع حول الموضوع هذا فقط. مع مَنْ اتفقوا؟ يمكنك أن تخمّن بنفسك: مع غوليكونوف. ولكن هيا، أعدّ تقريراً حول هؤلاء «السفراء المسيحيّون»

و«المسيحية المفتوحة»: كيف شغلوا مبنىً بطريقة غير قانونية في وسط موسكو؟

غداً يتجمع أولئك الذين يُسمّون «الحزب الوطني» في مكتب موتورين. منصب موتورين: رئيس مكتب الشؤون الدينية في الرئاسة الروسية، وهذا منصب منافس لمنصب غوليكونوف: سكرتير مجلس العلاقات مع الجمعيات الدينية لدى الرئيس. يعيق الهيكلان عمل بعضهما، وأحد أهداف الاجتماع تقديم مبررات إضافية للرئيس من أجل حل إدارة غوليكونوف.

جلس العديد من الكهنة الأرثوذكس في مكتب موتورين وكانت الحقائق مذهلة. نعم، كان نيكولايف نفسه يعرف الكثير منهم. حتّى إنّ بعض المنظمات التبشيرية الأميركية كانت لها أسماء مسيئة، على سبيل المثال، «DAWN» (Discipling a Whole Nation) أي «تهذيب أمة بأكملها»، الأمم التي اختيرت للتواصل معها كانت مسيحية، إلّا أنّها -بالطبع- ليست بروتستنتية، لكنّها كاثوليكية أو أرثوذكسية، على سبيل المثال: بولندا، مولدوفا وجورجيا، كانوا قد أحضروا مساعدات إنسانية إلى جورجيا المسيحية القديمة، وقام أهالي تفليس المهجورون بفتحها، وفي الوقت نفسه استمعوا إلى موعظة يمكن للعيون أن تحفظ لحيويّتها. كانت في الواقع كلاماً جديداً تماماً في الدين.

كان الغرض من هذه المنظمة إنشاء فروع خاصّة في كلّ مدينة وقرية كبيرة في دولة ما، ولنقل -على سبيل المثال- جورجيا، تكون بديلة عن

الكنيسة المسيحية المحلّة التي يفترضون أنّها في حالة تدهور. أثاره ذلك، لكن كان من الصعب التوضيح. لماذا؟ ربّما بسبب رغبة الجزء - تلك الرغبة الموهوسة - في انتحال صفة الكلّيّة، ورغبة الفسيلة الجانيّة في انتحال صفة الجذع. استدار موتورين نحو نيكولايف وقال:

- سيرغي إيفانوفيتش، وضّح لنا الحال مع «المسيحية المفتوحة». (ثم أضاف) ومع المبنى الذي يشغلونه.

- نعم، سأشرح لكم. لقد تمّ الحصول على المبنى بشكل غير قانوني، بعد وقت قصير بعد شهر آب من عام 1991. لم يُعقد أيُّ مزاد علنيّ، تمّ التوقيع فقط على ورقة. بعد ذلك ألغي القرار ثمّ أُعيد مرّة أخرى.

- لماذا لا تُجري عمليّة مزاد علنيّ.

- إنّنا نفكر في هذا، لكننا - حتّى الآن - لم نجد الشركة المناسبة التي في إمكانها شراء المبنى.

فتح موتورين يديه:

- أهلاً! ما دام لا أحد لديه الرغبة في المبنى، فلماذا إذن نصادره؟

- إنّهُ ضروريّ للكثيرين بالطبع، بما في ذلك حكومة موسكو. على العموم، سنحلّ هذه المشكلة قريباً.

• فترة الإعلان عن إنهاء وجود الاتحاد السوفييتي، واستقلال الدول المكوّنة

له. [المترجم]

ضمّ موتورين كتفيه:

- هكذا يحدث معنا دائماً. قريباً، ولكن ليس الآن.

بشكل عام، لم ينجز الاجتماع الشيء الكثير. مع ذلك كان موتورين يأمل بالضغط إلى أقصى حدّ على غوليكونوف، ربّما حتّى في الأسبوع أو الأسبوعين القادمين. لذلك لم يكن يرغب في مغادرة موسكو وأرسل مكانه نيكولايف إلى سانت بطرسبيرغ لحضور مؤتمر المجلس العالميّ للكنائس اللوثرية هناك.

تُعقد هذه المنظّمة مؤتمراتها كلّ عام في بلد جديد، وفي روسيا تجتمع أوّل مرة، لذلك كان متوقّعا شيء غير عاديّ. افتُتح المؤتمر في السادسة مساءً يوم السبت، بقدّاس مسكونيّ في الكنيسة اللوثرية في سفيتايا ماريا، في شارع بولشايا كونيوшина.

في الساعة الخامسة والنصف، استدار نيكولايف من شارع نيفسكي إلى الشارع هذا المسيح بأشجار الزيزفون التي لا تزال فضّية من الجليد والثلج تحتها. وكان الإسفلت في كلّ مكان جافاً ومُناراً.

كانت هناك حافلة أجنبية تقف بجانب كنيسة خضرَاء ذات أعمدة بيضاء، وكان سكّان بطرسبيرغ يمرّون من أمامها، إذ إنّهم معتادون -على ما يبدو- على حقيقة أنّ هذا المعبد كان -دائماً- مغلقاً، على الرغم من أنّ الدخول اليوم كان مجّاناً للجميع.

في الداخل، استقبل الضيوف الرؤساء اللوثريون الذين كانوا يرتدون أرواباً باللونين الأرجواني والأسود مع كشاكش بيضاء فوق الصدر تحت

حناجرهم. اشتكى أحدهم على الفور لمسؤول موسكو «نيكولايف» من المضايقات التي يتعرّضون لها.

حسنًا، على الأقلّ كان هناك شعور بالمضايقة الفيزيائية. كان السقف منخفضًا للغاية في هذه القاعة ويضغط على الموجودين كما هو الحال في سراديب الموتى. في العصر السوفييتي، أُنشئت أسقف خرسانية هنا لتشكّل طابقًا إضافيًا. وبالمناسبة، فإنّ الإدارات الموجودة هناك لم تكن ترغب في الخروج من الطابق الثاني هذا.

استقبل ممثلو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من بلدية سانت بطرسبيرغ الضيوف إلى جانب اللوثرين. كان هناك رئيس الأساقفة المتقاعد بكامل قيافته -فعلاً- وصوته الحادّ، والأرشمندريت الشاب الذي تألّق بنظّارته، وهو مستغربٌ معروف في الكنيسة الأرثوذكسية. وكان الثالث شماسًا ملتحمًا. أخبروا نيكولايف أنّهم سيشاركون في هذا القدّاس المسكونيّ.

كما التقى بتلك السيّدة من سمولني التي لم تسمح للوثرين بالذهاب إلى الطابق الثاني من هذا المبنى، ولا إلى أماكن معيّنة في المدينة والمنطقة كانوا يسعون للوصول إليها أيضًا. تحدّث نيكولايف معها بصفته ممثلًا لـ«موتورين» و«موسكو»، دون أن يوافقها تمامًا، ودون أن يدينها.

كان الجمهور متعدّد اللغات في الكنيسة على تواصل كامل بالفعل قبل القدّاس. خلع بعضهم ملابس الشارع، وبعضهم الآخر لم يخلعوه. حضر هناك شمال أوروبا كلّها، وأيضًا -ما كان مفاجأة لنيكولايف- حضر الكثير من الأميركيين.

بشكل عام، بدا له المجلس العالمي للكنائس اللوثرية على وجه التحديد منظّمةً في جيب أميركا، مثل مجلس الكنائس العالمي الموجود في المبنى نفسه في منطقة روت دي فيرن في جنيف. لكنّ المجلس اللوثرى العالمي اختار مؤخراً مساراً ليبرالياً حديثاً للغاية، وقد قرّرت أكبر الكنائس الأميركية من هذا اللون -الكنيسة الإنجيلية اللوثرية الأميركية- أن لا تعمل حتى الآن في روسيا، كما لو كانت تمنح هذا الدور لزملائها الأوروبيين، لكنّ اللوثرين الأميركيين اخترقوا بمثابرة المتديّنين ذوي الاتجاه المحافظ في روسيا. لم تكن كنائسهم عضواً في المنظّمة اللوثرية العالمية، وربما بدت كما لو كانت تقاطعها، لكنّ نيكولايف رأى ممثليهم هنا. وعندما سأل بأيّ صفة هم موجودون، اتضح أنّهم موجودون بصفّتهم ضيوفاً ومراقبين.

بدأ القدّاس بنشيد وطني غنّوه وهم ينظرون إلى كلمات النشيد المطبوعة ضمن برنامج القدّاس بالكلمات الروسية والإنجليزية والألمانية. في القدّاسات المسكونية التي كثيراً ما حضرها نيكولايف، يحبّون غالباً نشيد «المجد لك أيّها الربّ»، ولكن هنا اختاروا نشيداً أكثر جدّة:

يا مَنْ مَجِّدَكَ الرَّبَّ! إِنَّهُ مَالِكُ الْكَوْنِ الْحَكِيمِ

يَقُودُنَا إِلَى غَايَاتِهِ بِطَرِيقِ مَقْدَسٍ

إِنَّهُ يَقُودُكَ أَنْتِ أَيْضًا

عَلَى طُولِ طَرِيقِ الْأَلَامِ

سَرَتْ أَنْتِ مَثْقَلًا بِالْخَطِيئَةِ

يا مَنْ مَجِّدَكَ الرَّبَّ! رَتِّبْكَ بِشَكْلِ رَائِعٍ

حفظك، واستراح بهذا الوقت

يا يسوع المسيح!

لقد جلبت لنا فرحة الخلاص

وأكرمتنا بالحياة الطيبة.

دوى صوت الرجال الأصحاء بطريقةٍ بدا فيها أنّ الزجاج يهتزّ في مكان

ما. وقد كان صوت القساوسة الألمان - بشكل خاص - يردد رعداً وهم

يغنون النشيد نفسه باللغة الألمانية.

مجدك الربّ الذي حملك على أجنحة الملائكة

الذي هدّاك إلى حكمته

والذي حفظك، بالصورة التي تحبّها لنفسك.

ألم تشعر بذلك؟

كما أذهله الغناء العالي الذي قدّمه الجمهور الأميركيّ الكبير باللغة

الإنجليزية:

مجدك الله! مالِك كلّ شيء

الذي يلطّف بك، ويحميك من الأذى

ويحفظك من الضعف

هل رأيت

كيف كانت رغباتك

مكفولة في توجيهاته؟

وخلف رعد الأصوات الهادر ذلك، لم يكن في الإمكان سماع
الـ«أورغن». وقد راحت رعشات تشبه النمل تسري في أنحاء جسد
نيكولايف وفي وجهه وتحت جلدة رأسه:

يا مَنْ مَجِّدَكَ الرَّبَّ!

يا رُوحِي أَنْتِ

لا تَتَوَقَّفِ عَنْ حَمْدِهِ

فهو يطفئ تيّار الخلاص الخاص بك!

إِنَّهُ نُورُ الْحَيَاةِ!

لا توجد حياة أخرى لنا

كما تمنحها إرادته الطيبة!

أنشد بعض الألمان مُخَفِّضِينَ كِتالُوج البرنامج، إذ كانوا يحفظون النشيد

عن ظهر قلب، وراح بعضهم يمسح دموعه:

تعال وانضمّ إلى الجموع

استيقظ واسمع أنغام المزمار والقيثارة

لتكن تسابيحك مسموعة.

وبطبيعة الحال، فإنّ أقوى الأصوات كانت الأصوات الكثيرة التي تؤدّي

باللغة الإنجليزيّة:

كُلِّ مَنْ تسمعه

يا مَنْ تقترب الآن إلى معبده!

اخذه وأنت سعيد عشقاً!

ثم انطلق صوت المطران العالي منشداً:

مجدوا الخالق!

مجدوه للأبد!

إنه ينعم علينا الكثير!

عندما انتهى النشيد، سُمع صوت عزف الأورغن بطيئاً يشبه الصرير،
وقدم من الخلف -عبر الممر- أسقفٌ لوثرِيٌّ، وهو رجل عجوز فنلنديّ
طويل القامة وصارم الهيئة.

كان يطرق الأرض بعصا القس، يصعد إلى الطابق العلويّ بدرج لولبيّ
ويعتمر غطاء رأس فضّي يشبه حبة البازلاء المفتوحة أو المخروط
المقصوص، تحرّك بغرابة شديدة كما لو لم يكن رجلاً، بل دمية صناعيّة.
ربّما أدهشه في طفولته هذا المظهر الرائع للأسقف في الكاتدرائيّة
اللوثرية، والآن قام بتقليد هذه العظمة، على الرغم من أنّها كانت سخيّة
بعض الشيء في قاعة سراديب الموتى المسحوقة هذه.

لكنّ الأسقف أثار إعجاب الجميع، خاصّة الأميركيين الذين نظروا إليه
كأنّهم لا يستطيعون حقاً أن يفهموا ما إذا كان هذا شخصاً أم آلة؟ لقد انحنى
إلى الخلف قليلاً بطريقة خشبيّة، قدّم رجله إلى الأمام، ثم -كما لو كان
يهبط قليلاً- نقل وزن جسمه إليها، ثم قدّم رجله الثانية. لكنّه -عندما خرج
إلى المذبح أمام الجميع- خلع غطاء الصدر، ومسح على شعره الرماديّ
الناعم بيديه، ثم راح يؤدّي القدّاس بطريقة بشريّة.

بشكل عام، مع استمرار هذا القدّاس المسكونيّ، رأى نيكولايف أنّه - كما يحدث عادةً - نوعٌ من تبادل الخبرات بين الطوائف المتنوّعة. لقد حشروا الكثير من الأشياء في ذلك القدّاس: تحيّة الكاثوليك، جوقة الطّلاب المعمّدانِيّين الأميركيّين وتحيّة مجلس الكنائس العالميّ التي قرأها - باللغة الروسيّة - قسٌ بولنديّ نحيل قويّ الشّكيمة، بدا كأنّه ثوريّ من الثّوار السريّين، ورسالة المجلس العالميّ للكنائس اللوثرية قرأها قسٌ ألمانيّ سمين.

أمّا الخطبة فقد ألقتها قسيّسة كانت - على ما يبدو - من فنلندا. شعر الجميع بالتوتر عندما ظهرت، إذ كانت تلك المرّة الأولى التي يكون القس فيها «امرأة»! بغض النظر عن الكنائس الحداثيّة التي ينتمي إليها القساوسة.

استمع نيكولايف - أوّل مرّة - إلى قسيّسة، ولم تكن امرأة معلّمة أو فنّانة. على أيّ حال، يبدو أنّ هذه السيّدة لم تلعب بوعيّ تامّ دور المرأة ذات الإرادة القويّة، ولكن دور رجل قويّ الشّكيمة في الحقيقة، رجلٍ ليّن من موظّفي المكاتب. لكنّها تركت انطباعاً قويّاً حين رفعت حاجبيها الأسودين، وومضت نظارتها.

ثمّ هتفوا بشكل جماعيّ: «أبانا»، كلّ بلغته الخاصّة. وفي نهاية القدّاس، بدأت الأدعية والتوسّلات الأرثوذكسيّة.

وبنبرة باكية، قام الشمّاس بتلاوة أدعية وتوسّلات إلى الربّ، وكانت جوقة صغيرة تردّد تلك الأدعية التي برز فيها -مرّة أخرى- صوت المطران العالي.

- دعونا نصليّ للربّ من أجل العالم العلويّ وخلص نفوسنا، للربّ نصليّ.

- يا ربّ، ارحمنا!

- دعونا نصليّ من أجل سلام العالم كلّ، من أجل سلامة كنائس الله المقدّسة وتوحيد الجميع.

- يا ربّ، ارحمنا!

وهكذا.

هنا لم يفهم أغلب الحاضرين اللغة الروسيّة، لكنّهم شعروا -على ما يبدو، كما شعر نيكولايف- بشيء لم يكن في الأشياء السابقة كلّها.

على الأرجح، ارتبط الأمر بالأشخاص الذين يتلون التوسّلات، بالتقليد نفسه أيضًا، وبالأدعية بالذات، إذ يشعر المرء بإيمان مثل هذا، بسيط وخالٍ من المحاكمات، لا يموت رغم أكثر المصائب فظاعة، بل على العكس من ذلك، فإنّ الإيمان سيجد حياة في تلك المصائب، وتجاوزها.

كلّما قلّ اهتمام هذا الإيمان بالخطر والتهديدات القاتلة، كان انتصاره أكثر حتميّة.

لقد رأى نيكولايف رجل الكنيسة الأميركي صاحب التأثير، الرجل الذي -بالطبع- لم يكن يعرف اللغة الروسية، وقد استمع إليه أيضًا. والآن لم يعد قادرًا على إخفاء إحباطه، إذ بدا ما يسمعه كأنه يشطب بعض جهوده. انتهت الأدعية والتوسلات، وأعاد الأسقف الفنلندي مرة أخرى صدريته (ميتريته)، وأخذ عكازه متجهًا نحو المخرج بالحركة الخشبية نفسها، لكن خطواته الأولى مع صوت عصاه بدت مهيبة في السكون، لأن ليفين -عازف الأورغن- ذا الشعر المجعد -وهو أحد معارف نيكولايف- بدا أنه يستمع إلى الأدعية. تردد قليلًا، لم يهرع على الفور إلى الأورغن، ثم بعد قليل راح صوت الأورغن يصدح.

ثم انشغلوا بما اجتمعوا من أجله: أحاديث العمل. أفلتتهم الحافلة إلى قاعة الضيافة في فندق «موسكو». مع ذلك، لم تكن الأحاديث الأولى سوى إحماء، وسوف تُعقد المفاوضات الرئيسية غدًا.

-25-

عاد الأب فاسيلي من الهند فقيرًا. لم تكن المؤن والنقود لديه تكفيه أسبوعين، وبالأكثر ثلاثة أسابيع.

لذا، كان من المفترض أن تبدأ «رسالته الإلهية» الآن بالتألق. لذلك قرّر أن يسمّي دينه الجديد. إذا ما كان الضغط يسبّب الانفجار، فإنّ غياب القوّة -بالنسبة إليه- سيمنحه قوّة لا حدود لها.

وبدلاً من ذلك، بدأ الشعور بالخزي يحرقه. الخزي بسبب كثير من الأشياء المنفردة، وبسبب الأشياء مجتمعة كلّها، كان ذلك ناراً تقترب من شيء كبير، شيء أكثر قابليّة للاشتعال في قلب روحه. وعلى الرغم من أنّه كان لا يزال يحاول الانعزال جانباً لحماية نفسه، إلّا أنّ الآوان قد فات. وفي إحدى المرّات، مساء يوم الأحد، فجأة هبّت فكرة مثل اشتعال النار.

هذا الوقت -بالنسبة إلى العلمانيّين- نهاية عطلة نهاية الأسبوع، عندما يفكّرون بالفعل في العمل. أمّا بالنسبة إلى الكهنة، فعلى العكس، إذ إنّ يوم الأحد يوم العمل الأكثر صعوبة، وبعد ذلك سيكون يوم الاثنين يوم عطلة، وبدءاً من يوم الثلاثاء سيتمكّن الناس مرّة أخرى من الوصول إلى كنائسهم، وأداء عباداتهم.

حدّد الأب فاسيلي اجتماعاً منتظماً في مدرسة سيرغي فاليريفيتش يوم الثلاثاء، أعدّ نفسه وفرز المستمعين القدامى والجدد في ذهنه محاولاً تخيل كيف يتعدّبون، كيف يرون بعضهم بعضاً وكيف يرونه.

وهنا، عاد الموضوع يحرقه. هل من المقبول أن تتخيل نفسك إله أوراسيا، وعلى الرغم من عدم الحديث عن هذا الموضوع بشكل صريح، إلا أنه لا يزال يقود أنصاره إلى ذلك بشكل واضح؟ ترى، ماذا سيعتقدون فيه؟

لا يعني هذا أن الأب فاسيلي لم يكن يشعر بالخزي من هذا من قبل. لا، ولكن في كل مرة كان يتمكّن من قمع هذا الشعور بالخزي وتثبيت نفسه في قناعته بأنّه «الله» حقًا، ولديه قوى غير بشرية لا يمتلكها أحد. لذلك الآن كان يأمل أن يهدأ شعوره بالعار. لكن لا، لقد كان ذلك الشعور يحرقه أكثر.

بدأ يعيد قراءة كتاباته. وهنا أصبح الأمر لا يطاق إطلاقًا. عبقرية عظيمة، الله! لقد ومضت له الفكرة، وفي كل مكان كان هناك شعور بازدياد تافه للناس وبخيلاء كبيرة، خيلاء عارمة!

لم يستطع القراءة. بعد أن تشرع في المسار الروحي، تتطهر من أشياء كثيرة، ولكن هناك تنتظر مخاطر معينة، لكنّها -كما تعلمون- ليست أسوأ من غياب الروحانية. أحد هذه المخاطر: الخيلاء. يفخر الشخص العادي، أو حتّى لو كان شخصًا مُحبًا لنفسه للغاية، بأنّه -على سبيل المثال- أكثر مالًا ويمتلك أكبر عدد غرف في المنزل، وربما يعدّد كل الأشياء التي يمكن أن تحصى، وبالتالي هو يضع نهاية للغرور. في الروح، يمكن للمرء أن يكون فكرة عالية عن نفسه إلى ما لا نهاية، وهذا ما حدث للأب فاسيلي، السبب

الذي كره نفسه لأجله الآن. بالمناسبة، هذا ما يلاحظه الناس بعضهم لدى بعض، وهم مُحِقُّون في أن يحتقروا الشخص لأجل ذلك! لذا كان رأي بعض الناس الذين يكنُّ لهم الاحترام يحرقه الآن، الرأي الذي جعلهم يشعرون به بوضوح، لكنّه منع نفسه عن ملاحظته، في ذلك الوقت، وقد أعمته قناعته بألوهيّته المفترضة. وفكّر في أنّ هذه الألوهيّة التي تصوّرها عن نفسه لم تكن مرئيّة بالنسبة إلى أيّ شخص ما دام لم يعلن عنها، والآن أدرك أنّها كانت شفافة طوال الوقت بالنسبة إلى الكثيرين. أشعل هذا الإدراك في داخله شعورًا شديدًا بالعار لم يشعر به في أيّ فترة من حياته من قبل.

تلخص التبرير المعتاد الذي طمأن الأب فاسيلي نفسه به، التبرير الأكثر عموميّة، تلخص بما يلي: لقد فهم أنّ ما يسمّى «عذاب الضمير» -في الواقع- محايد، إنّّه إحساسنا غير السارّ لا أكثر، على غرار الخوف من التماس مع شخص آخر. ويمكننا توجيهه إمّا إلى داخل أنفسنا، شاعرين بالذنب، أو بذل الجهد من أجل حشره في روح الشخص الآخر، حينها سيشعر -هو- بالذنب، بالفعل.

على سبيل المثال، الأب فاسيلي هذا، إنّّه يشعر بالخزي لأنّه لا يعمل. ولكن هل يقوم أيّ من الذين يقودون السيارات باهظة الثمن ويشترون الأشياء الفاخرة لعائلاتهم، بعمل مفيد؟ لا، من المؤكّد أنّ وظيفتهم الأساسيّة إثارة الخوف والعار في نفوس مرؤوسيههم وأولئك الذين يعتمدون

عليهم، وأن يقتنعوا أنفسهم بعناد بأنهم لا يحصلون على رواتبهم المرتفعة من دون مقابل. لتصميم خطّ أنابيب لضخّ النفط -على سبيل المثال- إلى حيث يستمتعون بحرقه، مشبعين نزواتهم، أو لبناء صالون تدليك ما، بيت دعارة أو قصر لأولئك الذين نجحوا أيضًا في فنّ نقل الشعور بالخزي إلى أرواح الآخرين.

إذا كنت تميل إلى الشعور بالخزي من نفسك بدلًا من إلحاقه بالآخرين، فستكون شخصًا تنفيذيًا أكثر منك قياديًا. أن تحفر خندقًا -على سبيل المثال- من أجل خطّ الأنابيب نفسه، كأنك تضع لبنة لبناء بيت الدعارة نفسه. لكنك ستظلّ تدور في دائرة الاستهلاك نفسها بالتناسب مع الوقاحة، وبالتناسب مع مدى مهارتك في إدخال الآخرين في دائرة الشعور بالذنب. بدا أنّ هذا الترابط بين مهارتيّ تلوّث الضمير الذاتي وإحيائه لدى الآخرين واضحٌ للأب فاسيلي، لدرجة أنّه كان مندهشًا حقًا من رغبة العديد من الأشخاص في مواصلة ممارسة هذه اللعبة، هؤلاء ليسوا مليون شخص، بل عشرة ملايين، مئة مليون، مليار أو عشرة مليارات حقًا! إنّ الشخص الروحانيّ محقّق تمامًا في أن يخرج من هذه اللعبة!

عادةً ما كان ينشئ بناء مثل هذا، ولكن في هذا الأحد فقد اشتعل البناء في نار العار واحترق.

ما العلاقة التي كانت تربط الأب فاسيلي بأتباعه؟ هنا يكمن الخزي الرئيسي والخداع.

هناك قادة طوائف يعلنون أنّهم آلهة دون لفّ أو دوران. هكذا فعلت ماريا ديفي كريستوس •، وديفيد كوريش الذي أحرق نفسه في أميركا مع تلامذته. قام هذا الشخص بتصوير مقطع فيديو، يظهر فيه كيف يقود أحد مؤيديه إلى مكان ما منعزل خلف الحظائر، داخل العشب الطويل، ويوقفه حتّى تصوّره كاميرا خفيّة عاملة. ويسأله تحت التهديد: «مَن أكون أنا كما تعتقد؟ أنا ابن الله!». أمّا الآخر الذي كان في ملابس العمل، كان محرّجًا للغاية، إذ كانت أفكاره جميعها تدور حول شيء واحد: هل سيضربه أم لا؟ إichاء مثل هذا، بأنّك «الله» يمكن أن ينجح فقط بشرط أن تخلق في روح الشخص الذي تعمل عليه الخوف غير الإنسانيّ حقًا، الخوف المخدّر.

ربّما كان الأب فاسيلي يملك القوّة الكافية لذلك، لكنّه فضّل عدم القيام بذلك، أخذًا في الاعتبار أنّ التلميح إلى أنّك كنت «الله» سيعطي نتيجة الإعلان صراحةً عن ذلك نفسها.

يمكن التلميح بطرق مختلفة: بذكاء، بغباء، إلّا أن الأب فاسيلي فعل ذلك بالروسية. على سبيل المثال، في أحد الاجتماعات التي عقدت مؤخرًا، قال إنّ المنتجات الغذائيّة الغربيّة تحمل ذبذبات قاتلة ومخرّبة للروح.

-
- مارينا تسفيغون، أو باسم الشهرة ماريا ديفي كريستوس، ولدت في مدينة دونيتسك في أوكرانيا 1960. هي مؤسسة طائفة دينية. بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، كانت واحدة من حركات العصر الجديد البارزة في الجمهوريات السابقة، حيث بلغ عدد أعضائها حوالي 80000 عضو. [المترجم]

تحدّث عن ذلك بغضب كأنّ حياته كانت تعتمد على هذه الفكرة. لكنّ الأمر كان كذلك بالفعل، وليست حياته الأرضيّة فحسب، بل الحياة وموت الروح، أيّهما أهمّ! يبدو أنّه أخاف الكثيرين، فإذا كان شخص ما يشتري منتجات غربية، فإنّه لن يعود لشرائها بالتأكيد الآن. وعدّه أحد الأشخاص مجنوناً ميئوساً منه، على الرغم من أنّ الأمور وصلت لديه إلى أن يتحدّث بأشياء أكثر جنوناً.

كان قد بدا له أنّه وجد مساراً ما، لكنّه وجد الآن أنّه لم يكن مختلفاً عن الثنّارين الليبراليّين الذين كرههم: قادة الندوات التي يُعقد الكثير منها حول العالم! فكلُّ منهم يعدّ نفسه حاملاً الحقيقة الجوهريّة، وناظماً الكون الأخير. لكنّه يخفيها، ببساطة: إنّهُ استثنائيّ تماماً، متفوّق على الجميع، وأسس مدرسة متميّزة نوعاً ما... أناهُ بالنسبة إليه وإلى أتباعه هي الشّيء الجوهريّ، أمّا القوانين والنظام في الفكر الإنسانيّ والتاريخ فهي مجرد نجمة ليبراليّة، وهو ينكرها من حيث الجوهر. لأنّه -بخلاف ذلك- لا بدّ من التوضيح: ما هي بالضبط قيمة أناهُ؟ إنّها فقط تتحقّق من خلال إنكار القوانين التي تنظّم الشؤون البشريّة، ومن خلال إخفاء الأسس التي يؤكّد ناشط مثل هذا نفسه عليها، وهو قادر على ذلك.

والأكثر من ذلك إذا سألتَهُ: مع مَنْ هو، إلى جانب مَنْ؟ حسناً، سيقول لك إنّ هذا كلّهُ -بالنسبة إليه- هراء، إنّهُ ليس مع أيّ أحد، إنّهُ مع نفسه وإنّهُ

منفرد، هل يبدو هذا واضحًا لكم؟ لن تستطيع جرّه إلى أيّ معسكر! ولا يمكنك أن تهيئه لأيّ شيء!

مع ذلك، فإنّ كلّ شيء يبدو مرئيًّا من الخارج. ويمكنك دائمًا الإمساك بالمتسلّط الفكري من أذنه وتقول له: لا، يا صديقي، أنت لا تزال هنا مع هؤلاء. انظر، أنت تشبههم بهذا الأمر وذاك وتقول الأشياء نفسها التي يقولونها.

في الواقع، أصبح الأب فاسيلي مثل هذا الناشط. لكنّه لا يريد أن يكونه ولا يستطيع أن يكونه!

عاشت في عقله وروحه ذكرى رأيٍ ما قاسٍ، لم يكن رأي والده ولا والدته، وكم تحطّمت -في العالم- آراءٌ مثل هذه الآراء وتحوّلت إلى شظايا صغيرة.

وهل كان دينه الجديد هذا محطّمًا حقًّا؟ نعم، يبدو ذلك. يبدو أنّ دينه الجديد كان هراء، وأنّه يجب أن يتوقّف عن العبث.

يمكن للأب فاسيلي أن يجد عيوبًا في أيّ شخص يقول رأيًا مثل هذا، من شأنها أن تقلّل من قيمته. لكنّ القضية لا تكمن في رأي منفصل، بل في شيء عام، في قدرتنا على أن نحكم على الأشياء، وأنّ يُحكم علينا من وجهة نظر الكمال. وهذه المحاكمة كانت تحرق الأب فاسيلي الآن.

كان يقنع نفسه بعدم التسرّع. في نهاية المطاف فإنّ أيّ عمل -بمعنى ما- حماقة، وأولئك الذين يؤكّدون أنّ الحقيقة تكمن في عدم الجمود ليسوا غير

محقّين. يعزو الهنود -على سبيل المثال- النشاط إلى المبدأ الأنثوي، والجمود إلى المبدأ الذكري. في العالم، تأتي هذه الثروة كلّها بشكل مباشر، إن لم تكن من النساء، فهي من الرجال المتشبهين بالنساء. لكن، من ناحية أخرى، لا يستطيع الرجل الحقيقيّ أيضًا أن لا يفعل شيئًا على الإطلاق، فهو ملزم بفعل شيء ما، حتّى لو من أجل أن يشوّشوا رؤوس بعضهم بعضًا. ربّما كان الدين الجديد مطلوبًا -بالفعل- من أجل الحفاظ على الأشياء على ما هي عليه، دون تغيير، سيكون هو حينئذ مفيدًا. وحينئذ عليه المضيّ قدمًا بقوّته كلّها وعليه أن لا يلتفت إلى أيّ شيء.

لكنّ البناء هذا تحوّل إلى فحم في نار العار، ثمّ انهار... لا، لا يجوز له أن يبرر نفسه، بل عليه أن يفكّر كيف يتوب! أن يذهب إلى الميدان، أو على الأقلّ أن يجثو على ركبتيه أمام مستمعيه ويقول: اضحكوا، أيّها الناس الطيبون، هاكم ما فكّرت به: توحيد أوراسيا! تصوّرت نفسي «الله»! اضحكوا واغفروا لي إن استطعتم!

وعليك أن لا تنسى التوبة في شيء آخر: في تصاعد الكراهية! لقد كانت دروسه عبارة عن ضخّ الشر! أليس هذا بدافع الغضب، أليس بسبب الحاجة إلى تخيّل نفسه إلهاً، أليس بسبب الرغبة في نشر الشر على أيّ شخص دون عقاب؟ نعم كان الأمر كذلك، وكم كره الأب فاسيلي نفسه بسبب ذلك! ما حدث مساء الأحد، لم يكن تأملات من أيّ نوع، بل كان تشنّجات مثل تشنّجات الدودة المدهوسة.

ووفقًا لإحساسه الداخلي، كان الأمر كما لو أنه قد تحوّل إلى نار، تطايرت بفعل الرياح تارة في هذا الاتجاه وتارة في الاتجاه الآخر، والآن هو يرى برعب أنه يوجد هنا وهناك ما يُشعره بالخزي، وأيّ خزي! كل ما استطاع عقله أن يسأله: كيف تحرّرت نار الندم بلا حدود؟ وهل سيحترق كلّ شيء كان يعيشه في الفترة الأخيرة حتّى يصبح رمادًا، وكذلك روحه نفسها؟

لم يكن الأب فاسيلي قلقًا بهذه الأسئلة، لكنّه فقط كان يتلوّى بالفعل تمامًا كما لو كان في الجحيم. هكذا ظلّ يتعذّب حتّى حلّ الليل، واستمرّ في جزء منه. وفي الصباح هدأت نفسه.

تقول التجربة اليومية البسيطة إنّّه من المستحيل -بعد أن أمضيت نصف عام في إنشاء هذه الكنيسة أو الطائفة، أيّا كانت تسميتها- أن تأتي فجأة وتعلن أنّك تتخلّى عن كلّ ما صنعتّه. يجب أن يمنح نفسه شهرًا إضافيًا على أقلّ تقدير.

لكن كيف سيُنظّم اجتماعات هذا الشهر؟ على سبيل المثال اجتماع الغد واجتماع يوم الثلاثاء؟

ومرّة أخرى، لقد سلقه الشعور بالخزي! إنّّه أنانيّ! هل كان يساعد أيّ شخص في حياته؟ تسكن أمّه العجوز في فيشني فولوتشوك، متى زارها آخر مرّة؟

صحيح أنّها ليست وحيدة مهجورة، إذ تعيش معها أخته الكبرى غير المتزوجة، ولكن عليه هو أيضًا أن يذهب إليها ويساعدها. لكن، لماذا عليه أن يساعد شخصًا ما؟ في الواقع، لا يهمه أحد سوى نفسه التي يحبّها، وهل يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك إذا كنت تتخيّل نفسك إلهاً؟

وقرّر أن يجبر نفسه على العمل الجسديّ، وأن يدعو أتباعه إلى هذا العمل.

وقد أعلن في اجتماع الثلاثاء:

- «لقد حان الوقت لنا جميعًا للعمل من أجل الصالح اليوميّ للناس. أريد أن أسمع ما يمكن أن يفعله كلّ واحد منكم في عائلته، في العمل، في المنزل الذي يعيش فيه. ومن ليس لديه فكرة ما ليعمل عليها، سأعطيه مهمّة ليعمل معي. لكن - في البداية - يستحسن أن أسمع منكم.

وتبع ذلك استقبال فوضويّ لبعض الالتزامات المتزايدة.

وحيث كان يعمل هؤلاء الأشخاص، كانت الإدارة تحمّلهم أعباء إلى أقصى حدّ، لم يجرؤوا على تجاوز الحدّ خوفًا من وقوع انفجار. الآن كانوا قد راكموا على أنفسهم الأعباء. قالت معلّمة كيمياء من مدرسة سيرغي فاليريفيتش - وكانت قد بدأت الحضور مؤخرًا - إنّها ستضيف ثلاثة طلاب آخرين إلى الطلاب الثلاثة الذين كانت تعطيهم دروسًا مجانيّة بعد انتهاء

الدروس الأساسية، وستكتف عملها بقوة أكبر في إدارة الصف المدرسي.
قالت مازحة قليلاً:

- أمل ألا تجبرنا على كتابة تقرير خطّي؟ حينئذ يمكنني إحضار خطّة
شخصيّة قياسية، مثل تلك التي نملأها، هناك الكثير من كلّ شيء
باستثناء العبء التدريسي.

- لا، بالطبع، لن نكتب أيّ شيء، يكفي أن نحدّث بعضنا بعضاً. (نظر
الأب فاسيلي حوله وأضاف): من منكم لم يتكلّم بعد هنا؟ يبدو أنّه
سيرغي فاليريفيتش؟

لم يردّ مدير المدرسة على الفور:

- أعتقد أنّني أقوم بمنح الشقّ بشكل منتظم. لا توجد اعتراضات
عليّ. لن أتكلّم حالياً عن أيّ شيء يخصّ الأسرة والبيت، لكنني
سأتكلّم بعد القيام بذلك. بشكل عام، سأعمل معك أيّها الأب
فاسيلي، إذا كنت لا تمانع، وإذا ما تيسّر لي، بالطبع.

- إنّك تستطيع... تستطيع، ليتني أنا أستطيع مثلك! إليك ما سأقوم به.
أولاً: سأنتقل بين الشقّ لأكتشف حاجات الناس. ثانياً: سأقدّم
المساعدة للمشرّدين واللاجئين في مناطق متعدّدة من موسكو. هنا
من المهمّ أن تتخذ المسار الصحيح: عدم التحوّل كثيراً إلى مدافع
وقانوني، على الرغم من أنّ الكثير يعتمد على السلطات، فهذا يعني
أنّك في حاجة إلى التعامل معها. هذا الأمر، يا سيرغي فاليريفيتش في

إمكاني أن أكلفك به. أنا - شخصياً - أريد أن أفعل شيئاً أكثر صعوبة، أريد أن أعيش حرفياً بين هؤلاء الناس حتى يشعروا أنهم ليسوا منبوذين. حينئذ ستكون لعظاتي فعالية أفضل، والأهم من ذلك لا أريد أن أعط بالكلمات، بل بالأفعال، وأن أساعد حقاً. قال أحد المستمعين الجدد - وكان طبيباً أخصائياً - بسخرية: «ادعهم هنا».

فوجئ الأب فاسيلي:

- ما هذا، هل تريدني أن أدعوهم إلى هنا مباشرة؟ لماذا؟

الطبيب نفسه لم يعرف. أكد سيرغي فاليريفيتش من جديد:

- وكيف ستعمل مع اللاجئين؟

ولم يكن الأب فاسيلي يعرف ذلك حينئذ.

بشكل عام، كان الحديث استعراضياً قليلاً، إذ نوقشت خطة عمل متفخخة، كما كان يحدث في الحقبة السوفيتية، لكن الأب فاسيلي شجّعهم على ذلك. وقال متهللاً:

- أخيراً، أشعر أننا نقوم بما يتعين علينا القيام به!

ومع ذلك، لم تدم فرحته طويلاً بعد الاجتماع، إذ لم تحدث الحيوية الحقيقية التي يمنحها التكفير. ومن جديد سحقه الشعور بالخزي. في الوقت نفسه، لم يعد لديه مال على الإطلاق. كان قد استدان من كل شخص استطاع أن يستدين منه، وضافت دائرة الدائنين المحتملين.

لن يستطيع مساعدة المشرّدين، لأنّه -نفسه- يحتاج إلى أن يمدّ يده طالباً المساعدة.

اتصل بمنظّمة «المسيحية المفتوحة»، بغض النظر عن مدى الإهانة. لم يذكره كولوسوف بأيّ شيء، أخبره ببساطة أنّه لم يكن لديهم مقاعد في منتصف الفصل الدراسي، لكن ربّما يتوفّر عدد منها في الخريف، وعلى الأب فاسيلي الاتصال والتذكير بنفسه. وعلى الرغم من أنّ كلّ شيء كان واضحاً، إلّا أنّه جاء إلى المنظّمة للحديث مع كولوسوف هناك.

عند المدخل، توقّفت لقراءة إعلان خلف الزجاج يقول إنّ منظّمة مسيحية فرنسيّة أخرى تقيم هناك. فتحت بوابةً شابّةً جديدة الباب المغلق بعد أن سمعت الجرس. وعبر الممرّ الضيق، وصل الأب فاسيلي إلى الفناء الداخليّ، حيث اسودّت سيقان أزهار العام الماضي في الأحواض بسبب الرطوبة، وبسبب الثلج الذي لم يذُب بعد.

دخل الأب فاسيلي ورأى كولوسوف -كالعادة- في الجناح الأيمن في مكتبه، بل ليس مكتباً، لقد كان عبارة عن غرفة مستطيلة تشبه المختبر. عند الجدارين الطويلين وُضعت أجهزة كمبيوتر، جلست خلف أحدها فتاةٌ ظهرها إلى كولوسوف الذي راح يفرك جسر أنفه بعد أن رفع النظارة. قال مندهشاً:

- أوه، الأب فاسيلي!

- لقد جئت لأنّ العمل ضروريّ للغاية، كما تعلم - ببساطة - ليس لديّ ما آكله. هذا ما أردت قوله.

تناول الأب فاسيلي كرسيًا وجلس أمام كولوسوف وقد راح يتأتى بسبب الاضطراب.

- هكذا إذن؟ فجأةً...

كان الأب فاسيلي يفكّر في الطريق إلى أيّ درجة يجب يكون حازمًا؟ عندما ترجو أحدًا، تكون الحاجة إلى إثارة الشعور بالخزي أهمّ من الضغط. فكلّ واحد منّا - على الأقلّ - يمكنه أن يمنح شخصًا ما شيئًا ما، وإذا لم يمنحه، فعليه أن يشعر بالخزي من نفسه.

لكن لا يجوز أن تشكر بشدّة، سيجبر هذا بعض الناس على تغيير رأيهم. من الضروريّ أن تبدي عدم الرضا على أيّ حال، لأنهم لم يمنحوك كلّ ما كان في وسعهم أن يمنحوك إيّاه. ومرة أخرى، هذا صحيح: مَنْ سيمنح كلّ شيء؟ سيؤدي هذا الضغط القليل على الآخرين إمّا إلى زيادة المساعدة، أو - على الأقلّ - تثبيت العرض المقدّم. هذا هو الأسلوب الذي يتّبعه مَنْ يُدعون بـ«الأشخاص الناجحين بعملهم».

وفكّر الأب فاسيلي، هل يناسبه هذا الأسلوب؟ وهل استخدامه حتميّ؟ على أيّ حال، كان في إمكانه أن يسبّب الخزي لأيّ شخص تقريبًا، وهذا هو الجانب الأصعب. وهكذا لم يقرّر أيّ شيء، وعلى ما يبدو، شعر كولوسوف بذلك لأنّه تنهّد وفتح يديه قائلاً:

- لسوء الحظّ، لا يمكنني إضافة أيّ شيء إلى ما قلته على الهاتف.

ودعا الأب فاسيلي للاتصال في الصيف، بل في أيار، هنا نهض الأخير...
وبالفعل، فجأة سأل من عند الباب:

- وهل سمعت عن الدين الجديد؟
- لا، وماذا يكون هذا؟
- أنا أعطي بعض الدروس الدينية، وقد ظهرت فكرة الدين الجديد فيها...
- أها. حسناً، أنت رجل مستقل. كلما كانت الأديان أكثر، كان الأمر أفضل.

فوجئ الأب فاسيلي وهو ينزل الدرج. كان لتوّه قد تخلّى بالفعل عن هرقطته، ولم يكد كولوسوف يسمع بها حتّى الآن. الحمد لله! حسناً، لو تمكّن من الجهر بذلك، فكم كان سيكون خزيه!
ولكن لا بدّ من تناول الطعام! هل يعقل أن لا يجد الواعظ عملاً في موسكو الحاليّة ذات النزعة الدينيّة؟ لا يمكن.

وفجأة تذكّر، وهو يقترب بالفعل من مسرح البولشوي أنّ هناك كنيسة قريبة حيث يعمل رفيقه الأب غلب هناك!

استدار، وسرعان ما بانّت له الكنيسة غير عاديّة وصغيرة، تقف على زاوية شارعين، على الخطّ نفسه لصقّ المنازل الأخرى، غير طبيعيّ! بيضاء، بدت كأنّها جُدّدت حديثاً، وكانت أسقفها وقباها زرقاء، وقد تألّقت صلبانها بوضوح في سماء نيسان. كان مدخل الكهنة بعيداً، وهنا - عند الزاوية - كان مدخل الرعية، دفعه قليلاً، وجده مفتوحاً!

-26-

تمكّن من العودة إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة والحصول على مكان في موسكو! كان المكان متواضعًا للغاية، في جناح فقير، لكن ما الفرق؟ لم يأت حلّ هذه المشاكل سريعًا، أتى فقط بحلول الصيف. لكن أخيرًا، في صباح يوم الأحد من شهر حزيران بدأ الأب فاسيلي عمله مع رئيس الكنيسة وشمّاس المناولة في كنيسة البشارة للسيدة مريم العذراء. كانت الأمور مزدحمة في رأسه، لأنّه نام قليلًا واستيقظ مبكرًا من أجل القدّاس الصباحي في الساعة السادسة. تمّ تقديم هذا القدّاس مؤخرًا في الكنيسة المحليّة، وهم الآن يفكّرون في إلغائه لأنّ أحدًا لم يحضره سوى خمس أو ست نساء مسنّات لا ينمن، فلم يطلع الفجر ولم يكن نورًا. الآن، الساعة العاشرة، تزايد عدد الناس.

كان صباحًا مشمسًا مع بعض النسّمات الشقيّة التي تتجول في أفنية موسكو التي زُرعت فيها أشجار الحور التي أسرفت في تساقط أوراقها، مع مدرسة مبنية بالطوب الرماديّ بجوار الكنيسة، تمامًا كمدرسة سيرغي فاليريفيتش.

كانت الكنيسة غريبة من القرن الثامن عشر، مكوّنة من ثلاثة طوابق ومتعدّدة المذابح. المعبّد من الخارج أصفر، مع أعمدة بيضاء كما لو كانت قد سُحّقت قليلًا بمرور الوقت، وقياب خضر. في الداخل، يؤدّي الدرج المنحدر المتقطّع بدايةً إلى الطابق الثاني، حيث كان هناك ثلاثة عروش:

عرش حماية أم الربّ، عرش تمجيد الصليب المقدّس والنبّي إيليا وعرش يوحنا المعمدان. وفي الطابق الأوّل كان هناك ثلاثة عروش، رُمّم واحد منها -فقط- في الكنيسة كلّها. في الطابق الثاني وفي الممرّ الجنوبيّ كان عرش النّبّي إيليا، وهناك يقيمون صلواتهم حاليّاً.

كان الأيقونسطاس المصنوع من عوارض رفيعة ورقائق خشبية لا يصل إلى السقف، ويحيط بجزء من المذبح، ولكن إذا نظرت من المذبح، ستجد الجوقة إلى اليمين تغني مغطّاة بستارة، وإلى اليسار كانت عتبات النوافذ مغطّاة بأصص الزهور التي جلبتها العجائز.

وكان يوجد هناك -عكس الضوء- صبار شائك مرن شبه شفاف، ونبات «ذيل التمساح» الأسود المخضّر، مثل الأوراق المسطّحة المستديرة ذات الزوايا الحادّة، الخارجة بعضها من بعض في المستوى نفسه، وزهرة إبرة الراعي العطريّة الحمراء والوردية بأوراقها التي تشبه المظلات.

وإلى اليمين، بالقرب من الأعمدة، على الأرض وعلى المناضد، كان هناك نباتات خضراء أيضاً، وبدا داخل الكنيسة بالكامل كأنّه منزل عائليّ -للاّية- تمّ تربيته على عجل بشكل فخم في الوقت نفسه، بفضل العديد من الأيقونات الكبيرة، بما في ذلك الأيقونات المائلة من أجل التقييل، وبفضل الثريا الضخمة في المذبح، واللافتات العالية التي تحتوي على صور القديسين. هذا كلّ ماأخوذ من معبد رحب أكثر رحابة من معبد محليّ. وسيبقى القدّاس الأرثوذكسيّ نفسه -مهما اختصرته، وما لم تتخلّ عن

الرتب بأكملها- شيئاً لا يمكن أن يُحشَر عنوةً في أيِّ مكان، إنَّه يتطلَّب عالمًا كاملاً.

بدا هذا للأب فاسيلي، وبسبب شعوره المستمرِّ بالخزي وتأنيب الضمير، إسرأفاً بالتفاخر. لماذا كل هذه الطقوس المعقَّدة والأناشيد التي لا تثير فكرة عظمة الله وحده، بل تثير -أيضاً- عظمة الطقوس الروسية- اليونانية والدولة؟ لماذا هذه الزينة الفاخرة للجوقة في كلِّ كنيسة؟ كان الأب فاسيلي خائفاً: لن يبقى هنا، عليه أن يتحرَّك إلى الأمام، لكن إلى أين؟ هل يلتحق بالدير مشياً على الأقدام؟ أو هل يستعيد تخصَّصه المدني؟

لكن بمجرد أنَّه علق هنا، كان لا بدَّ من البقاء بعض الوقت. مَنْ يعلم إن كان سيصل إلى نوع ما من التفاخر بدل العمل المتواضع في تخصَّصه الأول؟ كان ما فعله طيلة عام يمتدُّ خلفه. كان قبل شهر قد قابل رادها.

بدأت طقوس التعميد. سَحرت المباخر، والمشي والغناء الأب فاسيلي، ونسي تدريجياً كلَّ شيء سوى القدَّاس. كان رأسه يتألَّم، وكان يسمع دويًّا داخل جمجمته خلف العينين، لكنَّه عايش أكثر الأماكن تفضيلاً، المفاصل الرئيسية للقدَّاس.

على سبيل المثال، ربَّما يكون هذا أهمَّ شيء: هناك حيث يصبح الشَّماس في البوابات الملكية، وهو ما فعله، بينما قال الأب فاسيلي متعجباً:
- كم أنت مقدَّس، إلهنا! ونحن نمجِّدك، إلى الأب والابن والروح القدس، الآن وإلى الأبد.

يجب على الشَّماس إنهاء هتاف التعجّب، وقد فعل ذلك في الوقت المناسب:

- وإلى أبد الآبدين!

صاح بصوت مُصمّ، كما هو مطلوب منه. ثمّ بدأت الجوقة ترنيمه كنسيّة، أنهتها بهدوء وبشكل حادّ.

وفكّر الأب فاسيلي -ناظرًا إلى تألّق الشمس الحادّ على عمود الشمعدان الملتوي- في أنّ عمله هذا ليس العمل الأقلّ فائدة، وأنّه من الأفضل القيام به باجتهاد.

سانت بطرسبيرغ 2016

المؤلف في سطور

ولد أندريوشكين ألكسندر بافلوفيتش سنة 1960 في لينينغراد (سانت بطرسبرغ حالياً). كاتب وناقد ومؤرخ ومترجم. عضو اتحاد كتاب روسيا الاتحادية منذ 2012. نشر كتاباته في أهم المجلات الثقافية في روسيا، مثل «نوفي مير» (العالم الجديد)، «ناش سوفريمينك» (المعاصر)، زفيزدا (النجم)، «نيفا» (نهر النيفا)، «سيفيرنايا أفرورا» (أفرورا الشمال)، وفي حولية «سيفيرنيه تسفيتي» (أزهار الشمال)، «أكنو» (النافذة)، وفي صحف: الصحيفة الأدبية، وروسيا الأدبية، وبطرسبيرغ الأدبية.. الخ. ينتمي أندريوشكين إلى تيار الأدباء الوطنيين الروس في اتحاد كتاب روسيا الاتحادية.

من مؤلفاته: «السياسي»، رواية، 1994، «القوة العظمى»، قصص قصيرة 1994، «أبناء غورباتشوف»، رواية، 2016، و«الصيرفي»، رواية، 2017.

ترجم من الفارسية والعربية، ونشر حوالي عشرة كتب من ترجماته من الفارسية، من بينها روايات في سلسلة «الأكثر مبيعاً في إيران»: «أنا لها» لرضا أمير خان، 2013، و«ضحايا الحديقة المقدسة» لمحمد - رضا بيرامي 2014، و«الشطرنج مع آلة المحكمة المرعبة» لحبيب أحمد زاده، 2015، و«رحلة على ارتفاع 270» لأحمد ديخكان 2015، «آخر اللارين»، لمحمد قاسم مازيناني، 2016، وغيرها.

المترجم في سطور

د. باسم إبراهيم الزعبي، مواليد سنة 1957، تخرج في أكاديمية العلوم السوفيتية (1990). كاتب وباحث ومترجم أردني، صدر له ما يزيد على عشرين كتابا في الأدب والترجمة، ومئات الدراسات والمقالات والقصص الخاصة والمترجمة المنشورة في المجلات الأردنية والعربية.

من ترجماته من اللغة الروسية:

- رقصة العاج، مختارات قصصية من الأدب الإفريقي المعاصر، 2000.
- شخصية مشرقة، قصص ساخرة من الأدب الروسي، ط2، 2006، 2008.
- ذات مساء. قصص، أركادي أفيرتشنكو، 2007، ط2، 2011، ط3، 2016.
- يتساقط الثلج هادئا، قصص روسية معاصرة، 2009.
- سحر الشرق، قصص، أنطون تشيخوف وآخرون، ط2، 2016، 2017.
- قصة حب بسيطة، قصص، ليديا صيتشيفا وآخرون، 2016.
- مسمار في الحائط، مختارات قصصية من الأدب الكلاسيكي الروسي، 2017.
- شجرة الحور الفضية، مختارات قصصية من الأدب الروسي الحديث، 2017.

- دكتاتورية المستنيرين-روح الإنسانية العابرة وأهدافها، أولغا تشيتفيريكوفا، 2020.
- كائن ضعيف، مختارات قصصية لأنطون تشيخوف، 2021.

